مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فهذه هي المجموعة الثانية من كتاب:

«المنتقى من بطون الكتب»

ولقد يسر الله جمعه وانتقاءه من كتب عديدة، وفي موضوعات متنوعة، ولمؤلفين مختلفين، وفي عصور متباينة.

ويُهدف من وراء ذلك أمور كثيرة منها: التعريف ببعض الكتب، وبيان ما تضمنته من علوم خصوصاً إذا كانت نادرة، أو قليلة الانتشار.

ومنها: الوقوف على مناهج بعض المؤلفين، وطرائقهم في الكتابة والتأليف خصوصاً وأن هذه المجموعة ستتضمن تعريفاً موجزاً بالمؤلفين ومناهجهم.

ومنها: ـ وهو أعظمها ـ إنهاض الهمم، وتوسيع المدارك، وزيادة الإيمان، وترسيخ الفضيلة، وإبهاج النفوس، والرقي بالأخلاق؛ وذلك من خلال النقول التي تتضمن حكماً بالغة، أو مواعظ حسنةً، أو تجاربَ ناضجةً، أو نظراتٍ ثاقبةً، أو أفكاراً ساميةً، أو عباراتٍ رائعةً رائقةً، أو تحريراتٍ عاليةً، أو أساليبَ بارعةً، أو معانيَ لطيفةً، أو قصصاً نادرةً مؤثرة، أو تعريفاتٍ جامعةً مانعة، أو غير ذلك مما جرى مجراه، مما يفيد الإنسانَ في معاشه ومعاده.

فأسأل الله ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ـ أن يجعل هذا العمل مباركاً نافعاً، خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء من أعان على إخراج هذا الكتاب؛ إنه سميع قريب.

وإلى تلك النقول، والله المستعان، وعليه التكلان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

محمد بن إبراهيم الحمد
ص.ب ٤٦٠
الرمز البريدي ١١٩٣٢
الزلفي ١٤٢٥/١/١٧هـ

أولاً: نقولات مختارة من كتاب:

آداب النفوس لأبي عبد الله حارث بن أسد المحاسبي ت ٢٤٠هـ

ـ «**تعريف بالكاتب و بالكتاب**» :

كتاب (**آداب النفوس**) لأبي عبدالله حارث بن أسد المحاسبي أو المعروف بـ: الحارث المحاسبي، المتوفي سنة **٢٤٠**، وهو من معاصري الإمام أحمد بن حنبل ـرحمهما اللهـ.

وهذا الكتاب يتحدث فيه مؤلفه عن أدواء النفوس، وما تنطوي عليه من خلائق السوء.

ويحاول تشخيص تلك الأدواء، ويسعى في علاجها، وإعادتها إلى فطرتها، وصفائها، ونقائها.

كما أن الكتاب يحتوي على حكم بالغة، وكشفٍ عن دقائق النفس، ومواعظ تعين الإنسان على الاستعداد ليوم المعاد.

وهذا الكتاب من مطبوعات دار الجيل بيروت، ويقع في **٢٠٠** صفحة.

ـ «النقولات المنتقاة» : قال رحمه الله :

١ـ وإن إبليس إنما يُسَوَّرُ عليك في الآثام من وسوسة نفسك، وخراب قلبك.ص٥٠

٢ـ ولا شيء أعجب إلى إبليس من ظلمة القلب، وسواده، وانطفاء نوره، وتراكب الرَّين عليه، ولا شيء أثقل على الخبيث من النور، والبياض، والنقاء، والصفاء، وإنما مأواه الظُّلمة، وإلا فلا مأوى له، ولا قرار في النور والبياض. ص٥١

٣ـ ومن أراد الزهد فليكن الكثير مما في أيدي الناس عنده قليلاً، وليكن القليل عنده من دنياه كثيراً، وليكن العظيم منهم إليه من الأذى صغيراً، وليكن الصغير منه إليهم عنده عظيماً.ص٥٥

٤ـ ولو استغنيت بالله وحده، وبإطلاعه عليك، وبجزيل ثوابه لأهل طاعته، ومحبته لهم، وتوفيقه لهم، وتسديده إياهم، وراقبته ـ لأغناك ذلك عمن لا يملك لك ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً. ص٦٠

٥ـ فاحذر ـ رحمك الله ـ من قَرُبَ منك وقَرُبْتَ منه، فإن الذين بَعُدوا منك وبَعُدْتَ منهم سلموا منك، وسلمت منهم.ص٧٤

٦ـ فإن العبد إنما يؤتى من قبل التهاون باليسير، وهو الذي يوقع في الإثم الكبير، والتهاون باليسير هو الأساس الذي يبني عليه الكثير؛ فيكون أوله كان تحفظاً، ثم صار انبساطاً، ثم صار من الانبساط إلى ذكر اليسير، ثم صار من

اليسير إلى ما هو أكثر منه، فلا تشعر حتى ترى نفسك حيث كنت تكره أن ترى فيه غيرك، ففي ترك اليسير ترك اليسير والكثير.ص٨٦

٧ـ وأقوى الناس على ذلك، وأصدقهم عزماً هو الذي إذا عزم أمضى عزمه ولم يلْوِ، وأضعف الناس في ذلك أضعفهم عزماً، وهو الذي يعزم ثم يحل عزمه، ولا يكاد يمضي عزماً.ص٨٦

٨ـ وبعض الأمور تركها أشد على العبد من بعض، وصاحب الإرادة لا ينبغي أن يغلط في هذا، ولكن يفاتش أموره كلها مفاتشة شديدة، بالعناية وغائص الفهم، ودقائق لطائف الفِطَن، حتى يعلم ما هو أشد عليه في الترك، ويعلم ما هو أسلم له، وأنفع له، فيجعل جِدَّه وجديده، ومعرفته وعلمه، وفهمه وكياسته، وعنايته وفطنته فيما هو أشد عليه في الترك، وأكثر ضرراً عليه.

والناس في ذلك مختلفون، فرب رجل يهون عليه ترك شيء يشتد على غيره، ويشتد عليه ترك شيء يهون على غيره تركه، ويشتد عليه طلب ما يهون على غيره، ويهون عليه طلب ما يشتد على غيره؛ لأنه حُبِّب إلى هذا من الأشياء ما لم يُحَبّب إلى غيره، وبُغّض إليه من الأشياء ما لم يُبَغّض إلى غيره.ص١١٤

٩ـ وأما باب النصح فتكون نيته وسيرته ومذهبه في السر والعلانية: أن أمور الأمة كلها لو أجريت على ما في ضميره وسريرته لأحب أنها رشَدَتْ أمورها، وأطاعت ربها، وصار إلى كل واحد منهم حظه من الحق والعدل.

فإن كانت هذه سيرته في خاصته، وعلى هذا نيته في العامة ـ رجوت أنه في كل أمر جليل، ونعمة عظيمة، لا يعلم قدرها إلا الله ـ تعالى ـ.

وإن خالفت سيرته في خاصته وعامته هذا الوصف، فلا حظ له في النصح الخاص ولا العام، وكان ما يدعي أنه يضمر وينوي في سريرته، من نصح الخاصة والعامة مردوداً عليه، غير مقبول منه.ص١٢٥

١٠ـ واعرف صمتك عند الخوف من سقوط جاهك عند من لك عنده الجاه والقدر.ص١٢٩

١١ـ واعرف صدقك عند الحالة التي يتصنع ويتزين في مثلها المتزينون والمتصنعون.ص١٢٩

١٢ـ واعرف صبرك عند ترك شهوة قد ملَكتها، هل تستطيع تركها على ذلك أم لا؟.ص١٢٩

١٣ـ واعرف عقلك عند ترك ما لا نفع لك فيه في الدنيا ولا في الآخرة، ولا ثواب لك فيه عند الله ـ تعالى ـ هل تستطيع ترك ذلك أم لا؟.ص١٣٠

١٤ـ إن الناسك إن لم يقبل الحكمة، ولا الموعظة، ولا النصيحة من العدو والصديق، والسفيه والحليم ـ فنُسكه نُسُك الملوك. ص١٣٨

١٥ـ واعلم أن لذتك فيما تجد من حلاوة طعم الحلوى، وغير ذلك، إنما تجدها عند أكلك إذا أكلتها، وحلاوة الهوى والشهوة في الفكر إذا تابعته على ما تريد، ليس له طعام ولا شراب، إنما لذته من الأشياء أن يتابع في فكره وأصله.ص١٤٦

١٦_ واعلم أن لذة الرياء وحلاوته لذة تخالط القلوب، وتجري في العروق، فاحذر ذلك في ابتداء أول العمل، وفاتش الهمة، وتقصَّ تصحيح الإرادة، وكن في ذلك كله مراقباً لله وحده.ص١٤٦

١٧_ وعلامة النصح للناس: أن تحب لهم ما تحب لنفسك من طاعة الله_تعالى_ وأن تكره لهم ما تكره لنفسك من معصية الله _ تعالى _.ص١٥١

١٨_ وعلامة الصبر: ألا تشكو من جميع المصائب إلى أحد من المخلوقين شيئاً.

والصبر هو: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على كتمان المصيبة، وهو من كنوز البر، والصبر على كتمان الطاعة، والصبر: حبس النفس عن ذلك كله. ص١٥١

١٩_ ومن علامة التواضع: ألا يدعوك أحد إلى حق إلا قبلته ولم ترده، ولا ترى أحداً من المسلمين إلا رأيت نفسك دونه. ص١٥٢

٢٠_ والحزم: الفرار من كل موضع فيه محنة.ص١٥٤

٢١_ احذر شهوة لا تبقى، وندامة لا تفنى.ص١٧٦

٢٢_ احفظ الله عند هواك، يحفظك عند لقاك.ص١٧٩

٢٣_ اجتهد ولا تيأس، ولا تقل عند ذكر الصالحين: لولا ذنوبي لرجوت طريقة الصالحين، فيُفَتِّرك ذكرُ ذنوبك عن العمل، فإن صاحب الحمل الثقيل أولى أن يجتهد في إسقاط ما قد حملَ من المُخِفِّ الذي ليس على ظهره شيء.ص١٧٩

٢٤_ إن أردت أن ينظر الله إليك بالرحمة _ فانظر أنت إلى الصالحين بالغبطة ، وإلى العاصين بالرأفة. ص١٧٦

٢٥_ ما ظنك بمن يكره أن يطلع الناس منه على ما يكره الله ، ولا يستحي أن يطلع الله منه على ما يكره. ص١٨٦

ثانياً: نقولات مختارة من كتاب:

العزلة لأبي سليمان الخطابي البستي ٣١٩ - ٣٨٨هـ

_ «**نبذة عن المؤلف**»:

هو الإمام الحافظ الشيخ أبو سليمان حَمْد _ بفتح الحاء وسكون الميم _ ابن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي.

ولد في شهر رجب سنة ٣١٩ بمدينة بست.

كان رحمه الله فقيهاً، محدثاً، أديباً له التصانيف البديعة _ كما قال بن خلِّكان _.

وكان من المكثرين في التأليف، المجيدين فيه، فمن تآليفه القيمة: معالم السنة، وغريب الحديث، وأعلام السنن، وشأن الدعاء، وإصلاح خطأ المحدثين، وشرح أسماء الله الحسنى، والغنية عن الكلام وأهله، والعروس، وغيرها من الكتب.

ومنها: كتاب العزلة.

_ «**تعريف بالكتاب**»:

كتاب (العزلة) من منشورات مكتبة الثراث الإسلامي ويقع في مائتين وعشر صفحات.

وهذا الكتاب من أشهر مؤلفات الإمام الخطابي رحمه الله.

ويدور هذا الكتاب حول العزلة والخلطة وضوابط كل منهما.

وتحت هذا المفهوم يذكر أبواباً تصل إلى سبعة عشر باباً يمكن إجمالها فيما يلي:

_ باب حكاية ما احتج به من أنكر العزلة.

ـ باب ما جاء في العزلة.

ـ باب ذكر أسباب تسهل على المرء العزلة ، وتفطمه عن صحبة كثير من ذوي الخلطة.

ـ باب في خفة الظهر ، وقلق العيال والأهل.

ـ باب في ترك الاستكثار من الأصدقاء ، وما يستحب من قلة الالتقاء.

ـ كتاب جامع في ترك ما لا يعني ، ورفض الاشتغال بما لا يجدي.

ـ باب في التحذير من قرناء السوء ، وحسن ارتياد الجليس الصالح.

ـ باب اختلاف طبقات الناس.

ـ باب في ذكر أخلاق العامة ، وما يوجد فيهم من قلة الاستفاضة(١).

ـ باب التحذير من عوام الناس ، والتحرز منهم بسوء الظن فيهم ، وقلة الثقة فيهم ، وترك الاستنامة إليهم.

ـ باب في فساد الزمان وأهله.

ـ باب فيمن يتمنى الموت ، وآثر المرض والعمى على لقاء الناس.

ـ باب في ترك الاعتداد بعوام الناس ، وقلة الاكتراث بهم والتحاشي لهم.

ـ باب في فساد الخاصة ، وما جاء في علماء السوء ، وذكر آفاتهم.

ـ باب في آفات القراء.

ـ باب في فساد الأئمة وما جاء في الإقلال من صحبة السلاطين.

ـ باب في لزوم القصد في حالتي العزلة والخلطة.

١ـ لعلها : الاستقامة.

هذه نبذة مختصرة لما جاء في الكتاب من أبواب.

والمؤلف رحمه الله لم يرد بالعزلة اعتزال الناس بإطلاق، وإنما بيَّن ذلك، وقيده؛ فاعتزالهم إنما يكون في الشر، ولأجل الفرار عن الفتن.

أما اعتزالهم في الخير، وفي الجمع والجماعات وما جرى مجرى ذلك _ فلم يكن من قصد المؤلف.

والكتاب حافل بإيراد النصوص الشرعية، وأقوال العلماء والحكماء كما أنه تميز بجمال العبارة، وحسن السبك، كيف والخطابي يعد من أكابر أدباء عصره؟.

_ «**النقولات المنتقاة**» : **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

١_ وأما عزلة الأبدان ومفارقة الجماعة التي هي العوام فإن من حكمها أن تكون تابعة للحاجة، وجارية مع المصلحة؛ وذلك أن عظم الفائدة في اجتماع الناس في المدن، وتجاورهم في الأمصار إنما هو أن يتضافروا، فيتعاونوا على المصالح، ويتآزروا فيها، إذا كانت مصالحهم لا تكمل إلا به، ومعايشهم لا تزكو إلا عليه.

وللإنسان أن يتأمل حال نفسه، فينظر في أي طبقة يقع منهم، وفي أية جنبة ينحاز من جملتهم؛ فإن كانت أحواله تقتضيه المقام بين ظهراني العامة؛ لما يلزمه من إصلاح المهنة التي لا غنية له به عنها، ولا يجد بداً من الاستعانة بهم فيها، ولا وجه لمفارقتهم في الدار، ومباعدتهم في السكن والجوار _ فإنه إذا فعل ذلك تضرر بوحدته، وأضر بمن وراءه من أهله وأسرته.

وإن كانت نفسه _ بكلها _ مستقلة، وحاله في ذاته وذويه متماسكة فالاختيار له في هذا الزمان اعتزال الناس، ومفارقة عوامهم؛ فإن السلامة في مجانبتهم، والراحة في التباعد منهم.ص١٥ _ ١٦

٢_ ولسنا نريد _ رحمك الله _ بهذه العزلة التي تختارها مفارقة الناس في الجماعات والجمعات، وترك حقوقهم في العبادات، وإفشاء السلام، ورد التحيات، وما جرى مجراها من وظائف الحقوق الواجبة لهم، ووضائع السنن والعادات المستحسنة فيما بينهم؛ فإنها مستثناة بشرائطها، جارية على سبلها، ما لم يحل دونها حائل شغل، ولا يمنع عنها مانع عذر، إنما نريد بالعزلة ترك فضول

الصحبة، ونبذ الزيادة منها، وحط العلاوة التي لا حاجة بك إليها؛ فإن من جرى في صحبة الناس، والاستكثار من معرفتهم، على ما يدعو إليه شغف النفوس وإلف العادات، وترك الاقتصاد فيها، والاقتصار الذي تدعوه الحاجة إليه _ كان جديراً ألا يحمد غِبَّه، وأن يستوخم عاقبته، وكان سبيله في ذلك سبيل من يتناول الطعام في غير أوان جوعه، ويأخذ منه فوق قدر حاجته؛ فإن ذلك لا يلبث أن يقع في أمراض مدنفة، وأسقام متلفة، وليس من علم كمن جهل، ولا من جرب وامتحن كمن ماد وخاطر.ص١٦

٣_ قال الشيخ أبو سليمان: وكان ابن عمر من أشد الصحابة حذراً من الوقوع في الفتن، وأكثرهم تحذيراً للناس من الدخول فيها، وبقي إلى أيام فتنة ابن الزبير، فلم يقاتل معه، ولم يدافع عنه، إلا أنه كان يشهد الصلاة معه، فإذا فاتته صلاها مع الحجاج، وكان يقول: إذا دعونا إلى الله أجبناهم، وإذا دعونا إلى الشيطان تركناهم.ص٢٦

٤_ لا يستوحش مع الله من عمر قلبه بحبه، وأنس بذكره، وألف مناجاته بسره، وشغل به عن غيره، فهو مستأنس بالوحدة، مغتبط بالخلوة.ص٢٨ _ ٢٩

٥_ قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان بالوحدة؛ لخلاء ذاته، وعدم الفضيلة من نفسه؛ فيكثر حينئذ بملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة؛ ليستعين بها على الفكرة، ويتفرغ لاستخراج الحكمة.ص٢٩

٦ـ أخبرنا أبو سليمان قال: أخبرنا إسماعيل بن أسد قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال: بلغني عن الحسن رحمه الله أنه كان يقول: كلمات أحفظهن من التوراة: قنع ابن آدم فاستغنى، اعتزل الناس فسلم، ترك الشهوات فصار حراً، ترك الحسد فظهرت مروءته، صبر قليلاً فتمتع طويلاً .ص٣٠

٧ـ أخبرنا أبو سليمان قال: أخبرني المطهر بن عبدالله قال: حدثني أبو الحسن محمد بن العباس النحوي قال: كتب إلي ابن لجة يستزيرني، فكتبت إليه:

أنست نفسي بنفسي فهي في الوحدة أنسي
وإذا آنست غيري فأحق الناس نفسي
فسد الناس فأضحى جنسهم من شر جنس
فلزمت البيت إلا عند تَأْدِيْتِيْ لخمسي

ص٣٢ ـ ٣٣

٨ـ أخبرنا أبو سليمان قال: أخبرني محمد بن أحمد بن سليمان قال: حدثنا ابن شبيب قال: حدثنا إبراهيم بن محمد النحوي قال: حدثنا الرياشي قال: حدثنا الأصمعي قال: سألني الرشيد عن أعراب البادية، وعن أخبارها، فحدثته: أني كنت في مكان يقال له الطخفة، وهي قرية لبني كلاب، رأيت فيها أعرابياً في عنقه طوقٌ ملتوٍ من فضة، وبيده زكرة[1] ومعه قدح نبع[2] فتتبعت أثره

١ـ زكرة: وعاء من جلد يوضع فيه الخمر ونحوه.

٢ـ نبع: شجر مخصوص يتخذ منه القسي.

فجاء إلى جذم حائط[١] فجمع رميلة ثم اتكأ عليها، وجعل يصب من شكوته نباذة له في قدح النبع ويشربه، ويرجز عليه، فسلمت عليه ووقفت عنده فقال: إن فيه[٢] خلالاً ثلاثاً إن سمع مني حديثاً لم ينمه علي، وإن تفلت في وجهه احتمل، وإن عربدت عليه لم يغضب، قال الأصمعي: فقال الرشيد: زهدتني في الندماء.ص٣٣

٩ـ قال أبو سليمان: أما ما شجر بين الصحابة من الأمور، وحدث في زمانهم من اختلاف الآراء ـ فإنه من باب كلما قل التسرع فيه، والبحث عنه كان أولى بنا وأسلم لنا، ومما يجب علينا أن تعتقد في أمرهم أنهم كانوا أئمة علماء قد اجتهدوا في طلب الحق، وتحروا وجهته، وتوخوا قصده؛ فالمصيب منهم مأجور، والمخطئ معذور، وقد تعلق كل منهم بحجة، وفزع إلى عذر، والمقايسة عليهم، والمباحثة عنهم اقتحام فيما لا يعنينا، والله ـ تعالى ـ يغفر لنا ولهم برحمته.

وليس التهاجر منهم، والتصارم بأكثر من التقاتل في الحروب، والتواجه بالسيوف، ولا أعجب من التباهل فيما شجر بينهم من الاختلاف والتنازع في التأويل، وكل منهم في ذلك مأجور على قدر اجتهاده في طلب الحق، وحسن نيته، والله يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ونسأله أن لا يجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا إنه رؤوف رحيم.

١ـ جذم الشيء: أصله أو بقيته، والحائط: البستان.

٢ـ الضمير يعود على الشجر الذي في البستان.

فأما من بعد الصحابة من التابعين، ومن وراءهم من طبقات المتأخرين ـ فلنا مناظرتهم في مذاهبهم، وموافقتهم عليها، والكشف عن حججهم، والقول بترجيح بعضها على بعض، وإظهار الحق من أقاويلهم؛ ليقتدى بهم، والتنبيه على الخطأ منهم؛ لينتهى عنه. ص٣٦ ـ ٣٧

١٠ـ أخبرنا أبو سليمان قال: أخبرني إسماعيل بن محمد قال: سمعت ابن إبراهيم يقول: لو لم يكن في العزلة أكثر من أنك لا تجد أعواناً على الغيبة لكفى.

قال أبو سليمان: صدق أبو محمد رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه ما من أحد جالس الناس في هذا الزمان وعاشرهم إلا قلت سلامته من الغيبة؛ فإن من شأنهم اليوم أن يقع بعضهم في بعض، وأن يشبع بعضهم بعضاً، وأن يتمضمضوا بذكر الأعراض، ويتفكهوا بها، ويتنقلوا بحلاوتها، فإما أن يساعدهم جليسهم على إثم وترك مروءة، وإما أن يخالفهم عن قلى وشنآن؛ فمجالستهم داء يعدي يضر ولا يجدي، قال: ولو لم يكن في العزلة إلا السلامة من آفة الرياء، والتصنع للناس، وما يدفع إليه الإنسان إذا كان فيهم من استعمال المداهنة معهم، وخداع المواربة في رضاهم ـ لكان في ذلك ما يرغب في العزلة ويحرك إليها.ص٤١

١١ـ قال أبو سليمان: ومن مناقب العزلةِ السلامةُ من آفات النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها، والاستحسان لما ذمه الله ـ تعالى ـ من زخرفها، وعابه من زِبْرِج غرورها، وفيها منع النفس من التطلع إليها والاستشراف لها، ومن محاكاة أهلها، ومنافستهم عليها، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ** ﴾ طه: ١٣١، ص٤٢ ـ ٤٣

١٢_ قال: ومن مناقب العزلة أنها خالعة عنك ربقة ذل الآمال، وقاطعة رق الأطماع، ومعيدة عز اليأس عن الناس؛ فإن من صحبهم وكان فيهم ومعهم لم يكد يخلو من أن يحدث نفسه بنوع من الطمع فيهم؛ إما في مال، أو جاه، والطمع فقر حاضر، وذل صاغر.ص٤٤

١٣_ قال أبو سليمان: وفي العزلة السلامة من التبذل لعوام الناس، وحواشيهم، والتصون عن ذلة الامتهان منهم، وأمان الملال عند الصديق، واستحداث الطراءة عند اللقاء؛ فإن كل موجود مملول، وكل ممنوع مطلوب.ص٥٢

١٤_ وفي العزلة أنها تستر الفاقة، وتكثف جلباب التحمل، فلا يظهر على عورة إن كانت وراءه تسوء صديقاً، أو تشمت عدواً؛ فإن التجمل من شيم الأحرار، وشمائل ذوي الهمم والأخطار، وقد وصف الله _ تعالى _ به الأبرار من عباده فقال _ تعالى ذكره _: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**﴾ البقرة: من الآية٢٧٣، ص٥٢

١٥_ وفي العزلة أنها معينة لمن أراد نظراً في علم، أو إثارة لدفين رأي، أو استنباطاً لحكمة؛ لأن شيئاً منها لا يجيء إلا مع خلاءِ الذرع، وفراغِ القلب، ومخالطةُ الناسِ ملغاةٌ ومشغلة.ص٥٣

١٦_ أخبرنا أبو سليمان قال: حدثنا ابن الأعرابي قال: حدثنا أحمد بن عمر القطواني قال: حدثنا عمرو بن مرزوق قال: حدثنا زائدة عن الأعمش، عن

مسلم بن صبيح، عن مسروق قال: المرء حقيق أن تكون له مجالس يخلو فيها؛ فيذكر ذنوبه، ويستغفر منها.

قال: وفي العزلة السلامة من صحبة الثقيل، ومؤونة النظر إليه؛ فإن ذلك هو العمى الأصغر.ص٥٤

١٧_ قيل للأعمش: ممَّ عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء.ص٥٤

١٨_ وقال الأعمش: قال جالينوس: لكل شيء حمَّى، وحمَّى الروح النظر إلى الثقيل.ص٥٤

١٩_ قال أبو سليمان: وأنشدني ابن الزيبقي قال: أنشدنا الكديمي قال: أنشدني الأصمعي لأعرابي:

لقد زاد الحياة إلي حباً بناتي إنهن من الضعاف

مخافة أن يذقن الفقر بعدي وأن يشربن رنقاً بعد صافي

وأن يعرين إن كُسِي الجواري فتنبو العين عن كرم عجاف

ص٥٨

٢٠_ قال أبو سليمان: قوله «**المرء على دين خليله**» معناه: أن لا تخالل إلا من رضيت دينه وأمانته؛ فإنك إذا خاللته قادك إلى دينه ومذهبه، ولا تُغَرِّر بدينك، ولا تخاطر بنفسك، فَتُخالِلَ من ليس مرضياً في دينه ومذهبه.

قال سفيان بن عيينة: وقد رُوي في هذا الحديث «انظروا إلى فرعون معه هامان، انظروا إلى الحجاج معه يزيد بن أبي مسلم شر منه، انظروا إلى سليمان بن عبدالملك صحبه رجاء بن حيوة؛ فقومه وسدده».

ويقال: إن الخلة مأخوذة من تخلل المودة القلب، وتمكنها منه، وهي أعلى درج الإخاء؛ وذلك أن الناس في الأصل أجانب، فإذا تعارفوا ائتلفوا، فهم أَوُدَّاء، وإذا تشاكلوا فهم أحباء، فإذا تأكدت المحبة صارت خلة.ص٧١ _ ٧٢

٢١_ أخبرنا أبو سليمان قال: أخبرنا محمد بن مكي قال: حدثنا الصائغ قال: حدثنا سعيد بن منصور قال: حدثنا ابن المبارك، عن حيوة بن شريح، عن سالم بن غيلان، عن الوليد بن قيس، عن أبي سعيد الخدري عن النبيﷺ قال: «**لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي**».

قال أبو سليمان: قولهﷺ لا يأكل طعامك إلا تقي إنما أراد به طعام الدعوة دون طعام الحاجة؛ ألا تراه يقول _ تعالى ذكره _ : ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً**﴾ الإنسان:٨.

ومعلوم أن أسراهم الكفار دون المؤمنين ودون الأتقياء من المسلمين، وإنما وجْهُ الحديث ومعناه: لا تَدْعُ إلى مؤاكلتك إلا الأتقياء؛ لأن المؤاكلة توجب الألفة، وتجمع بين القلوب.ص٧٢

٢٢_ أخبرنا أبو سليمان قال: حدثنا الكراني قال: حدثني ابن شبيب قال: حدثني المنقري، عن الأصمعي قال: قال أعرابي: عداوة الحليم أقل ضرراً عليك من مودة الجاهل.

وفي هذا لبعض الشعراء:

ولأن يعادي عاقلاً خيرٌ له ... من أن يكون له صديقٌ أحمق

فارغب بنفسك أن تصادق جاهلاً ... إن الصديق على الصديق مصدق

ص٧٥

٢٣_ أخبرنا أبو سليمان قال: أخبرني ابن أبي الدق قال: حدثنا محمد ابن المنذر قال: حدثنا محمد بن إدريس قال: حدثني عبدالرحمن بن أبي عطية الحمصي، عن الحطاب بن المعلى المخزومي أنه وعظ ابنه فقال: إياك وإخوان السوء؛ فإنهم يخونون من رافقهم، ويخرفون من صادقهم، وقُرْبُهم أعدى من الجرب، ورَفْضُهم من استكمال الأدب، والمرء يُعرف بقرينه.

قال: والأخوان اثنان؛ فمحافظ عليك عند البلاء، وصديق لك في الرخاء؛ فاحفظ صديق البلية وتجنب صديق العافية؛ فإنهم أعدى الأعداء.

وفي هذا قول الشاعر:

وكل خليل بالهوينا ملاطف ولكنما الإخوان عند النوائب

ص٧٥ _ ٧٦

٢٤_ أخبرنا أبو سليمان قال: حدثنا ابن الزيبق قال: حدثنا موسى بن زكريا التُّسْتَري قال: حدثنا أبو حاتم قال: حدثنا العتبي قال: كنا عند سفيان بن عيينة فتلا هذه الآية: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾ الأنعام: من الآية٣٨.

وقال: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من شبه البهائم؛ فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي لها الطعام الطيب عافته فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه، فكذلك تجد من

الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل عن نفسه، أو حكا خطأ غيره تروَّاه وحفظه.

قال أبو سليمان: ما أحسن ما تأول أبو محمد _ رحمة الله عليه _ هذه الآية، واستنبط منها هذه الحكمة؛ وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعاً لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله _ تعالى _ عن وجود المماثلة بيننا وبين كل دابة وطائر، وكان ذلك ممتنعاً من جهة الخلقة والصورة، وعدماً من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون مصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق، وإذا كان الأمر كذلك فاعلم _ يا أخي _ أنك إنما تعاشر البهائم والسباع؛ فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم على حسب ذلك. ص٨٤

٢٥_ قال أبو سليمان: وسأفيدك فائدة _ يا أخي _ يجل نفعها؛ ويعظم عائدتُها، وما أقولها إلا عن ودٍّ لك، وشفقة عليك؛ فإن البلوى في معاشرة أهل زمانك عظيمة؛ فاستعن بها على ما يلقاك من أذاهم؛ فإنك لا تخلو من قليله وإن سلمت من كثيره، وذلك أنك قد ترى الواحد بعد الواحد منهم يتكالب على الناس، ويتسفَّه على أعراضهم، وينبح فيها نباح الكلب، فيهمك من شأنه ما يهمك، ويسوؤك منه ما يسوؤك أن لا يكون رجلاً فاضلاً يرجى خيره ويؤمن شره؛ فيطول في أمره فكرك، ويدوم به شغل قلبك؛ فأزح هذا العارض عن نفسك؛ بأن تعده على الحقيقة كلباً خِلْقَةً، وزد به في عدد الكلاب واحداً، ولعلك قد مررت مرة من المرار بكلب من الكلاب ينبح ويعوي، وربما كان _أيضاً_ قد يساور ويعض فلم تحدث نفسك في أمره بأن يعود إنساناً ينطق

ويسبح؛ فلا تتأسف له ألا يكون دابة تركب، أو شاة تحلب، فاجعل أيضاً هذا المتكلب كلباً مثله واسترح من شغله، واربح مؤونة الفكر فيه، وكذلك فليكن عندك منزلة من جهل حقك وكفر معروفك؛ فاحسبه حماراً، أو زد به في عدد العانة[١] واحداً، فبمثل هذا تخلص من آفة هذا الباب وغائلته، والله المستعان.ص٨٦_٨٧

٢٦_ أخبرنا أبو سليمان قال: حدثني محمد بن منصور قال: حدثنا شكر قال: حدثنا أحمد بن بكر بن سيف المروزي قال: قال: حدثنا محمد بن الحسين، عن أبي زكريا، قال: كان أعرابي بالكوفة وكان له صديق، فكان يظهر له مودة ونصيحة، فاتخذه الأعرابي من عدده للنوائب، فأتاه فوجده بعيداً مما كان يظهر له، فأنشأ يقول:

إذا كان ود المرء ليس بزائد ... على مرحباً أو كيف أنت وحالكا
ولم يك إلا كاشراً أو محدثاً ... فَأُفٍّ لِودٍّ ليس إلا كذلكا
لسانك معسولٌ ونفسك بشةٌ ... وعند الثريا من صديقك مالُكا
فأنت إذا همَّت يمينُكَ مرة ... لتفعل خيراً قابلتها شمالكا

ص٩٤

٢٧_ قال وأنشدني عبدالعزيز بن عبدالله لمحمد بن حازم:

وإن من الإخوان إخوانَ كشرةٍ ... وإخوانُ حياك الإلهُ ومرحبا
وإخوانَ كيف الحالُ والأهلُ كلُّه ... وذلك لا يَسْوي نقيراً مترَّبا

١_ يقصد بالعانة: الحمير.

جواداً إذا استغنيت عنه بماله   يقول إلي القرضَ والقرضَ فاطلبا
فإن أنت حاولت الذي خلف   وجدت الثريا منه في البعد أقربا

ص٩٤ ـ ٩٥

٢٨ـ قال أبو سليمان: حدثنا إبراهيم بن فراس، حدثنا أحمد بن علي بن سهل قال: حدثنا العباس بن الحسين قال: أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت تتمثل بهذين البيتين:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   وبقيت في خَلْف كجلد الأجرب
يتحدثون مخانة وملاذة   ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

قال أبو معاوية: قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : ويح لبيد لو أدرك هذا الزمان.

قال عروة: وكيف لو عاشت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى هذا الزمان.

قال هشام: فكيف لو بقي عروة إلى هذا الزمان.

وقال أبو معاوية: فكيف لو بقي هشام إلى هذا الزمان.

وقال العباس بن الحسين: نحو ذلك.

وقال أحمد بن علي: وقال ابن فراس مثله.ص١٠٣

٢٩ـ أ خبرنا أبو سليمان قال: أخبرني محمد بن الحسين بن عاصم قال: أخبرني محمد ابن الربيع بن سليمان، وابن حوصا قالا: سمعنا يونس ابن عبدالأعلى يقول: قال لي الشافعي ـ رحمة الله عليه ـ : يا أبا موسى رضاء الناس غاية لا

تدرك ، ليس إلى السلامة من الناس سبيل؛ فانظر ما فيه صلاح نفسك؛ فالزمه ، ودع الناس وما هم فيه.ص ١١٣

٣٠_ قال أبو سليمان وأنشدني ابن مالك قال: أنشدني الدغولي في سياسة العامة:

إذا أمن الجهالُ جَهْلَكَ مرةً فَعِرْضُك للجهال غنم من الغُنْم
وإن أنت نازيت السفيهَ إذا نزا فأنت سفيهٌ مثلُه غيرُ ذي حلم
ولا تتعرض للسفيه وداره بمنزلة بين العداوة والسلم
فيخشاك تاراتٍ ويرجوك مرةً وتأخذ فيما بين ذلك بالحزم

ص١١٩

٣١_ قال أبو سليمان: وبلغني عن سفيان الثوري أنه قال: من ترأس في حداثته كان أدنى عقوبته أن يفوته حظ كبير من العلم.ص١٢٢

٣٢_ أنشدنا أبو سليمان قال: أنشدني سهل بن إسماعيل قال: أنشدنا منصور بن إسماعيل لنفسه:

الكلب أكرمُ عشرةً وهو النهاية في الخساسةْ
ممن ينازع في الريا سة قبل أوقات الرياسةْ

ص١٢٢

٣٣_ أخبرنا أبو سليمان قال: أخبرني أبو عمر الحيري قال: حدثنا مسلم ابن إبراهيم قال: حدثنا الحسن بن أبي جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول:

أجيز شهادة القراء في كل شيء إلا بعضهم على بعض؛ وجدتهم أشد تحاسداً من التيوس، توثق الشاة فيرسل عليها التيس، فيهب هذا، ويهب هذا.ص١٢٩

٣٤ـ قال أبو سليمان: إن من عادة الفتيان[1] ومن أخذ بأخذهم بشاشةَ الوجه، وسجاحةَ الخلق، ولين العريكة.

ومن شيمة الأكثرين من القراء الكزازة، وسوء الخلق، فمن انتقل من الفتوة إلى القراءة كان جديراً أن يتباقى معه تلك الذوقة والهشاشة، ومن تَقرَّأَ في صباه لم يخلُ من جفوة أو غلظة.

وقد يتوجه قول سفيان إلى وجه آخر؛ وهو إنه إذا انتقل من الفتوة إلى القراءة كان معه الأسف على ما مضى والندم على ما فرط منه، فكان أقرب له إلى أن لا يعجب بعمل صالح يكون منه، وإذا كان عارفاً بالشر كان أشد لحذره، وأبعد من الوقوع فيه. ص١٣٠

٣٥ـ أخبرنا أبو سليمان قال: حدثنا ابن الأعرابي قال: حدثنا أحمد بن زيد القزاز قال: حدثنا حسين المروزي قال: حدثنا ابن المبارك، عن سفيان قال: قال: أبو حازم: إن الرجل ليعمل السيئة إن عمل حسنة قط أنفع له منها، وإنه ليعمل الحسنة إن عمل سيئة قط أضر عليه منها.

قال أبو سليمان: قال ابن الأعرابي: معناه: أن يعمل الذنب فلا يزال منه مشفقاً حذراً أن يعاوده؛ فينفعه ذلك، ويعمل الحسنة؛ فيحتسب بها على ربه ـتعالىـ ويعجب بها، ويتكل عليها، فتهلكه.ص١٣٠

١ـ يعني بالفتيان: جمع فتى من الفتوَّة وهو من يتصف بالشهامة، والمروءة، ومكارم الأخلاق.

٣٦_ فالعزلة إنما تنفع العلماء العقلاء، وهي من أضر شيء على الجهال.ص١٣٢

٣٧_ قال: أنشدني بعض أهل العلم:

بذنوبنا دامت بليتنا والله يكشفها إذا تبنا

ص١٣٩

٣٨_ وأنشدنا أبو سليمان:

تسامحْ ولا تستوفِ حقَّك كلَّه وأبقِ فلم يستوفِ قَطُّ كريمُ

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

ص١٤١

٣٩_ أخبرنا أبو سليمان قال: أخبرنا محمد بن هاشم قال: حدثنا الدبري عن عبدالرزاق قال: أخبرنا بشر بن رافع قال: أخبرني شيخ من أهل صنعاء يقال له أبو عبدالله قال: سمعت وهب بن منبه يقول: إني وجدت في حكمة آل داود: حق على العالم أن لا يُشْغَلَ عن أربع ساعات: ساعةٍ يناجي فيها ربه، وساعةٍ يحاسب فيها نفسه، وساعةٍ يفضي فيها إلى إخوانه الذين يَصْدُقونه عيوبه وينصحونه في نفسه، وساعةٍ يخلو فيها بين نفسه وبين لذاتها مما يحل ويجمل؛ فإن هذه الساعة عون لهذه الساعات، واستجمام للقلوب، وفصل، وبُلغة.

وعلى العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، ممسكاً للسانه، مقبلاً على شأنه.ص١٤٢

٤٠_ أخبرنا أبو سليمان قال: حدثنا الخلدي قال: حدثنا موسى بن هارون قال: حدثنا هدبة بن خالد قال: حدثنا حزم القطعي قال: سمعت الحسن يقول: يقولون المداراة نصف العقل، وأنا أقول هو العقل كله. ص١٤٢

ثالثاً: نقولات مختارة من كتاب:

تهذيب الأخلاق لأحمد بن مسكويه ت ٤٢١ هـ

ـ «**نبذة عن المؤلف**»:

هو أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه.

أصله من الري، وسكن أصفهان، وتوفي بها عام ٤٢١ هـ.

اشتهر بـ: الخازن؛ لأنه كان أميناً على خزانة كتب ابن العميد، ثم عضد الدولة بن بويه، ألف كتباً كثيرة، منها: تجارب الأمم، وطهارة النفس، وآداب العرب والفرس، وغيرها من الكتب.

ـ «**تعريف بالكتاب**»:

هذا الكتاب ـ كما هو واضح من عنوانه ـ يدور حول الدعوة إلى مكارم الأخلاق، والتحذير من مساوئها، ويشتمل على كثير من الضوابط والتقييدات التي تحد كثيراً من معالم الأخلاق، وتميزها عن غيرها.

ولقد أفاد ممن سبقه، وأفاد منه كثير ممن جاء بعده كأبي حامد الغزالي وغيره ممن كتبوا في هذا المجال.

والكتاب مطبوع، ومتداول ومن أشهر طبعاته طبعة المطبعة المصرية، بتحقيق وشرح ابن الخطيب؛ وكذلك طبع ضمن منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان.

وقد أفدت من الطبعتين، أما العزو فهو إلى الأخيرة.

ـ «**النقولات المنتقاة**» :

١ـ قال أحمد بن مسكويه: غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا ، لا كلفة فيها ، ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة ، وعلى ترتيب تعلمي.

والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي ، وأي شيء هي ، ولأي شيء أوجدت فينا؟ أعني: كمالها، وغاياتها، وما قواها، وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية.

وما الأشياء العائقة لنا عنها، وما الذي يزكيها فتفلح، وما الذي يدسيها فتخيب؟ فإنه ـ عز من قائل ـ يقول: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)** ﴾ الشمس: ٧ ـ ١٠. ص٥ ـ ٦

٢ـ أما الذكاء: فهو سرعة انقداح النتائج ، وسهولتها على النفس.ص٢٣

٣ـ وأما الذكر: فهو ثبات صورة ما يخلصه العقل، أو الوهم من الأمور.ص٢٣

٤ـ وأما التعقل: فهو موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعة بقدر ما هي عليه.ص٢٣

٥ـ وأما صفاء الذهن: فهو استعداد النفس للاستخراج المطلوب.ص٢٣

٦ـ وأما جودة الذهن وقوته: فهو تأمل النفس لما قد لزم من المقدم.ص٢٣

٧ـ وأما سهولة التعلم: فهي قوة للنفس، وحِدَّة في الفهم، بها تدرك الأمور النظرية.ص٢٣ ـ ٢٤

٨ـ أما الحياء: فهو انحصار النفس؛ خوف إتيان القبائح، والحذر من الذم والسب الصادق.ص٢٤

٩ـ أما الصبر: فهو مقاومة النفس الهوى؛ لئلا تنقاد لقبائح اللذات.ص٢٤

١٠ـ وأما السخاء: فهو التوسط في الإعطاء: وهو أن ينفق الأموال فيما ينبغي، على مقدار ما ينبغي، وعلى ما ينبغي، وتحت السخاء ـ خاصة ـ أنواع كثيرة نحصيها فيما بعد، لكثرة الحاجة إليها.ص٢٤

١١ـ وأما الحرية فهي فضيلة للنفس، بها يكتسب المال من وجهه، ويعطى في وجهه، ويمتنع من اكتساب المال من غير وجهه.ص٢٤

١٢ـ وأما القناعة: فهي التساهل في المآكل والمشارب والزينة.ص٢٤

١٣ـ وأما الدماثة: فهي حسن انقياد النفس لما يجمل، وتَسَرُّعها إلى الجميل.ص٢٤

١٤ـ وأما الانتظام: فهو حال للنفس تقودها إلى حسن تقدير الأمور، وترتيبها كما ينبغي.ص٢٤

١٥ـ وأما حسن الهدي: فهو محبة تكميل النفس بالزينة الحسنة.ص٢٤

١٦ـ وأما المسالمة: فهي موادعة تحصل للنفس عن ملكة لا اضطرار فيها. ص٢٤

١٧ـ وأما الوقار: فهو سكون النفس، وثباتها عند الحركات التي تكون في المطالب.ص٢٤

١٨ـ وأما الورع: فهو لزوم الأعمال الجميلة التي فيها كمال النفس.ص٢٤

١٩ـ أما كبر النفس: فهو الاستهانة باليسير، والاقتدار على حمل الكرائه والهوان، فصاحبه أبداً يؤهل نفسه للأمور العظام مع استخفافه لها.ص٢٥

٢٠ـ وأما النجدة: فهي ثقة النفس عند المخاوف حتى لا يخامرها جزع.ص٢٥

٢١ـ وأما عظم الهمة: فهي فضيلة للنفس، تحتمل بها سعادة الجد، وصدها[1]حتى الشدائد التي تكون عند الموت.ص٢٥

٢٢ـ وأما الثبات: فهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال الآلام، ومقاومتها، وفي الأهوال خاصة.ص٢٥

٢٣ـ وأما الحلم: فهو فضيلة للنفس تكسبها الطمأنينة، فلا تكون شَغِبَةً، ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة.ص٢٥

٢٤ـ وأما السكون: ـ الذي نعني به عدم الطيش ـ فهو إما عند الخصومات، وإما في الحروب التي يذب بها عن الحريم، أو عن الشريعة، وهي قوة للنفس تُفَسَّر حركتها في هذه الأحوال لشدتها.ص٢٥

٢٥ـ وأما الشهامة: فهي الحرص على الأعمال العظام؛ توقعاً للأحدوثة الجميلة. ص٢٥

١ـ هكذا في الأصل ولعلها: ضدها.

٢٦_ وأما المواساة: فهي معاونة الأصدقاء والمستحقين، ومشاركتهم في الأموال والأقوات.ص٢٦

٢٧_ وأما السماحة: فهي بذل بعض ما لا يجب.ص٢٦

٢٨_ وأما المسامحة: فهي ترك بعض ما يجب، والجميع يكون بالإرادة والاختيار.ص٢٦

٢٩_ أما الحكمة: فهي وسط بين السفه والبله، وأعني بالسفه ههنا: استعمال القوة الفكرية فيما لا ينبغي، وكما لا ينبغي، وسماه القوم: الجربزة، وأعني بالبله، تعطيل هذه القوة واطراحها.

وليس ينبغي أن يفهم أن البله ههنا: نقصان الخلقة، بل ما ذكرته من تعطيل القوة الفكرية بالإرادة.ص٣١

٣٠_ وأما الذكاء: فهو وسط بين الخبث والبلادة، فإن أحد طرفي كل وسط إفراط، والآخر تفريط، أعني: الزيادة عليه والنقصان منه.

فالخبث والدهاء والحيل الرديئة هي كلها إلى جانب الزيادة فيما ينبغي أن يكون الذكاء فيه.

وأما البلادة والبله والعجز عن إدراك المعارف فهي كلها إلى جانب النقصان من الذكاء.ص٣١

٣١_ وأما الذكر: فهو وسط بين النسيان: الذي يكون بإهمال ما ينبغي أن يحفظ، وبين العناية بما لا ينبغي أن يحفظ.

وأما التعقل: وهو حسن التصور ـ فهو وسط بين الذهاب بالنظر في الشيء الموضوع إلى أكثر مما هو عليه وبين القصور بالنظر فيه عما هو عليه.ص٣١

٣٢ـ وأما سرعة الفهم: فهو وسط بين اختطاف خيال الشيء من غير إحكام لفهمه وبين الإبطاء عن فهم حقيقته.

وأما صفاء الذهن: فهو بين ظلمة النفس عن استخراج المطلوب وبين التهاب يعرض فيها فيمنعها من استخراج المطلوب.ص٣١ ـ ٣٢

٣٣ـ وأما جودة الذهن وقوته: فهو وسط بين الإفراط في التأمل لما لزم من المقدم حتى يخرج منه إلى غيره، وبين التفريط فيه حتى يقصر عنه.

وأما سهولة التعلم: فهو وسط بين المبادرة إليه بسلاسة لا تثبت معها صورة العلم وبين التصعب عليه وتعذره.ص٣٢

٣٤ـ وأما العفة: فهي وسط بين رذيلتين: وهما الشره، وخمود الشهوة، وأعني بالشره الانهماك في اللذات، والخروج فيها عما ينبغي، وأعني بخمود الشهوة: السكون عن الحركة التي تسلك نحو اللذة الجميلة التي يحتاج إليها البدن في ضروراته، وهي ما رخص فيه صاحب الشريعة.ص٣٣

٣٥ـ الحياء: وسط بين رذيلتين: إحداهما الوقاحة: والأخرى الخُرْق.ص٣٣

٣٦ـ وأما الشجاعة: فهي وسط بين رذيلتين: إحداهما الجبن، والأخرى التهور.ص٣٣

٣٧ـ وأما الجبن: فهو الخوف مما لا ينبغي أن يخاف منه.ص٣٣

٣٨_ وأما السخاء: فهو وسط بين رذيلتين: إحداهما السرف والتبذير، والأخرى البخل والتقتير.ص٣٣

٣٩_ أما التبذير: فهو بذل ما لا ينبغي لمن لا يستحق، وأما التقتير فهو منع ما ينبغي عمن يستحق.ص٣٣

٤٠_ الخلق: حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية.ص٣٦

٤١_ وإذا كانت القوى ثلاثاً كما قلنا مراراً، فأدونها النفس البهيمية، وأوسطها النفس السبعية، وأشرفها النفس الناطقة.

والإنسان إنما صار إنساناً بأفضل هذه النفوس _ أعني الناطقة _ وبها شارك الملائكة، وبها باين البهائم.

فأشرف الناس من كان حظه من هذه النفس أكثر، وانصرافه إليها أتم وأوفر، ومن غلبت عليه إحدى النفسين الأخريين انحط عن مرتبة الإنسانية، بحسب غلبة تلك النفس عليه، فانظر _ رحمك الله _ أين تضع نفسك، وأين تحب أن تنزل من المنازل التي رتبها الله _ تعالى _ للموجودات؛ فإن هذا أمر موكول إليك، ومردود إلى اختيارك؛ فإن شئت فانزل في منازل البهائم؛ فإنك تكون منهم، وإن شئت فانزل في منازل السباع، وإن شئت فانزل في منازل الملائكة، وكن منهم. ص٤٩

رابعاً: نقولات مختارة من كتاب:

وصية أبي الوليد الباجي الأندلسي لولديه ٤٠٣ هـ - ٤٧٤ هـ

ـ «**نبذة عن المؤلف**»:

هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي الأندلسي الباجي.

ولد في ذي الحجة سنة ٤٠٣هـ حسبما وجد بخط أمه وكانت فقيهة.

نشأ في وسط أسرة عريقة، مشهورة بالعلم والدين؛ فطلب العلم منذ نعومة أظفاره، وتنقل في سبيل ذلك بين عدد من المدن الأندلسية متردداً على شيوخها المبرزين.

رحل عن الأندلس سنة ٤٢٦ إلى مصر والحجاز، والعراق، والشام ثم عاد سنة٤٣٩ إلى الأندلس بعلم غزير، وكتب جمة أحضرها معه.

ولي قضاء أريولة، وكان يتكسب من عمل يده يضرب ورق الذهب للغزل، وعقد الوثائق والشروط.

حظي بالثناء العاطر من أهل العلم، وله منزلة رفيعة في وقته وبعد وفاته.

خلف آثاراً عظيمة من أشهرها: المنتقى شرح الموطأ، والتعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح، وإحكام الفصول، والإشارات في الأصول وغيرها.

توفي رحمه الله في التاسع عشر من رجب عام أربع وسبعين وأربعمائة، وصلى عليه ابنه أبو القاسم.

ـ «**تعريف بالكتاب**» :

الكتاب ـ كما هو ظاهر من عنوانه ـ وصية من المؤلف لولديه ، حيث كتبها لهما؛ رجاء أن تقر عينه بهما ، فيسيرا في خطى أهل العلم والفضل والصلاح ، ويتجنبا طريق الغي والفساد.

وهي وصية جامعة نافعة أودعها كاتبها جملة من الوصايا التي تحث على الخير، ومكارم الأخلاق التي يجمل بالمرء أن يتحلى بها.

كما أنها اشتملت على كثير من أصول المعاملة التي ينبغي مراعاتها حال التعامل مع الآخرين.

وهذه الوصايا نابعة من حرصه على ولديه ، كما أنها حصيلة تجربة طويلة في دروب الحياة ، ودراية واسعة بمقاصد الشريعة.

وهي ـ وإن كانت موجهة من الباجي لولديه ـ فهي نموذج رائع لما ينبغي أن تكون عليه وصية كل مسلم لأبنائه؛ إذ هي جمعت حق الله ، وحق الناس.

هذا وإن هذه الوصية تقع في ٥٦ صفحة ، ومن منشورات اضواء السلف ، وقد قدم لها وحققها عبداللطيف بن محمد الجيلاني.

ـ «النقولات المنتقاة» : قال رَحِمَهُ اللَّهُ :

١ـ والْعِلْمُ سبيل لا تفضي بصاحبها إلاَّ إلى السعادة والسلامة ، ولا يَقْصُرُ به عن درجة الرِّفْعَةِ والكرامة ، قَلِيلُهُ ينفع ، وكَثِيرُهُ يُعْلَي ويَرْفَع ، كَنْزٌ يَزْكُو على كل حال ، ويكثر مع الإنفاق ، ولا يغصبه غاصب ، ولا يُخاف عليه سارق ولا محارب؛ فاجتهدا في طلبه ، واستعذبا التعب في حفظه ، والسهر في درسه ، والنصب الطويل في جمعه ، وواظبا على تقييده وروايته ، ثم انتقلا إلى فهمه ودرايته.

وانظرا أي حالةٍ من أحوال طبقات الناس تختاران ، ومنزلةَ أيِّ صنف منهم تؤثران ، هل تريان أحداً أرفع حالاً من العلماء؟ وأفضل منزلة من الفقهاء؟ يحتاج إليهم الرئيس والمرؤوس ، ويقتدي بهم الوضيع والنفيس ، يُرجع إلى أقوالهم في أمور الدنيا وأحكامها ، وصحة عقودها وتبعاتها ، وغير ذلك من تصرفاتها ، وإليهم يلجأ في أمور الدين ، وما يلزم من صلاة وزكاة وصيام ، وحلال وحرام ، ثم مع ذلك من التبعات والحظوة عند جميع الطبقات.ص٣٢

٢ـ والعلم ولاية لا يُعْزل عنها صاحبها ، ولا يَعْرَى من جمال لابسها ، وكل ذي ولاية ـ وإن جلت ، وحرمت وإن عظمت ـ إذا خرج عن ولايته ، أو زال عن بلدته ، أصبح من جاهه عارياً ، ومن حاله عاطلاً ، غير صاحب العلم؛ فإن جاهه يصحبه حيث سار ، ويتقدمه إلى جميع الآفاق والأقطار ، ويبقى بعده في سائر الأعصار.ص٣٣

٣ـ وإياكما وقراءة شيء من المنطق وكلام الفلاسفة؛ فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد، والبعد عن الشريعة والإبعاد.

وإنما أحذركما من قراءتها ما لم تقرآ من كلام العلماء ما تقويان به على فهم فساده، وضعف شبهه، وقلة تحقيقه؛ مخافة أن يسبق إلى قلب أحدكما من شبه تمويههم مالا يكون عنده من العلم ما يقوى به على رده. ص٣٤

٤ـ وعليكما بالأمر بالمعروف وكونا من أهله، وانهيا عن المنكر واجتنبا فعله.ص٣٥

٥ـ وعليكما بالصدق؛ فإنه زين، وإياكما والكذب؛ فإنه شين، ومن شهر بالصدق فهو ناطق محمود، ومن عرف بالكذب فهو ساكت مهجور مذموم، وأقل عقوبات الكذاب ألا يقبل صدقه ولا يتحقق حقه، وما وصف الله ـ تعالى ـ أحداً بالكذب إلا ذاماً له، ولا وصف الله ـ تعالى ـ أحداً بالصدق إلا مادحاً له، مرفِّعاً به.ص٣٥

٦ـ وإياكما والعون على سفك دم بكلمة، أو المشاركة فيه بلفظة؛ فلا يزال الإنسان في فسحة من دينه ما لم يغمس يده أو لسانه في دم امرىء مسلم.ص٣٦

٧ـ واجتناب الزنا من أخلاق الفضلاء، ومواقعته عار في الدنيا، وعذاب في الأخرى، قال الله ـ تعالى ـ ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ الإسراء ٣٢.ص٣٦

٨ـ وعليكما بطلب الحلال واجتناب الحرام، فإن عدمتما الحلال فالجآ إلى المتشابه.ص٣٧

٩ـ وإياكما والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، والظالم مذموم من الخالق مبغض إلى الخلائق.ص٣٧

١٠ـ وإياكما والنميمة؛ فإن أول من يمقت عليها من تنقل إليه، وقد روي عن النبيﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة قتات».ص٣٨

١١ـ وإياكما والحسد؛ فإنه داء يهلك صاحبه، ويعطب تابعه.ص٣٨

١٢ـ وإياكما والفواحش؛ فإن الله تعالى حرم منها ما ظهر وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق.ص٣٨

١٣ـ وإياكما والغيبة؛ فإنها تحبط الحسنات، وتكثر السيئات، وتبعد من الخالق، وتبغض إلى المخلوق.ص٣٨

١٤ـ وإياكما والكبر؛ فإن صاحبه في مقت الله متقلب، وإلى سخطه منقلب.ص٣٨

١٥ـ وإياكما والبخل؛ فإنه لا داء أدوأ منه، لا تسلم عليه ديانة، ولا تتم معه سيادة.ص٣٨

١٦ـ وإياكما ومواقف الخزي، وكلما كرهتما أن يظهر عليكما فاجتنباه، وما علمتما أن الناس يعيبونه في الملأ فلا تأتياه في الخلاء.ص٣٨

١٧ـ وإياكما والرشوة؛ فإنها تعمي عين البصير، وتحط قدر الرفيع.ص٣٩

١٨ـ وإياكما والأغاني؛ فإن الغناء ينبت الفتنة في القلب، ويولد خواطر السوء في النفس.ص٣٩

١٩_ وليلتزم أكبركما لأخيه الإشفاق عليه، والمسارعة إلى كل ما يحبه، والمعاضدة فيما يؤثره، والمسامحة بكل ما يرغبه.ص٤١

٢٠_ ويلتزم أصغرُكما لأخيه تقديمه عليه، وتعظيمه في كل أمر بالرجوع إلى مذهبه، والإتباع له في سره وجهره، وتصويب قوله وفعله، وإن أنكر منه في الملأ أمراً يريده، أو ظهر إليه خطأ فيما يقصده _ فلا يظهر إنكاره عليه، ولا يجهر في الملأ بتخطئته، وليبين له ذلك على انفراد منهما، ورفق من قولهما؛ فإن رجع إلى الحق وإلا فليتبعه على رأيه؛ فإن الذي يدخل عليكما من الفساد باختلافكما أعظم مما يحذر من الخطأ مع اتفاقكما ما لم يكن الخطأ في أمر الدين؛ فإن كان في أمر الدين فليتبع الحق حيث كان.ص٤١

٢١_ وليثابر على نصح أخيه وتسديده ما استطاع، ولا يُحِل يده عن تعظيمه وتوقيره.ص٤١ _ ٤٢

٢٢_ ولا يؤثر أحدكما على أخيه شيئاً من عرض الدنيا، فيخل بأخيه من أجله، أو يعرض عنه بسببه، أو ينافسه فيه.ص٤٢

٢٣_ ومن وُسِّع عليه منكما في دنياه فليشارك بها أخاه، ولا ينفرد بها دونه، وليحرص على تثمير مال أخيه كما يحرص على تثمير ماله.ص٤٢

٢٤_ وأظهرا التعاضد، والتواصل، والتعاطف، والتناصر حتى تعرفا به؛ فإن ذلك مما ترضيان به ربكما، وتغيظان به عدوكما.ص٤٢

٢٥ـ وإياكما والتنافس، والتقاطع، والتدابر، والتحاسد، وطاعة النساء في ذلك؛ فإنه مما يفسد دينكما ودنياكما، ويضع من قدركما ويحط من مكانكما، ويحقر أمركما عند عدوكما، ويصغر شأنكما عند صديقكما.ص٤٢

٢٦ـ ومن أسدى إلى أخيه معروفاً، أو مُكَارَمةً، أو مواصلة فلا ينتظر مقارضةً عليها، ولا يذكر ما أتى منها؛ فإن ذلك مما يوجب الضغائن، ويسبب التباغض، ويقبح المعروف، ويحقر الكبير، ويدل على المقت والفساد، ودناءة الهمة.ص٤٢

٢٧ـ وإن أحدكما زل وترك الأخذ بوصيتي في بر أخيه ومراعاته فليتلافَ الآخر ذلك بتمسكه بوصيتي، والصبر لأخيه والرفق به، وترك المقارضة له على جفوته، والمتابعة له على سوء معاملته؛ فإنه يحمد عاقبة صبره، ويفوز بالفضل في أمره، ويكون لما يأتيه أخوه كبير تأثير في حياته.ص٤٢ ـ ٤٣

٢٨ـ واعلما أني قد رأيت جماعة لم تكن لهم أحوال ولا أقدار، أقام أحوالَهم ورفع أقدارَهم اتفاقُهم وتعاضُدُهم، وقد رأيت جماعة كانت أقدارهم سامية، وأحوالهم ظاهرة نامية، محق أحوالَهم ووضع أقدارَهم اختلافُهم وتنابُذهم؛ فاحذرا أن تكونا منهم.ص٤٣

٢٩ـ وإياكما أن تحدثا أنفسكما أن تنتظرا مقارضةً ممن أحسنتما إليه، وأنعمتما عليه؛ فإن انتظار المقارضة يمسح الصنيعة، ويعيد الأفعال الرفيعة وضيعة، ويقلب الشكر ذماً، والحمد مقتاً، ولا يجب أن تعتقدا معاداة أحد، واعتمدا التحرز من كل أحد، فمن قصدكما بمطالبة، أو تكرر عليكما بأذية فلا تقارضاه

جهدكما، والتزما الصبر له ما استطعتما؛ فما التزم أحد الصبر والحلم إلا عز ونصر ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ الحج٦٠.

وقد استعملت هذا _ بفضل الله _ تعالى _ مراراً فحمدت العاقبة، واغتبطت بالكف عن المقارضة.

ولا تستعظما من حوادث الأيام شيئاً؛ فكل أمر ينقرض حقير، وكل أمد ينقضي قصير، وانتظرا الفرج؛ فإن انتظار الفرج عبادة، وعلقا رجاءكما بربكما وتوكلا عليه؛ فإن التوكل عليه سعادة، واستعينا بالدعاء، والجئا إليه في البأساء والضراء؛ فإن الدعاء سفينة لا تعطب، وحزب لا يغلب، وجند لا يهرب.ص٤٥

٣٠_ وإذا أنعم ربكما عليكما بنعمة فتلقياها بالإكرام لها، والشكر عليها، والمساهمة فيها، واجعلاها عوناً على طاعته، وسبباً إلى عبادته، والحذر من أن تهينا نعمة ربكما فتترككما مذمومين، وتزول عنكما ممقوتين.ص٤٦

٣١_ ومن احتاج منكما فليجمل في الطلب؛ فإنه لا يفوته ما قُدِّر له، ولا يدرك ما لم يقدر له.ص٤٨

٣٢_ واجتنبا صحبة السلطان ما استطعتما، وتحريا البعد منه ما أمكنكما؛ فإن الذل مع البعد عنه أفضل من العز مع القرب منه.ص٤٨

٣٣_ ولا يرغب أحدكما في أن يكون أرفع الناس درجة، وأتمهم جاهاً وأعلاهم منزلة؛ فإن تلك حالٌ لا يسلم صاحبها، ودرجةٌ لا يثبت من احتلها، وأسلم الطبقات الطبقة المتوسطة؛ لا تُهْتَضَمُ من ضعة، ولا تُرمق من رفعة،

ومن عيب الدرجة العليا أن صاحبها لا يرجو المزيد، ولكنه يخاف النقص، والدرجة الوسطى يرجو الازدياد، وبينها وبين المخاوف حجاب؛ فاجعلا بين أيديكما درجة يشتغل بها الحسود عنكما، ويرجوها الصديق لكما.ص٤٩

٣٤_ ولا يطلب أحدكما الولاية؛ فإن طلبها شين، وتركها لمن دعي إليها زين، فمن امتحن بها منكما فلتكن حاله في نفسه أرفع من أن تحدث فيه بأواً، أو يبدي فيها زهواً، وليعلم أن الولاية لا تزيده رفعة، ولكنها فتنة ومحنة، وأنه معرض لأحد أمرين: إما أن يعزل فيعود إلى حالته، أو يسيء استدامة ولايته فيقبح ذكره، ويثقل وزره.

وإن استوت عنده ولايته وعزله كان جديراً أن يستديم العمل؛ فيبلغ الأمل، أو يعزل لإحسانه، فلا يحط ذلك من مكانه.ص٤٩

٣٥_ وأَقِلا ممازحة الإخوان، وملابستهم، والمبالغة في الاسترسال معهم.

فإن الأعداء أكثرهم ممن هذه صفته، وقل من يعاديك ممن لا يعرفك ولا تعرفه.ص٤٩ _ ٥٠

خامساً: نقولات مختارة من كتاب:

أيها الولد لأبي حامد الغزالي ٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ

ـ «نبذة عن المؤلف»:

هو محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي المعروف بأبي حامد.

ولد سنة ٤٥٠هـ من أسرة صالحة فقد كان أبوه رجلاً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف، وكان يجالس الفقهاء والوعاظ، ويحرص على الإحسان إليهم.

وكان إذا حضر مجالس الفقهاء وسمع كلامهم بكى وتضرع إلى الله أن يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً، وإذا حضر مجالس الوعظ بكى وسأل الله أن يرزقه ابناً واعظاً؛ فرزقه الله بأبي حامد حيث كان من فقهاء عصره، ورزقه الله أحمد فكان واعظاً ينفلق الصم الصخور عند استماع تحذيره، وترتعد فرائص الحاضرين من مجالس تذكيره ـ كما قال ابن السبكي ـ.

تنقل أبو حامد في عدد من البلدان لطلب العلم، حيث سافر إلى جرجان، ونيسابور، وزار بغداد في طريق عودته إلى مسقط رأسه طوس.

له مؤلفات عديدة، أشهرها إحياء علوم الدين، وفيه فوائد ولطائف، وفيه مثالب، وعليه مآخذ.

توفي أبو حامد رحمه الله عام ٥٠٥هـ عن خمسة وخمسين عاماً.

التعريف بالرسالة: هذه الرسالة عنوانها (أيها الولد) والمراد بالولد هنا أحد تلامذة الغزالي؛ حيث طلب منه ذلك الطالب النصح والإرشاد؛ فكتب له تلك الرسالة التي احتوت على وصايا رائعة، وحكم جامعة.

والرسالة التي بين أيدينا حققها علي محيي الدين علي القره داغي، وتقع تلك الرسالة المحققة في ١٥٨ صفحة، وهي من مطبوعات دار البشائر الإسلامية ط٢، ١٤٠٥هـ _ ١٩٨٥م.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : **قال أبو حامد الغزالي**رحمه الله :

١ـ اعلم ـ أيها الولد ـ المحب العزيز أطال الله ـ تعالى ـ بقاءك بطاعته، وسلك بك سبيل أحبائه ـ أن منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

إن كان قد بلغك منه نصيحة فأي حاجة لك في نصيحتي؟ وإن لم تبلغك فقل لي : ماذا حصلت في هذه السنين الماضية؟! ص٩٣

٢ـ أيها الولد، من جملة ما نصح به رسول الله ﷺ أمته قوله : «علامة إعراض الله ـ تعالى ـ عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه، وإن امرءاً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول عليه حسرته، ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار».

وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.ص٩٣ ـ ٩٤

٣ـ أيها الولد، النصيحة سهل، والمشكل قبولها؛ لأنها في مذاق متبعي الهوى مرٌّ؛ إذ المناهي محبوبة في قلوبهم، على الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي مشتغلاً في فضل النفس ومناقب الدنيا، فإنه يحسب أن العلم المجرد له سيكون نجاته وخلاصه فيه، وأنه مستغن عن العمل، وهذا اعتقاد الفلاسفة.

سبحان الله العظيم! لا يعلم هذا القدر أنه حين حصَّل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد، كما قال رسول الله ﷺ : «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه**».ص٩٤ ـ ٩٥

٤_ وتيقن أن العلم المجرد لا يَأْخُذُ باليد : مثاله لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى ، وكان الرجل شجاعاً وأهل حرب ، فحمل عليه أسد عظيم مهيب ، فما ظنك؟ هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟

ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب.

فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ، ولم يعمل بها ، لا تفيده إلا بالعمل.

ومثاله_ أيضاً _: لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بالسكنجبين والكشكاب ، فلا يحصل البرء إلا باستعمالهما.ص٩٨ _ ٩٩

٥_ كم من ليلة أحييتَها بتكرار العلم ومطالعة الكتب ، وحرَّمَت على نفسك النوم ، لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كانت نيتُك نيلَ عرض الدنيا ، وجذبَ حطامها ، وتحصيل مناصبها ، والمباهاةَ على الأقرانِ والأمثالِ _ فويلٌ لك ثم ويل لك.

وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبيﷺ وتهذيب أخلاقك ، وكَسْرَ النفس الأمارة بالسوء _ فطوبى لك ثم طوبى لك.

ولقد صدق من قال شعراً :

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهن لغير فقدك باطل

ص١٠٥ _ ١٠٦

٦_ عش ما شئت؛ فإنك ميت، وأحبب من شئت؛ فإنك مفارقه، واعمل ما شئت؛ فإنك مجزي به.ص١٠٦

٧_ أيها الولد، العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون.

واعلم أن علماً لا يبعدك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة، لن يبعدك غداً عن نار جهنم، وإذا لم تعمل اليوم، ولم تدارك الأيام الماضية تقول غداً يوم القيامة: ﴿**فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً**﴾ السجدة: **١٢**، فيقال: يا أحمق أنت من هناك تجيء.ص١٠٨ _ ١٠٩

٨_ لو كان العلم المجرد كافياً لك ولا تحتاج إلى عمل سواه _ لكان نداء الله _تعالى_ : «هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ هل من تائب؟» ضائعاً بلا فائدة.ص١١٢

٩_ أيها الولد، ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ**﴾ أمرٌ، ﴿**وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ شكر، ﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ**﴾ ذكر.ص١١٣

١٠_ أيها الولد، روي في بعض وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه قال: يا بني لا يكونن الديك أكيس منك، ينادي بالأسحار وأنت نائم.ص١١٥ _ ١١٦

١١_ أيها الولد، خلاصة العلم: أن تَعَلَمَ أن الطاعة والعبادة ما هي؟

اعلم أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، يعني: كل ما تقول وتفعل، وتترك قوله وفعله يكون باقتداء الشرع، كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصياً، أو صليت في ثوب مغصوب _وإن كانت صورة عبادة _ تأثم.ص١١٧

١٢ـ أيها الولد، ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع؛ إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة.

وينبغي لك ألا تغتر بشطح الصوفية وطاماتهم؛ لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة، لا بالطامات والتُرَّهات.ص١١٧ ـ ١١٨

١٣ـ واعلم أن اللسان المطلق، والقلب المطبق المملوء بالغفلة والشهوة ـ علامة الشقاوة.ص١١٨

١٤ـ أيها الولد إذا علمت هذا الحديث لا حاجة إلى العلم الكثير، وتأمل في حكاية أخرى وهي: أن حاتم الأصم كان من أصحاب شقيق البلخي ـ رحمة الله تعالى عليهما ـ فسأله يوماً قال: صاحبتني منذ ثلاثين سنة ما حصَّلت فيها؟

قال: حصلت ثماني فوائد من العلم، وهي تكفيني منه؛ لأني أرجو خلاصي ونجاتي فيها.

فقال شقيق: ما هي؟

قال حاتم:

الفائدة الأولى: أني نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوباً ومعشوقاً يحبه ويعشقه، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت، وبعضه يصاحبه إلى شفير القبر، ثم يرجع كله ويتركه فريداً وحيداً، ولا يدخل معه في قبره منهم أحد.

فتفكرت وقلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل معه في قبره ويؤنسه فيه، فما وجدته غير الأعمال الصالحة، فأخذتها محبوبة لي؛ لتكون لي سراجاً في قبري، وتؤنسني فيه، ولا تتركني فريداً.

الفائدة الثانية: أني رأيت الخلق يقتدون أهواءهم، ويبادرون إلى مرادات أنفسهم، فتأملت قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)**﴾ النازعات: ٤٠ ـ ٤١.

وتيقنت أن القرآن حق صادق، فبادرت إلى خلاف نفسي وتشمرت بمجاهدتها، وما متعتها بهواها، حتى ارتاضت بطاعة الله ـ تعالى ـ وانقادت.

الفائدة الثالثة: أني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا ثم يمسكه قابضاً يده عليه، فتأملت في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾ النحل: ٩٦ فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله ـ تعالى ـ ففرقته بين المساكين ليكون ذخراً لي عند الله ـ تعالى ـ.

الفائدة الرابعة: أني رأيت بعض الخلق يظن أن شرفه وعزه في كثرة الأقوام والعشائر؛ فاعتز بهم، وزعم آخرون أنه في ثروة الأموال وكثرة الأولاد؛ فافتخروا بها، وحسب بعضهم أن العز والشرف في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم، واعتقدَتْ طائفة أنه في إتلاف المال وإسرافه، وتبذيره؛.فتأملت في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ الحجرات: ١٣ فاخترت التقوى، واعتقدت أن القرآن حقٌ صادق، وظنَّهم وحسبانهم كلها باطل زائل.

الفائدة الخامسة: أني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً، ويغتاب بعضهم بعضاً، فوجدت أصل ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت في قوله _تعالى_ : ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ الزخرف: ٣٢ فعلمت أن القسمة كانت من الله _ تعالى _ في الأزل، فما حسدت أحداً، ورضيت بقسمة الله _ تعالى _.

الفائدة السادسة: إني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضاً لغرض وسبب؛ فتأملت في قوله _تعالى_: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً**﴾ فاطر:٦ فعلمت أنه لا يجوز عداوة أحد غير الشيطان.

الفائدة السابعة: أني رأيت كل أحد يسعى بجد، ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش، بحيث يقع به في شبهة وحرام، ويذل نفسه وينقص قدره؛ فتأملت في قوله _ تعالى _ : ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ هود: ٦ فعلمت أن رزقي على الله _تعالى_ وقد ضمنه؛ فاشتغلت بعبادته، وقطعت طمعي عمن سواه.

الفائدة الثامنة: أني رأيت كل واحد معتمداً على شيء مخلوق، بعضهم على الدينار والدرهم، وبعضهم على المال والملك، وبعضهم على الحرفة والصناعة، وبعضهم على مخلوق مثله، فتأملت في قوله _تعالى_ : ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**﴾ الطلاق: ٣ فتوكلت على الله _ تعالى _ فهو حسبي ونعم الوكيل.

فقال شقيق: وفقك الله ـ تعالى ـ إني قد نظرت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثماني، فمن عمل بها كان عاملاً بهذه الكتب الأربعة.ص١٢١ ـ ١٢٨

١٥ـ وحسن الخلق مع الناس: ألا تحمل الناس على مراد نفسك، بل تحمل نفسك على مرادهم ما لم يخالفوا الشرع.ص١٣١

١٦ـ وسألتني عن الإخلاص: وهو أن تكون أعمالك كلها لله ـ تعالى ـ ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس، ولا تبالي بمذمتهم.

واعلم أن الرياء يتولد من تعظيم الخلق.

وعلاجه أن تراهم مسخرين تحت القدرة، وتحسبهم كالجمادات في عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة؛ لتخلص من مرئياتهم.

ومتى تحسبهم ذوي قدرة وإرادة لن يبعد عنك الرياء.ص١٣٣

سادساً: نقولات مختارة من كتاب

الاعتبار لأسامة بن منقذ الشيزري ٤٨٨ ـ ٥٨٤هـ

ـ «**نبذة عن المؤلف**»:

هو الأمير أبو المظفر مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلَّد بن نصر ابن منقذ الشيزري الكناني الكلبي.

ولد يوم الأحد **٢٧** من شهر جمادى الآخرة سنة، وتوفي ليلة الثلاثاء **٢٣** رمضان سنة.

وهو من بني منقذ، وهي أسرة مجيدة نشأ فيها رجال كبار كلهم فارس شجاع، وشاعر أديب.

وكانوا ملوكاً في أطراف حلب.

أما أسامة فهو من الأبطال الشجعان، والأدباء الكبار، وقد وصفه الذهبي في تاريخ الإسلام بأنه «أحد أبطال الإسلام، ورئيس الشعراء الأعلام».

وقال عنه العماد الأصبهاني الكاتب: «وأسامة كاسمه، في قوة نثره ونظمه، يلوح من كلامه أمارة الأمارة، ويؤسس بيت قريضه عمارة العمارة، حلو المجالسة، حالي المساجلة، ندي الندى بماء الفكاهة، عالي النجم في سماء النباهة، معتدل التصاريف، مطبوع التصاريف».

ولأسامة بن منقذ مؤلفات عديدة منها: كتاب الاعتبار، وكتاب: لباب الآداب، وكتاب: البديع في نقد الشعر، وكتاب: التأسي والتسلي، وكتاب:

الشيب والشباب، وكتاب: النوم والأحلام، وكتاب: القضاء، وكتاب: أخبار النساء، وديوان شعره.

ـ «**تعريف بالكتاب**»:

كتاب الاعتبار كتاب طريف في سيرة أسامة وأحواله، وقد ألفه وهو ابن تسعين سنة.

والنسخة التي بأيدينا هي التي حققها د.قاسم السامرائي، ويقع في **٢٦٥** صفحة، ط١٤٠٧هـ مؤسسة دار الثقافة والنشر والإعلام، الرياض.

وهذا الكتاب يعد أشهر كتب أسامة بن منقذ.

يقول د.قاسم السامرائي: «لم تحظ شخصية إسلامية، ولا كتاب إسلامي بالدراسة والتحليل والتحقيق والترجمة في حلقات المستشرقين، أو عند المعنيين بعصر الحروب الصليبية في جوانبه الثقافية والحضارية المتعددة من العرب أو المسلمين أو غيرها من الأوربيين ـ مثل ما حظي الأمير مؤيد الدولة مجد الدين أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني الشيزري وكتابه الاعتبار».

ويقول د.السامرائي متحدثاً عن لغة الكتاب: «والحق أن لغة الكتاب ليست أدبية، وهي ليست عامية ـ أيضاً ـ بالرغم من كثرة أخطائها النحوية».

إلى أن يقول: «كل هذا أو أمثاله حمل بعض الدارسين على القول بأن أسامة في مذكراته هذه هجر لغته الأدبية، وكتب بالعامية التي كانت شائعة في الشام إذ ذاك».

إلى أن قال: «فلعل أسامة كان يحدث جماعة من الناس فكتبه بعضهم بلغته الخاصة فأضاف إليه أسامة الفصلين الملحقين في نهايته».

ـ «**النقولات المنتقاة**» : **قال**رحمه الله :

١ـ وشاهدت فارساً من رجالنا يقال له : ندى بن تليل القشيري ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والإفرنج وهو مُعَرَّى؛ ما عليه غير ثوبين ، فطعنه فارس من الإفرنج في صدره فقطع هذه العصفورة التي في الصدر وخرج الرمح من جانبه ، فرجع وما نظنه يصل منزله حياً ، فقدَّر الله ـ سبحانه ـ أن سلم وبرأ جرحه ، لكنه لبث سنة إذا نام على ظهره لا يقدر يجلس إن لم يجلسه إنسان بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه ، وعاد إلى تصرفه وركوبه كما كان.

قلت : فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه؛ يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ص٦٤ ـ ٦٥

٢ـ كان عندنا رجل من المصطنعة يقال له : عتاب ، أجسم ما يكون من الرجال وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه كانت فيه إبرة دخلت في راحته فمات منها ، وبالله لقد كان يَئِنُّ في المدينة فيسمع أنينه من الحصن؛ لعظم خلقه وجهارة صوته ، يموت من إبرة ، وهذا القشيري تدخل في صدره قنطارية تخرج من جنبه لا يصيبه شيء!.ص٦٥

٣ـ ومن عجائب الطعن أن رجلاً من الأكراد يقال له : حمدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي رحمه الله إلى أصبهان إلى دركاه السلطان ملك شاه ، فكبر وضعف بصره ، ونشأ له أولاد ، فقال له عمي عز الدين رحمه الله : يا حمدات ، قد كبرت وضعفت ، ولك علينا حق وخدمة ، فلو لزمت مسجدك ـ وكان له مسجد

على باب داره ـ وأثبتنا أولادك في الديوان ، ويكون لك أنت كل شهر ديناران ، وحمل دقيق وأنت في مسجدك.

قال : افعل يا أمير ، فأجرى له ذلك مديدة.

ثم جاء إلى عمي وقال : يا أمير ، والله ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت ، وقتلي على فرسي أشهى إلي من موتي على فراشي.

قال : الأمر لك وأمر برد ديوانه عليه كما كان.

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى غار علينا السرداني ـ صاحب طرابلس ـ ففزع الناس إليهم ، وحمدات في جملة الروع ، فوقف على رقعة من الأرض مستقبل القبلة ، فحمل عليه فارس من الإفرنج من غربيه ، فصاح إليه بعض أصحابنا : يا حمدات ، فالتفت فرأى الفارس قاصده ، فرد رأس فرسه شمالاً ، ومسك رمحه بيده ، وسدده إلى صدر الإفرنجي فطعنه فنفذ الرمح منه.

فرجع الإفرنجي متعلقاً برقبة حصانه في آخر رمقه.

فلما انقضى القتال قال حمدات لعمي : يا أمير ، لو أن حمدات في المسجد من كان طعن هذه الطعنة ؟

فأذكرني قول الفِنْد الزماني :

أيا طعنة ما شيخ كبير يَفَنٍ بالي
تَفَتَّيت بها إذ كـ ـره الشكة أمثالي

وكان الفند قد كبر وحضر القتال ، فطعن فارسين مقترنين فرماهما جميعاً .ص٧٢ ـ ٧٣

٤_ إذا انقضت المدة لم تنفع الشجاعة ولا الشدة.ص١١٢

٥_ وشاهدت من لطف الله _ تعالى _ وحسن دفاعه أن الإفرنج _ لعنهم الله _ نزلوا علينا بالفارس والراجل، وبيننا وبينهم العاصي[1] وهو زائد زيادة عظيمة، لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا، ولا نقدر نحن نجوز إليهم، فنزلوا على الجبل بخيامهم، ونزل منهم قوم إلى البساتين، وهي من جانبهم، هملوا خيلهم في الفصيل وناموا، فتجرد شباب من رجالة شيزر، وخلعوا ثيابهم، وأخذوا سيوفهم، وسبحوا إلى أولئك النيام، فقتلوا بعضهم، وتكاثروا على أصحابنا، فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا، وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل، ومن جانبهم مسجد يعرف: بمسجد أبي المجد بن سمية، فيه رجل يقال له: حسن الزاهد، وهو واقف على سطح بيوت في المسجد يصلي، وعليه ثياب سود صوف، ونحن نراه ومالنا إليه سبيل.

وقد جاء الإفرنج فنزلوا على باب المسجد، وصعدوا إليه ونحن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله الساعة يقتلونه، فلا والله ما قطع صلاته ولا زال من مكانه، وعاد الإفرنج نزلوا ركبوا خيولهم وانصرفوا وهو واقف مكانه يصلي، ولا نشك أن الله _ سبحانه _ أعماهم عنه وستره عن أبصارهم، فسبحان القادر الرحيم.ص١١٤ _ ١١٥

٦_ ومن ألطاف الله _ تعالى _ أن ملك الروم لما نزل على شيزر في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة _ خرج من شيزر جماعة من الرجالة للقتال، فاقتطعوهم

١_ يعني: نهر العاصي.

الروم؛ فقتلوا بعضاً وأسروا بعضاً، فكان في جملة من أسروا زاهد من بني كردوس من الصالحية من مولدي محمود بن صالح صاحب حلب، فلما عاد الروم كان معهم مأسوراً، فوصل القسطنطينية فهو في بعض الأيام فيها إذ لقيه إنسان فقال: أنت ابن كردوس؟ قال: نعم، قال: سر معي أوقفني على صاحبك، فسار معه حتى أراه صاحبه، فقاوله على ثمنه حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ أرضاه، فوزن له الثمن وأعطى ابن كردوس نفقة وقال: تبلغ بها إلى أهلك، وامض في دعة الله ـ تعالى ـ فخرج من القسطنطينية وتوصل إلى أن عاد إلى شيزر، وذلك من فرج الله ـ تعالى ـ وخفي لطفه، ولا يدري من الذي شراه وأطلقه.ص١١٥

٧ـ ومن لطف الله ـ تعالى ـ ما حدثني به عبدالله المشرف قال: حبست بحيزان، وقُيِّدت وضُيِّق علي، فأنا في الحبس والموكلون على بابه، فرأيت النبيﷺ في النوم فقال: اقلع القيد واخرج، فانتبهت جذبت القيد، فخرج من رجلي، وقمت إلى الباب أريد فتحه، فوجدته مفتوحاً، فتخطيت الرجال الموكلين إلى منفس في السور ما ظننت يدي تخرج منه، فخرجت منه، ووقعت على مزبلة، فبقي فيها آثار وقوعي وآثار رجلي، ونزلت في واد حول السور، ودخلت مغارة في سفح الجبل من ذلك الجانب وأنا أقول في نفسي: الساعة يخرجون ويرون أثري ويأخذوني، فأرسل الله ـ سبحانه ـ ثلجاً غطى ذلك الأثر، وخرجوا يطوفون عليَّ، وأنا أراهم نهارهم ذلك، فلما أمسيت وأمنت

الطلب خرجت من تلك المغارة وسرت إلى مأمني، كان هذا الرجل مشرفاً على مطبخ صلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني رحمه الله .ص١١٦ _ ١١٧

٨_ وعلى ذكر الخيل؛ ففيها الصبور كالرجال، وفيها الخوار.ص١١٩

٩_ وشهدت من الأسد ما لم أكن لأظنه، ولا اعتقدت أن الأسد كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان.ص١٢٧

١٠_ ومن عجيب أمور السباع أن أسداً ظهر عندنا في أرض شيزر، فخرجنا إليه ومعنا رجالة من أهل شيزر، فيهم غلام للمُفَنَّد الذي كان يطيعه أهل الجبل ويكاد أن يُعبد، ومع ذلك الغلام كلب له، فخرج الأسد على الخيل، فَجَلَتْ قُدَّامه جافلةً، ودخل في الرجالة، فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه، فوثب الكلب على ظهر الأسد، فنفر عن الرجل وعاد إلى الأجمة، وخرج الرجل إلى بين يدي والدي رحمه الله يضحك وقال: يا مولاي، وحياتك[1] ما جرحني ولا آذاني، وقتلوا الأسد، ودخل الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح أصابه إلا أنه انقطع قلبه.

فكنت أعجب من إقدام الكلب على الأسد، وكلُّ الحيوان ينفر من الأسد ويتجنبه.ص١٢٩

١١_ ولقد رأيت رأس الأسد يحمل إلى بعض دورنا، فترى السنانير تهرب من تلك الدار، وترمي نفوسها من السطوحات، وما رأت الأسد قط، وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن إلى سفح الباشورة، فلا تقربه الكلاب ولا شيء من

١_ هذا حلف بغير الله، فليته قال: والله.

الطير، وإذا رأت القيقان اللحم نزلت إليه، ثم إذا دنت منه صاحت وطارت، وما أشْبَهَ هيبةَ الأسد على الحيوان بهيبة العقاب على الطير؛ فإن العقاب يُبْصِرُه الفرَّوجُ الذي ما رأى العقاب قط، فيصيح وينهزم؛ هيبة ألقاها الله _ تعالى _ في قلوب الحيوان لهذين الحيوانين.ص١٢٩ _ ١٣٠

١٢_ قاتلت السباع في عدة مواقف لا أحصيها، وقتلت عدة منها ما شركني في قتلها أحد سوى ما شاركني فيه غيري، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري؛ فمن ذلك أن الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه، وفيه غفلة وبله ما لم يُجرح فحينئذ هو الأسد، وذلك الوقت يُخاف منه، وإذا خرج من غاب أو أجمة وحمل على الخيل فلا بد له من الرجوع إلى الأجمة التي خرج منها، ولو أن النيران في طريقه.

وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة، فمتى حمل على الخيل ووقفت في طريق رجوعه قبل أن يُجرح، فإذا رجع تركته إلى أن يتجاوزني وطعنته قتلته.ص١٣٠_١٣١

١٣_ فأما النمور فقتالها أصعب من قتال الأسود؛ لخفتها وبُعْد وثبتها، وهي تدخل في المغارات والمجاحر كما تدخل الضباع، والأسد ما يكون إلا في الغابات والآجام.ص١٣١

١٤_ ومن خواص النمر أنه إذا جرح الإنسان وبالت عليه فأرة مات، ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر، حتى إنه يعمل له سرير يجلس في الماء، ويربط حوله السنانير خوفاً عليه من الفأر.ص١٣٢

١٥ـ والنمر لا يكاد يألف الناس، ولا يستأنس بهم، وقد كنت مرة مجتازاً بمدينة حيفا من الساحل، وهي للإفرنج، فقال لي إفرنجي منهم: تشتري مني فهداً جيداً؟ قلت: نعم، فجاءني بنمر قد رباه حتى صار في قَدِّ الكلب.

قلت: لا ما يصلح لي، هذا نمر ما هو فهد؛ فعجبت من أنسه وتصرفه مع الإفرنجي.ص١٣٢

١٦ـ والفرق بين النمر وبين الفهد أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب وعيناه زرق، والفهد وجهه مدور وعيناه سود.ص١٣٢

١٧ـ وفي ذلك اليوم فَرَّقت والدتي ـرحمها اللهـ سيوفي وكزاغنداتي، وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن وقالت: البسي خفك وإزارك، فلبست وأخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق، أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن، ونصرنا الله ـ سبحانه ـ عليهم، وجئت إلى داري أطلب شيئاً من سلاحي، فما وجدت إلا جهازات السيوف وعِيَب الكزغندات، قلت: يا أمي، أين سلاحي؟ قالت: يا بني أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا، وما ظننتك سالماً، قلت: فأختي أي شيء تعمل هاهنا؟ قالت: يا بني، أجلستها على الروشن وجلست براً منها، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها ورميتها إلى الوادي، فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحيين والحلاجين مأسورة، فشكرتها على ذلك، وشكرت الأخت وجزيتهما خيراً، فهذه النخوة أشدُّ من نخوات الرجال.ص١٤٥

١٨ـ وليس عندهم ـ يعني الإفرنج ـ شيء من النخوة والغيرة؛ يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة، ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى.ص١٥٤

١٩ـ ما فيهم ـ يعني النصارى ـ غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة.ص١٥٥ ـ ١٥٦

٢٠ـ ومن عجائب القلوب أن الإنسان يخوض الغمرات، ويركب الأخطار، ولا يرتاع قلبه من ذلك، ويخاف مما لا يخاف منه الصبيان ولا النسوان.

ولقد رأيت عمي: عز الدين أبا العساكر سلطان رحمه الله وهو من أشجع أهله، له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة، وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه، ولحقه كالزمع من نظرها، وقام من الموضع الذي يراها فيه.

وكان في غلمانه رجل شجاع معروف بالشجاعة والإقدام اسمه صندوق، يفزع من الحية حتى يخرج من عقله، فقال له والدي رحمه الله وهو واقف بين يدي عمي: يا صندوق، أنت رجل جيد معروف بالشجاعة ما تستحي تفزع من الحية؟ قال: يا مولاي، وأيُّ شيءٍ في هذا من العجب؟ في حمص رجل شجاع بطل من الأبطال يفزع من الفأرة ويموت ـ يعني مولاه ـ فقال له عمي رحمه الله: قبحك الله يا كذا وكذا.ص١٦٠ ـ ١٦١

٢١ـ فسبيل الرجل المحارب يتفقد عدة حصانه؛ فإن أيسر الأشياء وأقلها يودي ويهلك، كل ذلك مقرون بما تجري به الأقدار والأقضية.**١٦٢**

٢٢_ وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لا أحصيها، وقتلت عدة منها لم يشركني أحد في قتلها، فما نالني من شيء منها أذى.ص١٦٣

٢٣_ وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا كنت أظنه بالنساء.ص١٦٣

٢٤_ النصر في الحرب من الله _ تبارك وتعالى _ لا بترتيب وتدبير، ولا بكثرة نفير ولا نصير.

وقد كنت إذا بعثني عمي رحمه الله لقتال أتراك أو إفرنج أقول له: يا مولاي، مُرْني بما أتدبر به إذا لقيت العدو فيقول: يا بني، الحرب تدبر نفسها، وصدق.ص١٦٦

٢٥_ فأما التغرير في الإقدام فما هو للزهد في الحياة، وإنما سببه أن الرجل إذا عرف بالإقدام ووسم بالشجاعة، وحضر القتال طالبته همته بفعل ما يذكر به، ويعجز عنه سواه، وخافت نفسه الموت، وركوب الخطر، فتكاد تغلبه وتصده عما يريد يفعله حتى يضطرها ويحملها على مكروهها، فيعتريه الزمع وتغير اللون لذلك، فإذا دخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشه.ص١٧٣

٢٦ _ ولم أدر أن داء الكِبَر عام يعدي كل من أغفله الحِمَامُ، فلما توقلت ذروة التسعين، وأبلاني مرُّ الأيام والسنين صرت كجواد العلاف لا الجواد المتلاف، ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي في بعض، حتى أنكرت نفسي وتحسرت على أمسي، وقلت في وصف حالي:

لما بلغت من الحياة إلى مدى ... قد كنت أهواه تمنيت الردى

لم يُبْقِ طولُ العمرِ مني مُنَّةً ... ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدى

ضعفت قواي وخانني الثقتان من ... بصري وسمعي حين شارفت المدى

فإذا نهضت حسبت أني حامل جبلاً وأمشي إن مشيت مقيدا
وأدِبَّ في كفي العصا وعهدتها في الحرب تحمل أسمراً ومهندا
وأبيت في لين المهاد مسهداً قلقاً كأني ما افترشت الجلمدا
والمرء ينكس في الحياة وبينما بلغ الكمال وتم عاد كما بدا

ص١٧٩

٢٧_ فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، وتقحمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف، وطعنت بالرماح، وجرحت بالسهام والجروح وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغت تمام التسعين، فرأيت الصحة والبقاء كما قال ﷺ: «**كفى بالصحة داءاً**» فأعقبت النجاة من تلك الأهوال ما هو أصعب من القتل والقتال، وكان الهلاك في كنه الجيش أسهل من تكاليف العيش، استرجعت مني الأيام بطول الحياة سائر محبوب اللذات، وشاب كدر النكد صفو العيش الرغد، فأنا كما قلت:

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي جِدُّ مضطربٍ كخطِّ مرتعشِ الكفين مرتعد
فأعجب لضعف يدي عن حملها قلماً من بعد حطم القنا في لبة الأسد
وإن مشيت وفي كفي العصا ثقلت رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته هذي عواقب طول العمر والمدد

ضعفت القوة ووهت، وتقضت بَلَهْنِيَةُ العيش وانتهت، ونَكَّسني التعمير بين الأنام، وإلى الخمود تَسَعُّر الضِّرام، حتى أصبحت كما قلت:

تناستني الآجال حتى كأنني رذيَّة سَفْرٍ بالفلاة حسير[1]
ولما تَدَعْ مني الثمانون مُنَةً كأني إذا رمت القيام كسير
أؤدي صلاتي قاعداً وسجودها علي إذا رمت السجود عسير
وقد أنذرتني هذه الحال أنني دنت رحلة مني وحان مسير

ص١٨٢

٢٨ـ وحضرته ـ يعني الملك العادل نور الدين زنكي ـ يوماً وقد أرسل كلبة على ثعلب، ونحن على قرا حصار بأرض حلب، فركض خلفه وأنا معه، فلحقت الكلبة أخذت ذنب الثعلب فرجع إليها برأسه فعض خيشومها، فصارت الكلبة تعوي ونور الدين رحمه الله يضحك، ثم خلاها وانجحر فما قدرنا عليه.ص٢٠٦

٢٩ـ وكان له ـ يعني والده ـ ترتيب في الصيد كأنه ترتيب الحرب والأمر المهم، لا يشتغل أحد بحديث مع صاحبه، ولا لهم هم إلا التبحر في الأرض؛ لنظر الأرانب أو الطير في أوكارها.ص٢٠٩

١ـ رذية: وفي الحاشية (دَرِيَّة) والأولى بمعنى: تعبى، ومهزولة من اليسر، ويعني الناقة.

سابعاً : نقولات مختارة من كتاب :

عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة
لأبي الحسن علي بن عبدالرحمن بن هذيل

ـ «**تعريف بالمؤلف والكتاب**» :

مؤلف هذا الكتاب هو الأديب الأندلسي علي بن عبدالرحمن بن هذيل الفزاري، من أعيان القرن الثامن الهجري، وهو من علماء الاجتماع المشهود لهم بسعة الإطلاع ورجاحة الرأي.

وكان حافزه لتأليف هذا الكتاب هو أن يكون تقدمة إلى السلطان محمد ابن يوسف عام ٧٦٣هـ.

وقد صدَّره بالآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة التي تدل على ما يرمي إليه من آراء وأفكار.

كما أنه ضمنه آراء العظماء، والحكماء، والعقلاء والشعراء وَوُزِّعَتْ في ثنايا الكتاب بأسلوب رائع، فجاءت في حلة قشيبة، تحمل في طياتها الحكم والتجارب، والمواعظ.

وهذا الكتاب يقع في٣١١ صفحة، وهو من مطبوعات دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان عام ١٤٠١هـ.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : **قال**رَحِمَهُ اللَّهُ :

١ـ التأليف خير موقوف على زمان، والتصنيف ليس بمقصور على أوان، لكنها صناعة ربما قصرت فيها سوابق الأفهام، وسبيل ربما حادت عنها أقدام الأوهام، قال بعض الحكماء: لكل شيء صناعة، وصناعة التأليف صناعة العقل.ص٨

٢ـ قال أبو الحسين أحمد بن فارس، صاحب كتاب (مجمل اللغة): لو اقتصر الناس على كتب القدماء، لضاع علم كثير، ولذهب أدبٌ غزيرٌ، ولضلَّت أفهام ثاقبة، ولكَلَّت ألسنة لَسِنَة، ولمجَّت الأسماع كلَّ مردد، ولفظت القلوب كل مرجَّع.

قال الشاعر:

إذا تحدّثتَ في قوم لتؤنسهم مِنْ الحديث بما يمضي وما ياتي

فلا تعاود حديثاً إن طبعهم موكلٌ بمعاداة المعادات

ص٨

٣ـ والذي عليه في التأليف المدار: هو حسن الانتقاء والاختيار، مع الترتيب والتبويب والتهذيب والتقريب.

قال بعض العلماء: اختيار الكلام أشد من نحت السهام.وقالوا: اختيارُ المرءِ وافدُ عقله، ورائدُ فضله.

وفضيلة هذا التأليف: هي في جمع ما افترق، مما تناسب واتسق، واختيار عيون، وترتيب فنون، من أحاديث نبوية، ومكارم أدبية، وحكم باهرة،

وأبيات نادرة، وأمثال شاردة، وأخبار واردة، ووصايا نافعة، ومواعظ جامعة، ومروءات سَرِيَّة، وسياسات سَنِية، ومعانٍ مستظرفة، وحكاياتٍ مستطرفة، وجميع ذلك مطرد بكل شعر جزل، سهل بريء من الغزل والهزل.ص٨ _ ٩

٤ _ وإنما يذم ويكره من الكلام ما كان لغواً غير نافع، وهزلاً عن منهج الجد مانع.

وأما ما ينبه به غافل، ويعلم به جاهل، ويذكر به عاقل _ فذاك مما يحسن ويجمل، ويرجح به عقل سامعه وينبل، ويقرب ما بعد مأخذه عليه، ويسهل ما صعب تناوله بالتنبيه والإشارة إليه؛ إذ الشكل مضاف إلى شكله، والجنس إلى جنسه ومثله.ص٩

٥_ وقال أَبَانُ بن سليم: كلمة حكمة من أخيك خير لك من مال يعطيك؛ لأن المال يطغيك، والكلمة من الحكمة تهديك.ص١٣

٦_ وقال بعض السلف: القلوب تحتاج إلى قُوْتِها، كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الغذاء.ص١٣

٧_ وقال بعض الحكماء: الحكمة خلة عقل، وميزان العدل، ولسان الإيمان، وعين البيان، وروضة الأرواح، ومزاح الهموم عن النفوس، وأنس المستوحش، وأمن الخائف، ومتجر الرابح، وحظ الدنيا والآخرة، وسلامة العاجل والآجل.ص١٣

٨_ وقال بعضهم: الحكمة نور الأبصار، وروضة الأفكار، ومطية الحلم، وكفيل النجاح، وضمين الخير والرشد، والداعية إلى الصواب، والسفير بين

العقل والقلوب، لا تندرس آثارها، ولا تعفو ربوعها، ولا يهلك امرؤ بعد عمله بها.ص١٣

٩_ وقال بقراط: من اتخذ الحكمة لجاماً اتخذه الناس إماماً.ص١٣

١٠_ قال بعض الحكماء: صلاح أسقام النفس أفضل من صلاح أسقام البدن؛ لفضل النفس على البدن.ص١٣

١١_ إن حب الخير فعل، وإن عجزت عنه المقدرة.ص١٦

١٢_ إن الصواب في الأسدِّ لا الأشدِّ.ص١٦

١٣_ إن امرأً ليس بينه وبين آدم أحد لمعرق في الموت.ص١٦

١٤_ إن للأمور بغتات فكن منها على حذر.ص١٦

١٥_ إن ولاية المرء ثوبه؛ فإن قصر عنه عرى منه، وإن طال عليه عثر فيه.ص١٦

١٦_ إن أضعف الرأي ما سنح في البديهة.ص١٧

١٧_ إن أحق ما صبرت عليه ما لم تجد سبيلاً إلى دفعه.ص١٧

١٨_ إن المصيبة إذا نزلت إنما هي واحدة، فإن جزع صاحبها كانت اثنتين.ص١٧

١٩_ إن من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب ومدبر مربوب _ أن يتبلد رأيه في بعض الخطوب، ويعمى عليه الصواب المطلوب.ص١٧

٢٠_ إن لكل قوماً كلباً؛ فلا تكن كلب أصحابك.ص١٧

٢١_ إن الله _ عز وجل _ وسَّع أرزاق الحمقى؛ ليعتبر العقلاء، وليعلموا أن الدنيا لا ينال ما فيها بعقل ولا حيلة.ص١٧

٢٢_ إن لكل فضل زكاة ، وإن زكاة المال الصدقة على الفقير المحتاج ، وإن زكاة القوة المدافعة عن الضعيف المظلوم ، وإن زكاة البلاغة القيام بحجة من قد عجز عن حجته ، وأن زكاة الجاه أن يُعاد به على من لا جاه له ، وان زكاة العلم التعليم لمن قصر علمه.ص١٧

٢٣_ إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بخلقه ، وخف على الناس وأحبوه ، وإن العابد إذا كان سيِّئ الخلق ثقل على الناس ، وملّوه.ص١٨

٢٤_ إن المرء لن ينال ما يحب حتى يصبر على كثير مما يكره.ص١٨

٢٥_ ومن الشعر في هذا الفصل قولهم :

إن الليالي للأنام مناهلٌ تُطوى وتُبْسط بينها الأعمارُ
فقصارهن مع الهموم طويلةٌ وطوالهن مع السرور قصارُ

ص١٨

٢٦_ إن الشدائد قد تغشى الكريم لأنْ تُبِيَنَ فضلَ سجاياهُ وتُوْضِحَهُ
كَمِبْرَدِ القين إذ يعلو الحديد بهِ وليس مقصدهُ إلا ليصلِحَهُ

ص١٨

٢٧_ إن المروءة ما علمـ ـتَ لفي القناعةِ والخمولِ
تغدو وليسَ على يديـ ـك يدٌ تصولُ ولا تطولُ

ص١٨

٢٨ _ إن المرايا لا تُريكَ خموشَ وجهكَ في صداها
وكذاك نفسكَ لا تريك عيوبَ نفسكَ في هواها

ص٢٠

٢٩_ إن العدو وإن أبدى مودتهُ إذا رأى فيك يوماً فرصةً وثبا

ص٢٠

٣٠_ إن المسرة للمساءة موعد حقاً ورهنٌ للعشيةِ أو غدِ

ص٢٠

٣١_ إن التباعد لا يضـ ـرُّ إذا تقاربت القلوبُ

ص٢٠

٣٢_ إن الكرامَ إذا ما أسهلوا ذكروا من كانَ يألفهم في المنزل الخشنِ

ص٢٠

٣٣_ إنما للناس منا حُسْن خُلْقٍ ومزاحِ

ولنا ما كان فينا من فسادٍ وصلاحِ

ص٢٤

٣٤_ إنما تعرف الصديق إذا ما جئتهُ منْ خلافِ ما يشتهيهِ

ص٢٤

٣٥_ ما يظهر الود المستقيم إلا من القلب السليم.ص٢٩

٣٦_ ما استُنْبط الصواب بمثل المشاورة، ولا اكتُسبت البغضاء بمثل الكبر.

ص٢٩

٣٧_ ما أقبح التكبر عند الاستغناء، وما أفضح الخضوع عند الحاجة.ص٢٩

٣٨_ ما لا ينبغي أن تفعله احذر أن يخطر ببالك.ص٢٩

٣٩_ ما تواضع في ولايته إلا من كبر عنها، ولا تكبر فيها إلا من كبرت عنه. ص٢٩ _ ٣٠

٤٠_ ما ضاقَ بالمرءِ أمرٌ واستعدَ لهُ عبادةَ اللهِ إلا جاءهُ الفرجُ
ولا أناخَ ببابِ الله ذو ألمٍ إلا تزحزحَ عنه الهمُ والحرجُ
ص٣١

٤١_ ما يحرزُ المرءُ منْ أطرافهِ طرفاً إلا تخوَّفهُ النقصانُ منْ طرفِ
ص٣١

٤٢_ ما استقامت قناةُ رأيي إلا بعدَ أن عوجَ المشيبُ قناتي
ص٣٢

٤٣_ لا يوجد العجول محموداً، ولا المغضوب مسروراً، ولا الحر حريصاً، ولا الكريم حسوداً، ولا الشره غنياً، ولا الملول ذا إخوان. ص٣٤

٤٤_ لا تظهرن إنكار ما لا عدة معك لدفعه، ولا تلهينك قدرة عن كيد وحيلة، ولا تتهاون بالأمر الصغير إذا كان يقبل النمو.ص٣٤

٤٥_ ولا تلاحِ رجلاً غضبان؛ فإنك تغلقه باللجاج، ولا ترده إلى الصواب.ص٣٤

٤٦_ ولا تفرح بسقطة غيرك؛ فإنه لا تدري ما يحدث الزمان بك.ص٣٤

٤٧_ لا تطمع في كل ما تسمع.ص٣٤

٤٨_ لا تطلب سرعة العمل، واطلب تجويده؛ فإن الناس لا يسألون في كم فرغ منه، وإنما يسألون عن جودة صنعته.ص٣٤

٤٩_ لا تطلبن الحاجة إلى كذوب؛ فإنه يقر بها وإن كانت بعيدة ، ويبعدها وإن كانت قريبة ، ولا إلى أحمق؛ فإنه يريد نفعك فيضرك ، ولا إلى من له إلى صاحب الحاجة حاجة؛ فإنه يجعل حاجتك وقاية لحاجته.ص٣٤ _ ٣٥

٥٠_ لا تُحقرِ المرءَ إنْ رأيتَ بهِ   دمامةً أو رثاثةَ الحللِ
فالنحلُ لا شكَ في ضؤولتهِ   يَشْتَارُ منه الفتى جنى العسلِ
ص٣٦

٥١_ لا تتبعِ النفسَ كل فائتةٍ   في الله منْ كلِّ فائتٍ عوض
واعملْ لأخراكَ غيرَ منخدع   فإنَّ دنياكَ هذه عرض
إنْ صحَّ أمرٌ من الأمور بها   لا بدَّ أنْ يصيبه مرض
ص٣٧

٥٢_ لا تَكْرَهِ المكروهَ عندَ حلولهِ   إنَّ العواقبَ لم تزلْ متباينةْ
كم منْ يدٍ لا يُستَقَلُّ بشكرها   للهِ في طي المكارهِ كامنةْ
ص٣٧

٥٣_ لا تَضْرَعَنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ   فإنَّ ذلك نقصٌ منكَ في الدينِ
واسترزقِ اللهَ مما في خزائنهِ   فإنما الأمرُ بينَ الكافِ والنونِ
ص٣٨ _ ٣٩

٥٤_ إياك والبخل؛ فإن البخيل خازن لأعدائه.ص٤٣

٥٥_ إياك والغضب؛ فإنه يضطرك إلى سوء الاعتذار.ص٤٤

٥٦_ إياك ومعاداة الرجال؛ فإنك لن تعدم مكر حليم ، أو مفاجأة لئيم.ص٤٤

٥٧ _ إياك والعجلة؛ فإن العرب كانت تكنيها : أمَّ الندامة.ص٤٤

٥٨_ إياكَ من زللِ اللسان فإنما عقلُ الفتى في لفظهِ المسموعِ
والمرء يختبرُ الإناءَ بنقرهِ ليرى الصحيحَ به مِنَ المصدوعِ

ص٤٤ _ ٤٥

٦٩_ إذا عثر عاثر فاحمد الله أن لا تكونه.ص٤٧

٦٠_ إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط.ص٤٧

٦١_ إذا أقبلت الدنيا على الإنسان أعطته محاسن غيره ، وإذا دبرت عنه سلبته محاسن نفسه.ص٤٧

٦٢_ إذا جهل عليك الأحمق فليس له صلاح إلا الرفق والتلطف. ص٤٨_٤٩

٦٣_ إذا فتحت بينك وبين أحد باباً من المعروف فاحذر أن تغلقه ولو بالكلمة الجميلة.ص٤٩

٦٤_ إذا رضي المرء بالميسور ضُرب بينه وبين الأنكاد سور.ص٤٩

٦٥_ إذا أبصرت العين الشهوة عمي القلب عن الاختيار.ص٤٩

٦٦_ إذا قبح السؤال حسن المنع.ص٤٩

٦٧_ إذا شاورت العاقل صار نصف عقله لك.ص٤٩

٦٨_ إذا كنت في غير بلدك فلا تنس نصيبك من الذل.ص٥٠

٦٩_ إذا نالكَ الدهرُ بالحادثاتِ فكنْ رابطَ الجأشِ صعبَ الشكيمة
ولا تهنِ النفسَ عندَ الخطوبِ إذا كان عندك للنفس قيمة

فوالله ما لقي الشامتون بأحسن منْ صبرِ نفسٍ كريمة

ص٥١

٧٠_ إذا الحادثاتُ بلغنَ المدى وكادتْ تضيق بهنَّ المهج

وحلَّ البلاء وقلَّ الوفاء فعندَ التناهي يكون الفرج

ص٥١

٧١_ إذا كنتَ ذا مالٍ ولم تك منفقاً فأنت إذاً والمقترونَ سواءُ

على أنَّ للأموالِ يوماً تباعةً على أهلها والمقترونَ براءُ

ص٥٢

٧٢_ إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشفتْ لهُ عن عدوٍ في ثيابِ صديقِ

ص٥٥

٧٣_ من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه.ص٥٩

٧٤_ من عرف قدره علا أمره.ص٦٠

٧٥_ من نظر في العواقب نجا.ص٦١

٧٦_ من فرح بمدح الباطل فقد أمكن الشيطان من نفسه.ص٦١

٧٧_ من غضب من غير شيء فسيرضى من غير شيء.ص٦٣

٧٨_ من لم يمنع نفسه من الشهوات تسرعت إليه الهلكات.ص٦٣

٧٩_ مَنْ كان مرعى عزمه وهمومه روضُ الأماني لم يزل مهزولا

ص٦٧

٨٠_ ليس بخالص ولا لبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بداً حتى يجعل الله _ تعالى _ له مخرجاً.ص٦٩

٨١_ ليس من شرط الحليم أن لا يضجر ، لكن أن يضجر بوزن.ص٦٩

٨٢_ إفشاء السر أحد المفسرين.ص٧٧

٨٣_ إدمان النظر أحد الفسقين.ص٧٧

٨٤_ القلم أحد اللسانين.ص٧٧

٨٥_ اثنان ظالمان يأخذان غير حقهما : رجل وُسِّع له في مجلس ضيق فتربع وانتفخ ، ورجل أهديت له نصيحة فجعلها ذنباً.ص٨٠

٨٦_ خصلتان يحبهما العاقل ، ويكرهما الجاهل : الصبر عند النوائب ، والعفو عند المقدرة.ص٨٠

٨٧_ وأمران يستصلح بهما أخراه : عقل يعرف به خطأه من صوابه ، ورشده من غيه ، ونزاهة يقهر بها هواه ، ويصرف بها شهوته.ص٨٠

٨٨_ أسباب الفتن ثلاثة : عين ناظرة ، وصورة ناضرة ، وشهوة قادرة.ص٨٤

٨٩_ ثلاثٌ بها نلتُ المعاليَ والغنى وأصبحتُ معتزَّ الجنابِ ممولا
طويتُ على قصد المروة باطني وفي ظاهري أبديتُ فيه التجملا
وأغضيتُ عما في يد الخلقِ ناظري وأبصرتُ ما لله عندي أفضلا
ص٨٨

٩٠_ أربعة يسود بها المرء : الأدب ، والعلم ، والعفة ، والأمانة.ص٩٠

٩١_ أربعة ينبغي للعاقل أن يمنع نفسه منها : العجلة ، واللجاجة ، والعجب ، والتواني.ص٩٠

٩٢_ ست خصال من كن فيه فهو إنسان كامل : الألفة ، والحياء ، والأدب ، والأنفة ، والشكر ، والرجاء.ص٩٦

٩٣_ ثمانية قام الوجود بها فهل ترى من محيص للورى عن ثمانية
سرور ، وحزن ، واجتماع ، وفرقة وعسر ، ويسر ، ثم سقم ، وعافية
بهنّ انقضت أعمار أولاد آدم فهل من رأى أحوالهم متساوية
ص١٠١

٩٤_بتسع يُنال العلم : قوت وصحة وحرص ، وفهم ثاقب في التعلمِ
ودرس ، وحفظ للعلومِ ، وهمة وشرخ شبابٍ ، واجتهاد معلمِ
ص١٠٢

٩٥_ إنَّ المكارمَ أخلاق مطهرة فالعقلُ أولها والدينُ ثانيها
والعلم ثالثها والحلمُ رابعها والصبرُ خامسها والصدقُ ساديها
والشكرُ سابعها والجودُ ثامنها والرفقُ تاسعها واللينُ عاشيها
والنفسُ تعلم من عيني محدثها إنْ كان من حزبها أو من أعاديها
ص١٠٣

٩٦_ قال حكيم لحكيم : ما السؤدد؟ فقال : اصطناع العشيرة ، واحتمال الجريرة ، قال : فما الشرف؟ فقال : كف الأذى ، وبذل الندى ، قال : فما الثناء؟ فقال : استعمال الأدب ، ورعاية الحسب ، قال : فما المجد؟ فقال : احتمال

المغارم، وابتناء المكارم، قال: فما المروءة؟ قال؟ عرفان الحق، وتعاهد الصنيعة، قال: فما السماحة؟ فقال: حب السائل، وبذل النائل، قال: فما الكرم؟ فقال: صدق الإخاء في الشدة والرخاء.ص١٠٥

٩٧_ من وصية الرشيد للمأمون : لا تتكل على أن تقول: كان أبي الرشيد، واعمل على ما يتكل عليه من يقول: كان أبي المأمون.ص١١٢

٩٨_ وقيل لقيس بن عاصم: بم سودك قومك؟ قال: بكف الأذى، وبذل الندى، ونصرة المولى.ص١١٣

٩٩_ وكان عبدالله بن طاهر قد خلف أربعين ولداً ذكراً، فقال أبو العميثل الأعرابي الشاعر لمصعب بن عبدالله، وكان يختص بطاهر وينادمه: ألا أدلك على شيء تفعله فتتقدم به سائر إخوتك عند الأمير طاهر؟ قال : بلى، فأنشده هذه الأبيات، وقال اكتب بها إلى الأمير:

يا من يحاول أن تكون خلالهُ ... كخلال عبدالله أنصت واسمعِ
فلأقصدنك بالنصيحة والذي ... حج الحجيج إليه فاقبل أو دعِ
إن كنت تطمع أن تحل محلهُ ... في المجد والشرف الأشم الأرفعِ
فاصدُقْ وعَفَّ وبِرَّ وانصر واحتمل ... واحلُم ودارِ وكافِ واصبر واخشعِ
والطُفْ ولِنْ وتأنَّ وَارفِقْ واتئد ... واحزِمْ وجِدَّ وحامِ واحملْ وادفعِ
هذا الطريق إلى المكارم مهيعاً ... فأبصرْ فقد أسلكت قصد المهيعِ

فاستحسن طاهر الأبيات، وقال: والله لقد أفدتني بما يجب به شكرك علي، فقلده نيسابور وأعمالها ثلاث سنين، وأكسبه ألف ألف درهم.

وقد جمعت هذه الأبيات خلال المكارم، وموجبات السؤدد، وتفاريق المروءة.ص١١٥

١٠٠ـ قيل لعرابة الأوسي: بم سودك قومك؟ قال: بأربع خلال: أنخدع لهم في مالي، وأذل لهم عرضي، ولا أحقر صغيرهم، ولا أحسد كبيرهم، وفي عرابة الأوسي يقول الشاعر:

رأيت عرابة الأوسيَّ يسمو إلى الخيرات منقطع القرينِ
إذا ما رايةٌ رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمينِ

ص١١٥ ـ ١١٦

١٠١ـ وكان أسماء بن خارجة الفزاري سيد أهل الكوفة، فقال له يوماً عبدالملك بن مروان: ما أشياء تبلغني عنك يا أسماء؟ فقال: يحدثك غيري عني يا أمير المؤمنين، فقال له عبدالملك: وعلى ذلك فأحب أن أسمعها منك يا أسماء، فقال: نعم، يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط، مخافة أن يرى أني تكبرت عليه، ولا سألني رجل قط حاجة فكان أكبر همي من الدنيا إلا قضاء حاجته، ولا أكل رجل قط عندي أكلة إلا كان له الفضل علي أيام حياتي، ولا ظلمني رجل قط بمظلمة إلا رأيت عقوبته العفو عنه، فقال عبدالملك: حسبك بهذا شرفاً يا أسماء! ثم أنشد عبدالملك يقول:

إذا ما ماتَ خارجةُ بن حصنٍ فلا مطرتْ على الأرضِ السماء
ولا رجعَ الوفودُ بغنمِ عيشٍ ولا حملتْ على الطهر النساء
لَيومٌ منك خيرٌ منْ أناسٍ كثيرٍ حولهمْ نَعَمٌ وشاء

فبوركَ في بنيكَ وفي بنيهم إذا ذكروا ونحن لك الفداء

ص١١٦ـ ١١٧

١٠٢ـ وقال بعضهم: إذا رغبت في المكارم، فاجتنب المحارم. ص١١٩

١٠٣ـ إذا أعجبتكَ خصالُ امرئٍ فكنهُ تكنْ مثلَ ما يعجبك

فليس على المجدِ والمكرماتِ إذا جئتها حاجب يحجبك

ص١١٩

١٠٤ـ وقال عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز: قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيت رجلاً أكمل أدباً، ولا أجمل عشرة من أبيك؛ وذلك أني سهرت معه ليلة، فبينما نحن نتحدث إذا غشى المصباح، وقد نام الغلام، فقلت له: يا أمير المؤمنين، قد غشي المصباح، أفنوقظ الغلام ليصلح المصباح؟ فقال: لا تفعل، فقلت: أفتأذن لي أن أصلحه، فقال: لا؛ لأنه ليس من المروءة أن يستخدم الإنسان ضيفه، ثم قام هو بنفسه، وحط رداءه عن منكبيه، وأتى إلى المصباح فأصلحه، وجعل فيه الزيت، وأشخص الفتيل، ثم رجع وأخذ رداءه وجلس، ثم قال: قمت، وأنا عمر بن عبدالعزيز، وجلست، وأنا عمر بن عبدالعزيز. ص١٢٤

١٠٥ـ ووصف الشعبي أدب عبدالملك بن مروان، فقال: والله ما أعرفه قط، إلا آخذاً بثلاث تاركاً لثلاث: آخذاً بحسن الحديث إذا حَدَّث، وبحسن الاستماع إذا حُدِّثَ، وبأيسر المؤنة إذا خولف، تاركاً للمحاورة مع اللئيم، ومماراة السفيه، ومنازعة اللجوج. ص١٢٤

١٠٦ـ ومن الواجب على من عري من الأدب، وتخلى عن المعرفة والفهم، ولم يتحل بالعلم ـ أن يلزم الصمت، ويأخذ نفسه به؛ فإن ذلك حظ كبير من الأدب، ونصيب وافر من التوفيق؛ لأنه يأمن من الغلط، ويعتصم من دواعي السقط؛ فالأدب رأس كل حكمة، والصمت جماع الحكم.

قال الشاعر:

وفي الصمت سترٌ للعيي وإنما صحيفةُ لبِّ المرءِ أن يتكلما

ص١٢٨

١٠٧ـ قال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان نصيحاً عظم شأنه في صدري، وإن كان مقصراً سقط من عيني.

قال الشاعر:

لسانُ المرء ينبئُ عن حجاهِ وعي المرء يسترهُ السكوتُ

ص١٢٨ ـ ١٢٩

١٠٨ـ اعلم أن المروءة دالة على كرم الأعراق، باعثة على مكارم الأخلاق، وهي: مراعاة الأحوال التي يكون الإنسان على أفضلها.ص١٣٠

١٠٩ـ قال ابن سلام: حد المروءة: رعي مساعي البر، ورفع دواعي الضر، والطهارة من جميع الأدناس، والتخلص من عوارض الالتباس، حتى لا يتعلق بحاملها لوم، ولا يلحق به ذم؛ وما شيء يحمل على صلاح الدين والدنيا ويبعث على شرف الممات والمحيا إلا وهو داخل تحت المروءة.ص١٣٠

١١٠_ وقيل لبعض الحكماء: ما المروءة؟ قال: طهارة البدن، والفعل الحسن.ص١٣٠

١١١_ قيل للأحنف بن قيس: ما المروءة؟ قال: صدق اللسان، ومواساة الإخوان.ص١٣١

١١٢_ قال بعض الحكماء: لا تفارق الصبر؛ فتعظمَ عليك البلوى، ولا المروءة؛ فتشمت بك الأعداء.ص١٣٢

١١٣_ وسئل عبدالله الفارسي عنها _ يعني المروءة _ فقال: هي التألف، والتظرف، والتنظف، وترك التكلف.ص١٣٥

١١٤_ وأنشد ثعلب:

من عفَّ خفَّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مبذول

وأخوك من وفرت ما في كيسه فإذا استعنت به فأنت ثقيل

ص١٣٧

١١٥_ دواء المودة كثرة التعاهد.ص١٣٩

١١٦ _ أَقِلْ ذا الود عثرتهُ وقِفْهُ على سنن الطريق المستقيمة

ولا تسرع بمعتبةٍ إليهِ فقد يهفو ونيته سليمة

ص١٣٩

١١٧_ أجمعت الحكماء وأهل الفضل على أن السيادة والمروءة وأجمع خلال العشرة _ في المسارعة إلى المعونة، وفي العفو مع المقدرة، وفي التودد إلى الناس، والتحبب لهم.ص١٥٢

١١٨_ مكتوب في التوراة: لتكن كلمتك لينة، ووجهك بسيطاً، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.ص١٥٢

١١٩_ وفي المثل: الكلام الحسن مصايد القلوب، والعبوس من طبعه البُؤس.ص١٥٢

١٢٠_ وقال أرسطاليس للإسكندر: أعظم من أوصيك به أن لا تتبغض إلى أحد من خلق الله، فرأس العقل _ بعد الإيمان _ التحبب إلى الناس كافة.ص١٥٣

١٢١_ قال الشاعر:

البشرُ يُكسبُ أهلهُ صدقَ المودَّةِ والمحبةْ
والتيه يستدعي لصا حبه المذمة والمسبةْ

ص١٥٣

١٢٢_ قال أبو جعفر المنصور: إن أحببت أن يكثر الثناء الجميل عليك من الناس بغير نائل فالقهم ببشر حسن.ص١٥٤

١٢٣_ وقالوا: ثلاثة لا يقوم للمرء الرشد إلا فيهن: مشاورة ناصح، ومداراة حاسد، والتحبب إلى الناس.ص١٥٤

١٢٤_ وقال بعضهم: مداراة الناس نصف العقل.ص١٥٤

١٢٥_ وقال العتابي: المداراة سياسة لطيفة، لا يستغني عنها ملك، ولا سوقة يحتلبون بها المنافع، ويدفعون بها المضار، فمن كثرت مداراته، كان في ذمة الحمد والسلامة.ص١٥٤

١٢٦_ وقال بعضهم: ينبغي للعاقل أن يداري زمانه مداراة السابح الماء الجاري.ص١٥٤

١٢٧_ لما قدم حاتم الأصم إلى أحمد بن حنبل قال له أحمد بعد بشاشة به: أخبرني كيف التخلص إلى السلامة من الناس؟ فقال له حاتم: بثلاثة أشياء، فقال له أحمد: ما هي؟ قال: تعطيهم مالك ولا تأخذ مالهم، وتقضي حقوقهم ولا تطالبهم بقضاء حقوقك، وتصبر على أذاهم ولا تؤذهم، فقال أحمد: إنها لصعبة! قال له حاتم: وليتك تسلم.ص١٥٥ _ ١٥٦

١٢٨_ قالت الحكماء: من غض بصره عن عيوب الناس غضوا أبصارهم عنه.ص١٥٦

١٢٩_لا تلتمس من مساوي الناس ما فيكا فيكشف الله ستراً عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكا
ص١٥٦

١٣٠_ قال بعض الحكماء: استشعروا السلامة للناس، والبسوا لهم اللين، والقوهم بالبشاشة، وعاشروهم بالتودد، وتفضلوا عليهم بحسن الاستماع، وإن كان ما يأتون به نزراً؛ فإن لكل امرئ عند نفسه قدراً، فالقوهم بما يستنبطون به إليكم، وخرِّجوا عقولكم بأدب كل زمان، واجروا مع أهله على مناهجهم تَقِلَّ مساويكم، وتسلم لكم أعراضكم، وضعوا عنكم مؤنة الخلاف، واللجاجة في المنازعة، فربما ورثت الشحناء، ونقضت هرم المودة والإخاء، فليكن المرء مقبلاً على شأنه، راضياً عن زمانه، سلماً لأهل دهره، جارياً على عادة عصره، ولا

يباينهم بالعزلة فيمقتوه، ولا يجاهرهم بالمخالفة فيعادوه، فإن موافقة الناس رشاد، ومخالفتهم ضلال وعناد.ص١٥٦

١٣١_ وفي المثل: إدمان الخلاف من أسباب التلف.١٥٦

١٣٢_ وفي المثل: الأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة؛ فمن لقي الناس بالإحسان، وعاملهم بالأخلاق الحسان _ فهو الذي يخف عليهم جانبه، وتحمد أنحاؤه ومذاهبه، ولن يعدم منهم حسن الثناء، ومن الله جزيل الجزاء.ص١٥٧

١٣٣_ إذا حويت خصال الخير أجمعها فضلاً وعاملت كل الناس بالحسنِ
لم تعدم الخير من ذي العرش تحرزه والشكر من خلقه في السر والعلنِ
ص١٥٧

١٣٤_ اعلم أن في الحكايات والأخبار سلوة للنفوس، وآداباً نافعة للرئيس والمرؤوس، والقلوب ترتاح إليها من شجونها، والآذان تصغي لسماع طُرفها وفنونها، والوحيد يأنس بمطالعتها، والجليس ينبسط بمذاكرتها ومحاضرتها، والطباع تجم بها من مللها، ويذهب عنها قلة نشاطها، وكثرة كسلها، والملوك يتحفون بها، وينال الجاه والرفعة منهم بسببها.ص١٥٨

١٣٥_ وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عليكم بطرائف الأخبار؛ فإنها من علم الملوك والسادة، وبها تنال المنزلة والحظوة منهم.

قال علي رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن.١٥٨

١٣٦ـ وقال بعض ملوك الهند لبنيه: أكثروا من النظر في الكتب، وازدادوا في كل يوم حرفاً، فإن ثلاثة لا يستوحشون في غربة: الفقيه العالم، والبطل الشجاع، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأي.ص١٥٨

١٣٧ـ وقيل للمأمون: ما ألذ الأشياء؟ قال: التنزه في عقول الناس، يعني: قراءة أقوالهم.ص١٥٨

١٣٨ـ روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم الشام على حمار، ومعه عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه على حمار، فتلقاهما معاوية في مركب له رداء، فجاوز عمر، حتى أخبر فرجع إليه، فلما قرب منه نزل، فأعرض عنه عمر وتركه يمشي، فقال له عبدالرحمن: أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين، فأقبل على معاوية فقال له: أنت صاحب المركب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وقال: ولم ذلك؟ قال: لأنا في بلاد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو، ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني انتهيت، فقال: يا معاوية، ما عاتبتك في شيء يبلغني عنك إلا تركتني منه في أضيق من رواحب الضرس، فإن كان الذي قلت حقاً فرأي أريب، وإن كان باطلاً فخدعة أديب، ولست آمرك به ولا أنهاك عنه، فقال عبدالرحمن: يا أمير المؤمنين، لَحَسَنٌ ما صدر هذا عما أوردته فيه، فقال عمر: لِحُسْنِ موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه.ص١٨٣

١٣٩ـ حكي أنه لما مرض الشافعي رضي الله عنه مرضه الذي مات منه، قال له لقومه: إذا أنا مت، فقولوا لفلان يغسلني، فلما توفي وبلغه الخبر، قال: ائتوني

بتذكرته، فجيء بها إليه، فوجد فيها على الشافعي سبعون ألف درهم ديناً لفلان وفلان، فكتبها الرجل على نفسه، وقال: هذا هو الغسل الذي أراده.ص١٨٥

١٤٠ـ مر الشافعي بسوق الحدادين بمصر، فسقط قوسه من يده، فقام رجل من دكانه، فأخذه ومسحه بكمه، وناوله إياه، فقال الشافعي رضي الله عنه لغلامه: كم معك؟ قال: سبعة دنانير، فقال له: ادفعها إليه.ص١٨٥

١٤١ـ خرج سعيد بن العاصي يوماً من عيادة مريض، فرآه شاب من قريش يمشي وحده، فماشاه حتى بلغ داره، فلما انتهى إلى باب الدار التفت إليه، فقال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة، ولكني رأيتك تمشي وحدك فأحببت أن أصل جناحك، فقال: بارك الله فيك، مكانك، ثم دخل إلى منزله فأخرج إليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم فدفعها إليه.ص١٨٥ ـ ١٨٦

١٤٢ـ مر يزيد بن المهلب بأعرابية، عقب خروجه من سجن عمر ابن عبدالعزيز، يريد البصرة فَقَرَتْهُ عنزاً، فَقَبِلها، وقال لابنه معاوية: ما معك من النفقة؟ قال: ثمانمائة دينار، فقال: ادفعها إليها، فقال ابنه: إنك تريد الرجال، ولا يكون الرجال إلا بالمال، وهذه يرضيها اليسير، وهي بعد لا تعرفك، قال: فإن كانت ترضى باليسير فإنا لن نرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف بنفسي، ادفعها إليها.ص١٨٦

١٤٣ـ شتم رجل الشعبي، فقال له: إن كنت صادقاً يغفر الله لي، وإن كنت كاذباً يغفر الله لك.ص١٩١

١٤٤_ أكب رجل من بني مرة على مالك بن أسماء يحدثه في يوم صيف، ويغمه ويثقل عليه، ثم قال: أتدري من قتلنا منكم في الجاهلية؟ قال: لا، ولكني أعرف من قتلتم منا في الإسلام، قال: ومن هم؟ قال: أنا، قتلتني اليوم بطول حديثك، وكثرة فضولك.ص١٩٢

١٤٥_ قيل للشافعي رحمه الله: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت تطلبني ثمانية: الله _تعالى_ بالفرض، ورسوله ﷺ بالسنة، والدهر بصروفه، والعيال بقُوتِهم، والحفظة بما ينطق لساني، والشيطان بالمعاصي، والنفس بالشهوات، وملك الموت بقبض روحي.ص٢٢٥

١٤٦_ قال الربيع بن خثيم: أقلوا الكلام إلا بتسع: تكبير، وتهليل، وتحميد، وسؤالك الخير، وتعوذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءة القرآن، وأن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك. ص٢٢٥

١٤٧_ قال بعض العلماء: ركّب الله _ تعالى _ الملائكة من عقل بلا شهوة، وركب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب الآدميين من كليهما، فمن غلب عقله شهوته تشبه بالملائكة، ومن غلبت شهوته عقله تشبه بالبهائم.

فالعاقل_ كل العاقل _من ميز نفسه، وعرف قدره، ونظر بعين الحقيقة، وأمعن الفكرة الصحيحة، وعلم أن جوارحه قد ركبت فيها جميع الشهوات، وأن طباعه قد حببت إليها صنوف اللذات، فلا يقدر على قسرها، ولا يتمكن من صرفها وقهرها إلا بالمجاهدة، وملك الشهوة بخطام التقوى، وما أشد وما

أصعب! ألا ترى إلى قول النبيﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**». ص٢٣٥

١٤٨ـ وقال لقمان لابنه: يا بني، أول ما أحذرك من نفسك؛ فإن لكل نفس هوى وشهوة، فإن أعطيتها شهوتها تمادت وطلبت سواها، فإن الشهوة كامنة في القلب ككمون النار في الحجر، إن قدح أورى، وإن ترك توارى.ص٢٣٥

١٤٩ـ قال أفلاطون: في الإنسان أربع طبائع: العقل، والهوى، والشهوة، والعفة، فالعقل يعاتب الهوى، والهوى يقاتل العفة، والعفة تعاتب الشهوة، والشهوة تقاتل العفة، والإنسان مسلط على مشيئته، فمن عمل خيراً جوزي به، ومن عمل شراً كوفئ عليه. ص٢٣٥

١٥٠ـ وقال سعيد بن جبير لابنه: يا بني إني أوصيك بوصية إن لم تحفظها مني كنت جديراً أن لا تحفظها من غيري، يا بني: أظهر للناس الجميل، وإياك وطلب الحاجة؛ فإنه فقر حاضر، وإذا صليت فصل صلاة مودع، وأنت ترى أن لا تصلي بعدها أبداً، وإن استطعت أن تكون غداً خيراً منك أمس فافعل، وإياك أن تيأس عن شيء أتى الله منه خيراً.ص٢٥١

١٥١ـ وقال بعض الحكماء في وصية: إذا أعجبك ما تواصفه الناس من محاسنك فانظر فيما بطن من مساويك، ولتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح الناس لك.ص٢٦٣

١٥٢ـ وقال ابن عباسرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يزهدنك في المعروف كفر من كفره؛ فإنه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه، وإني ـ والله ـ ما رأيت أحداً أسعفته في حاجة

إلا أضاء ما بيني وبينه، ولا رأيت أحداً رددته عن حاجة إلا أظلم ما بيني وبينه.ص٢٦٤ _ ٢٦٥

١٥٣_ وأوصى رجل ابنه، فقال له: يا بني، إذا كنت في قوم فدار بينهم تدبيراً، فلا تعجل بالجواب قبل أن تعرف ما عندهم، ولا تتكبر عن متابعتهم إذا ظهر لك الحق؛ فإن المتابعة على الصواب أحسن من الابتداء بالخطأ.ص٢٦٦

١٥٤_ واعلم أن الشهوات حلوة الموارد، مرة المصادر.ص٢٦٩

١٥٥_ ليس الظريفُ بكاملٍ في ظرفهِ حتى يكونَ عن الحرامِ عفيفا
فإذا تورَّعَ عن محارمِ ربهِ فهناكَ يدعى في الأنامِ ظريفا

ص٢٧٢

١٥٦_ لا تمازح حليماً ولا سفيهاً؛ فإن الحليم يقليك، والسفيه يؤذيك.ص٢٧٨

١٥٧_ واعلم أن المراء يمرض قلبك، ويضعف رأيك، ويزرى بمروءتك عند جلسائك، ويفسد الصداقة القديمة، وفي ذلك قال الشاعر:

فإياك إياك المراء فإنه إلى الشر دعَّاء وللشر جالب

ص٢٧٨

١٥٨_ إذا أتيت بلد أهلها على غير ما تعرف، فاترك كثيراً مما كنت تعرف، وخذ بما يعرفون؛ فإن ذلك من حسن المداراة، وكثير من دارى فلم يسلم فكيف بمن لم يدار؟. ص٢٧٩

ثامناً : نقولات مختارة من كتاب:

أدب الطلب للإمام محمد الشوكاني ١٢٥٠هـ

ـ «**نبذة عن المؤلف**» :

هو الإمام القاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني ، المولود عام ١١٧٣هـ ، والمتوفى عام ١٢٥٠هـ.

كان رحمه الله من العلماء المتفننين ، فقد كان مفسراً ، ومحدثاً ، وفقيهاً ، وأصولياً ، ومؤرخاً ، وشاعراً ، وأديباً ، ومحققاً ، وناقداً ، إلى غير ذلك من الأوصاف التي أطلقها عليه مترجموه.

ولد وعاش في اليمن ، وتلقى العلم على علماء بلده ، وساعده على ذلك تشجيع والده علي بن محمد الشوكاني ت١٢١١هـ؛ فقد هيأ له كل الوسائل اللازمة للتفرغ لطلب العلم؛ فجنَّبه هم التفكير والبحث في أسباب المعيشة.

وبعد أن انتهى الشوكاني من دراسته على أيدي شيوخه ، واستوفى بذلك جميع ما عندهم ـ تفرغ للتدريس ، والبحث ، والتأليف ، والتعليم ، والإفتاء ، والقضاء ، والإشراف على إدارة الشؤون الخارجية لليمن؛ فقد كان يطلع على المراسلات الخارجية الموجهة إلى أئمة اليمن من الزعماء ، ورؤساء الدول ويتولى الرد عليها باسمه ، أو باسم الأئمة الذين عاصرهم.

وكان ذا همة ، ودأب ، ونهم في طلب العم.

وكان يعد في طليعة المجددين في عصره؛ حيث نهض بالعقول ، وسعى في تخليصها من أسر الجمود والتقليد.

وكان ذا خلق فاضل، وعزة نفس، وحب للخير، وحرص على نشر العلم.

أما مؤلفاته فكثيرة متنوعة منها: تفسيره المعروف بـ (فتح القدير)، ومنها البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وإرشاد الفحول، والسيل الجرار وغيرها.

ومنها هذا الكتاب: أدب الطلب ومنتهى الأرب.

ـ «**تعريف بالكتاب**» :

هذا الكتاب يعد أهم مؤلفات الشوكاني رحمه الله لأنه ـ رغم صغر حجمه ـ يفصح عن شخصية الشوكاني عالم موسوعي، ومجتهد مستقل، ومجدد بارع يتمتع بموهبة فذة، وبمقدرة كبيرة على العطاء والإبداع؛ إذ هو نابع من خلاصة تجربته العلمية الثرية كطالب، ومدرس، وقاض، ومجتهد كما أنه نابع عن تطلعاته ونزعته التجديدية والإصلاحية.

وهذا الكتاب يعد من أهم، الكتب التربوية، التي تعنى بطلب العلم، ومناهجه، وآداب أهله، وما جرى مجرى ذلك.

وقد عني أهل العلم بهذا الكتاب منذ صدور طبعته الأولى من مركز الدراسات والبحوث اليمنية بصنعاء عام ١٩٧٩م بتحقيق الأستاذ عبدالله محمد الحبشي.

أما الطبعة التي بين أيدينا فهي الطبعة الأولى من تحقيق ودراسة الأستاذ عبدالله يحيى السريحي.

وقد اعتنى بالكتاب عناية فائقة؛ حيث قدم بدراسة وافية عن الشوكاني وعن كتابه هذا.

ولقد جاء الكتاب في مجلد واحد في ٢٩٤ صفحة، وهو من مطبوعات دار ابن حزم ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م بيروت ـ لبنان ـ.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : **قال** رَحِمَهُ اللهُ :

١ـ فأول ما على طالب العلم أن يحسن نيته، ويصلح طويته، ويتصور أن هذا العمل الذي قصد له، والأمر الذي أراده هو الشريعة التي شرعها الله ـ سبحانه ـ لعباده، وبعث بها رسله، وأنزل بها كتبه، ويجرد نفسه عن أن يشوب ذلك بمقصد من مقاصد الدنيا، أو يخلطه بما يكدره من الإرادات التي ليست منه، كمن يريد به الظفر بشيء من المال أو الوصول إلى نوع من الشرف أو البلوغ إلى رئاسة من رئاسات الدنيا، أو جاه يحصِّله به؛ فإن العلم طيب، لا يقبل غيره، ولا يحتمل الشركةَ.

والروائحُ الخبيثةُ إذا لم تغلب على الروائح الطيبة ـ فأقل الأحوال أن تساويها وبمجرد هذه المساواة لا يتبقى للطيب رائحة.

والماءُ الصافيْ العذبُ الذي يستلذه شاربه، كما يكدره الشيء اليسير من الماء المالح فضلاً عن غير الماء من القاذورات، بل يُنَغِّص لذته مجرد وجود القذاة فيه ووقوع الذباب عليه، هذا على فرض أن مجرد تشريك العلم مع غيره له حكم هذه المحسوسات وهيهات ذاك؛ فإن من أراد أن يجمع في طلبه العلم بين قصد الدنيا والآخرة فقد أراد الشطط، وغلط أقبح الغلط؛ فإن طلب العلم من أشرف أنواع العبادة وأجلها وأعلاها، وقد قال الله سبحانه: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ البينة ٥.

فقيَّد الأمر بالعبادة بالإخلاص الذي هو روحها، وصح عن رسول الله ﷺ حديث: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى**» .ص٨٢

٢ـ فإن وطنت نفسك أيها الطالب، على الإنصاف وعدم التعصب لمذهب من المذاهب، ولا لعالم من العلماء، بل جعلت الناس جميعاً بمنزلة واحدة في كونهم منتمين إلى الشريعة، محكوماً عليهم بها لا يجدوا لأنفسهم عنها مخرجاً، ولا يستطيعون متحولاً، فضلاً عن أن يرتقوا إلى ما هو فوق ذلك من كونه يجب على أحد من الأمة العمل على رأي واحد منهم، أو يلزمه تقليده، وقبول قوله ـ فقد فزت بأعظم فوائد العلم، وربحت بأنفس فرائده.

ولأمر ما جعل ـصلى الله عليه وآله وسلمـ المنصف أعلم الناس، وإن كان مقصراً؛ فإنه أخرج الحاكم في المستدرك، وصححه مرفوعاً «**أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس، وإن كان مقصراً في العمل، وإن كان يزحف على أسته**».

هكذا في حفظي؛ فليراجع المستدرك؛ فانظر كيف جعل صلى الله عليه وآله وسلم المنصف أعلم الناس، وجعل ذلك هو الخصلة الموجبة للأعلمية، ولم يعتبر غيرها.ص٨٩ ـ ٩٠.

٣ـ ومن جملة الأسباب التي يتسبب عنها ترك الإنصاف، ويصدر عنها البعد عن الحق، وكتم الحجة وعدم ما أوجبه الله من البيان: حب الشرف والمال اللذين هما أعدى على الإنسان من ذئبين ضاريين، كما وصف ذلك رسول الله ﷺ.ص١٠٦

٤ـ ومن جملة الأسباب التي يتسبب عنها ترك الإنصاف، وكتم الحق، وغمط الصواب ـ ما يقع بين أهل العلم من الجدال والمراء؛ فإن الرجل قد يكون له بصيرة، وحسن إدراك، ومعرفة بالحق، ورغوب إليه، فيخطئ في المناظرة،

ويحمله الهوى، ومحبة الغلب، وطلب الظهور على التصميم على مقاله، وتصحيح خطئه، وتقويم معوجِّه بالجدال والمراء.

وهذه الذريعة الإبليسية، والدسيسة الشيطانية قد وقع بها من وقع في مهاوٍ من التعصبات، ومزالق من التعسفات عظيمةِ الخطر، مخوفة العاقبة.

وقد شاهدنا من هذا الجنس ما يقضي منه العجب؛ فإن بعض من يسلك هذا المسلك لا يجاوز ذلك إلى الحلف بالإيمان على حقيقة ما قاله، وصواب ما ذهب إليه، وكثيراً منهم يعترف بعد أن تذهب عنه سورة الغضب وتزول عنه نزوة الشيطان بأنه فعل ذلك تعمداً مع علمه بأن الذي قاله غير صواب.

وقد وقع مع جماعة من السلف من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحَصر وصار ذلك مذاهب تروى، وأقوال تحكى كما يعرف ذلك من يعرفه.ص١١٠ _١١١.

٥_ ومن الأسباب المقتضية للتعصب: أن يكون بعض سلف المشتغل بالعلم قد قال بقول، ومال إلى رأي؛ فيأتي هذا الذي جاء بعده؛ فيحمله حب القرابة على الذهاب إلى ذلك المذهب والقول بذلك القول، وإن كان يعلم أنه خطأ، وأقل الأحوال إذا لم يذهب إليه أن يقول فيه: إنه صحيح، ويتطلب له الحجج، ويبحث عما يقويه، وإن كان بمكان من الضعف، ومحل من السقوط، وليس له في ذلك حظ ولا معه فائدة إلا مجرد المباهاة لمن يعرفه، والتزين لأصحابه بأنه في العلم مُعْرِقٌ، وأن بيته قديم فيه.

ولهذا ترى كثيراً منهم يستكثر من: قال جدُّنا، قال والدُنا، اختار كذا، صنع كذا، فعل كذا.

وهذا لاشك أن الطباع البشرية تميل إليه ، ولا سيما طبائع العرب؛ فإن الفخر بالأنساب ، والتحدث بما كان للسلف من الأحساب يجدون فيه من اللذة ما لا يجدونه في تعدد مناقب أنفسهم، ويزداد هذا بزيادة شرف النفس، وكرم العنصر، ونبالة الآباء.

ولكن ليس من المحمود أن يبلغ بصاحبه إلى التعصب في الدين ، وتأثير الباطل على الحق؛ فإن اللذة التي يطلبها ، والشرف الذي يريده قد حصل له بكون[١] من سلفه ذلك العالم ، ولا يضيره أن يترك التعصب له ، ولا يمحق عليه شرفه.

بل التعصب _ مع كونه مفسداً للحظ الأخروي _ يفسد عليه أيضاً الحظ الدنيوي؛ فإنه إذا تعصَّب لسلفه بالباطل فلا بد أن يعرف كل من له فهم أنه متعصب ، وفي ذلك عليه من هدم الرفعة التي يريدها ، والمزية التي يطلبها ما هو أعظم عليه وأشد من الفائدة التي يطلبها ، بكون[٢] له قريب عالم؛ فإنه لا ينفعه صلاح غيره مع فساد نفسه.

وإذا لم يعتقد فيه السامع التعصب اعتقد بلادة الفهم، ونقصان الإدراك ، وضعف التحصيل؛ لأن الميل إلى الأقوال الباطلة ليس من شأن أهل التحقيق الذين لهم كمال إدراك ، وقوة فهم ، وفضل دراية ، وصحة رواية.

بل ذلك دأب من ليست له بصيرة نافذة ، ولا معرفة نافعة.

---

١ _ ٢_ هكذا في الأصل ، ولعلها: بكونه.

فقد حصل عليه بما تلذذ به، وارتاح إليه من ذكر شرف السلف ما حقق عند سامعه بأنه من خلف الخلف.ص١١١ ـ ١١٢.

٦ـ وبالجملة فالخاصة إذا بقي فيهم شيء من العصبية كان إرجاعهم إلى الإنصاف متيسر غير متعسر بإيراد الدليل الذي تقوم به الحجة لديهم؛ فإنهم إذا سمعوا الدليل عرفوا الحق، وإذا جادلوا وكابروا فليس ذلك عن صميم اعتقاد، ولا عن خلوص نية.

فرياضة الخاصة بإيراد الأدلة عليهم، وإقامة حجج الله، وإيضاح براهينه.

وذلك يكفي؛ فإنهم لِمَا قد عرفوه من علوم الاجتهاد، ومارسوه من الدقائق، لا يخفى عليهم الصواب، ولا يلتبس عليهم الراجح بالمرجوح، والصحيح بالسقيم، والقوي بالضعيف، والخالص بالمغشوش.ص١١٨ ـ ١١٩.

٧ـ ورياضة العامة بإرشادهم إلى التعلم، ثم بذل النفس لتعليمهم ما هو الحق في اعتقاد ذلك المعلم بعد أن صار داعياً من دعاة الحق، ومرشداً من مرشدي المسلمين، ثم ترغيبهم بما وعد الله به، وإخبارهم بما يستحقه، من فعل كفعلهم من الجزاء والأجر، ثم يجعل لهم من القدوة بأفعاله مثل ما يجعله لهم من القدوة بأقواله أو زيادة؛ فإن النفوس إلى الاقتداء بالفعَّال أسرع منها إلى الاقتداء بالقوَّال.ص١١٩

٨ـ والعقبة الكؤود، والطريق المستوعرة، والخطب الجليل، والعبء الثقيل ـ إرشادُ طبقة متوسطة بين طبقة العامة والخاصة، وهم قوم قلدوا الرجال،

وتلقنوا علم الرأي ومارسوه، حتى ظنوا أنهم بذلك قد فارقوا طبقة العامة وتميزوا عنهم.

وهم لم يتميزوا في الحقيقة عنهم، ولا فارقوهم إلا بكون جهل العامة بسيطاً وجهل هؤلاء جهلاً مركباً، وأشد هؤلاء تغييراً لفطرته، وتكديراً لخلقته أكثرهم ممارسة لعلم الرأي، وأثبتهم تمسكاً بالتقليد، وأعظمهم حرصاً عيه؛ فإن الدواء قد ينجح في أحد هؤلاء في أوائل أمره، وأما بعد طول العكوف على ذلك، والشغف به والتحفظ له، فما أبعد التأثير وما أصعب القبول؛ لأن طبائعهم مازالت تزداد كثافة بازدياد تحصيل ذلك، وتستفيد غلظة وفظاظة باستفادة ذلك، وبمقدار ولوعهم بما هم فيه، وشغفهم به تكون عداوتهم للحق، ولعلم الأدلة، وللقائمين بالحجة.

ولقد شاهدنا من هذه الطبقة ما لو سردنا بعضه لاستعظمه سامعه، واستفظعه؛ فإن غالبهم لا يتصور بعد تمرنه فيما هو فيه إلا مَنْصِباً يثب عليه، أو يتيماً يشاركه في ماله، أو أرملة يخادعها عن ملكها، أو فرصةً ينتهزها عند ملك أو قاض، فيبلغ بها إلى شيء من حطام الدنيا، ولايبقى في طبائع هؤلاء شيء من نور العلم، وهدى أهله وأخلاقهم، بل هم أشبه شيء بالجبابرة، وأهل المباشرة للمظالم، ومع هذا فهم أشد خلق الله تعصباً وتعنتاً وبُعداً من الحق، ورجوعهم إلى الحق من أبعد الأمور وأصعبها؛ لأنه لم يبق في أفهامهم فضلة لتعقّل ذلك وتدبّره، بل قد صار بعضها مستغرقاً بالرأي، وبعضها مستغرقاً بالدنيا.

فإن قلتَ: فهل بقي مطمع في أهل هذه الطبقة؟ وكيف الوصول إلى إرشادهم إلى الإنصاف وإخراجهم عن التعصب؟

قلتُ: لا مطمع إلا بتوفيق الله وهدايته؛ فإنه إذا أراد أمراً يسّر أسبابه، وسهّل طرائقه، وأحسن ما يستعمله العالم مع هؤلاء ترغيبهم في العلم، وتعظيم أمره، والإكثار من مدح علوم الاجتهاد، وأن بها يعرف أهل العلم الحق من الباطل، ويميّزون الصواب من الخطأ، وأن مجرد التقليد ليس من العلم الذي ينبغي عد صاحبه من جملة أهل العلم. ص١١٩ ـ ١٢٠

٩ـ ومن آفات التعصب الماحقة لبركة العلم أن يكون طالب العلم قد قال بقول في مسألة كما يصدر ممن يفتي، أو يصنف، أو يناظر غيره، ويشتهر ذلك القول عنه، فإنه قد يصعب عليه الرجوع عنه إلى ما يخالفه، وإن علم أنه الحق، وتبين له فساد ما قاله.ص١٤١

١٠ـ ومن الآفات المانعة عن الرجوع إلى الحق أن يكون المتكلم بالحق حدث السن بالنسبة إلى من يناظره، أو قليل العلم أو الشهرة في الناس، والآخر بعكس ذلك؛ فإنه قد تحمله حمية الجاهلية والعصبية الشيطانية على التمسك بالباطل؛ أنفةً منه عن الرجوع إلى قول من هو أصغر منه سناً، أو أقل منه علماً، أو أخفى شهرةً؛ ظناً منه أن في ذلك عليه ما يحط منه، وينقص ما هو فيه.

وهذا الظن فاسد؛ فإن الحط والنقص إنما هو في التصميم على الباطل، والعلوّ والشرف في الرجوع إلى الحق بيد من كان وعلى أي وجه حصل. ص١٤٢ـ١٤٤.

١١ـ وبالجملة فالأسباب المانعة من الإنصاف لا تخفى على الفَطِن، وفي بعضها دقّة تحتاج إلى تيقظ وتدبر، وتتفق في كثير من الحالات لأهل العلم

والفهم والإنصاف، فالمعيار الذي لا يزيغ أن يكون طالب العلم مع الدليل في جميع موارده ومصادره لا يثنيه عنه شيء، ولا يحول بينه وبينه حائل.ص١٤٣

١٢_ واعلم أنه كما يتسبب عن التعصب محق بركة العلم، وذهاب رونقه، وزوال ما يترتب عليه من الثواب_ كذلك يترتب عليه من الفتن المفضية إلى سفك الدماء وهتك الحرم، وتمزيق الأعراض، واستحلال ما هو في عصمة الشرع ما لا يخفى على عاقل، وقد لا يخلو عصر من العصور، ولا قطر من الأقطار من وقوع ذلك.ص١٤٥

١٣_ ومن الأسباب المانعة من الإنصاف ما يقع من المنافسة بين المتقاربين في الفضائل، أو في الرئاسة الدينية، أو الدنيوية؛ فإنه إذا نفخ الشيطان في أنفهما، وترقَّت المنافسة بلغت إلى حد يحمل كل واحد منهما على أن يرد ما جاء به الآخر إذا تمكن من ذلك وإن كان صحيحاً جارياً على منهج الصواب.

وقد رأينا وسمعنا من هذا القبيل عجائب صنع فيها جماعة من أهل العلم صنيع أهل الطاغوت، وردوا ما جاء به بعضهم من الحق، وقابلوه بالجدال الباطل والمراء القاتل.ص١٧٣

١٤_ وينبغي لمن كان صادق الرغبة، قوي الفهم، ثاقب النظر، عزيز النفس، شهم الطبع، عالي الهمة، سامي الغريزة _ أن لا يرضى لنفسه بالدون، ولا يقنع بما دون الغاية، ولا يقعد عن الجد والاجتهاد المُبلِّغين له إلى أعلى ما يراد، وأرفع ما يستفاد؛ فإن النفوس الأبية، والهمم العلية لا ترضى بدون الغاية في المطالب الدنيوية من جاه أو مال أو رئاسة أو صناعة أو حرفة حتى قال قائلهم:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

وقال آخر مشيراً إلى هذا المعنى:

إذا ما لم تكن ملكاً مطاعاً فكن عبداً لخالقه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعاً كما تهواه فاتركها جميعا
هما شيئان من ملك ونسك ينيلان الفتى شرفاً رفيعا

وقال آخر:

فإما مكاناً يضرب النجم دونه سرادقه أو باكياً لحمام

وقد ورد هذا المعنى كثيراً في النظم والنثر، وهو المطلب الذي تنشط إليه الهمم الشريفة، وتقبله النفوس العلية.

وإذا كان هذا شأنهم في الأمور الدنيوية التي هي سريعة الزوال، قريبة الاضمحلال_ فكيف لا يكون ذلك من مطالب المتوجهين إلى ما هو أشرف مطلباً، وأعلى مكسباً، وأرفع مراداً، وأجل خطراً، وأعظم قدراً، وأعود نفعاً، وأتم فائدة.

وهي المطالب الدينية مع كون العلم أعلاها وأولاها بكل فضيلة، وأجلها وأكملها في حصول المقصود، وهو الخير الأخروي؛ فإن الله سبحانه قد قرن العلماء في كتابه بنفسه وملائكته فقال: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ**﴾ آل عمران:١٨.

وقصر الخشية له التي هي سبب الفوز لديه عليهم، فقال: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ فاطر:٢٨.

وأخبر عباده بأنه يرفع علماء أمته درجات، فقال: ﴿ **يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ المجادلة:١١.

وأخبرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «بأن العلماء ورثة الأنبياء».

وناهيك بهذه المزية الجليلة، والمنقبة النبيلة؛ فأكرم بنفس تطلب غاية المطالب في أشرف المكاسب، وأحبب برجل أراد من الفضائل ما لا تدانيه فضيلة، ولا تساميه منقبة، ولا تقاربه مكرمة؛ فليس بعد ما يتصوره أهل الطبقة الأولى متصور؛ فإن نالوه على الوجه الذي تصوروه، فقد ظفروا من خير العاجلة والآجلة وشرف الدنيا والآخرة بما لا يظفر به إلا من صنع صنيعهم ونال نيلهم، وبلغ مبالغهم.

وإن اخترمهم دونه مخترم، وحال بينهم وبينه حائل فقد أعذروا، وليس على من طلب جسيماً، ورام أمراً عظيماً أن منعته عنه الموانع، وصرفته عنه الصوارف من بأس، وما أحسن ما قاله الشريف الرضي الموسوي:

لابد أن أركبها صعبةً ... وقاحة تحت علام وقاح

أُجْهِدها أو تنثني بالردى ... دون الذي أملت أو بالنجاح

إما فتى نال المنى فاشتفى ... أو بطل ذاق الردى فاستراح

وكنت في أيام الطلب وعصر الشباب قد نظمت قصيدة في هذا المعنى على هذا النمط، أذكر منها الآن أبياتاً هي:

قد أتعب السير رحالي وقد آن لها بعد الوحى أن تُراح
فما يهاب العتْبَ مَنْ فاز مِنْ غايةِ أمنيَّته بالنجاح
سعى فلما ظفرت بالمنى يمينُه ألقى العصا واستراح

ص١٨٠ _ ١٨٢

١٥_ وعلى العاقل أن يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له، ولا يعدوه ما قدّره له، وأنه قد فرغ من أمر رزقه الذي فرضه الله له؛ فلا القعود يصده، ولا السعي وإتعاب النفس يوجب الوصول إلى ما لم يأذن به الله.

وهذا معلوم من الشرع قد توافقت عليه صرائح الكتاب والسنة، وتطابقت عليه الشرائع.

وإذا كان الأمر هكذا فما أحق هذا النوع العاقل من الحيوان الذي دارت رحى التكليف عليه، ونيطت أسباب الخير والشر به _ أن يشتغل بطلب ما أمره الله بطلبه، وتحصيل ما خلقه الله لتحصيله، وهو الامتثال لما أمره به من طاعته، والانتهاء عما نهاه عنه من معاصيه.

ومن أعظم ما يريده الله منه ويقربه إليه ويفوز به عنده: أن يشغل نفسه، ويستغرق أوقاته في طلب معرفة هذه الشريعة التي شرعها الله لعباده، وينفق ساعاته في تحصيل هذا الأمر الذي جاءت به رسل الله إلى عباده ونزلت به ملائكته.ص١٨٤ _ ١٨٥

١٦_ وإن لحسن النية وإخلاص العمل تأثيراً عظيماً في هذا المعنى؛ فمن تعكَّست عليه بعض أموره من طلبة العلم، أو أكْدَتْ عليه مطالبه، وتضايقت

مقاصده _ فليعلم أنه بذنبه أصيب، وبعدم إخلاصه عوقب، أو أنه أصيب بشيء من ذلك محنة له وابتلاء واختباراً؛ لينظر كيف صبره واحتماله، ثم يفيض عليه بعد ذلك من خزائن الخير ومخازن العطايا في ما لم يكن بحسبان، ولا يبلغ إليه تصور؛ فليعض على العلم بناجذه، ويشد عليه يده، ويشرح به صدره؛ فإنه لا محالة واصل إلى المنزل الذي ذكرنا، نائل للمرتبة التي بيّنا.ص١٨٦

١٧_ وما أحسن ما حكاه بعض أهل العلم عن الحكيم أفلاطون فإنه قال: الفضائل مُرة الأوائل حلوة العواقب، والرذائل حلوة الأوائل مُرة العواقب.

وقد صدق؛ فإن من شغل أوائل عمره، وعنفوان شبابه بطلب الفضائل لا بد له أن يفطم نفسه عن بعض شهواتها، ويحبسها عن الأمور التي يشتغل بها أترابه ومعارفه من الملاهي ومجالس الراحة، وشهوات الشباب، فإذا انتهى إليه ما هم فيه من تلك اللذات والخلاعات وجد في نفسه بحكم الشباب، وحداثة السن، وميل الطبع إلى ما هناك مرارة، واحتاج إلى مجاهدة يرد جامح طبعه، ومتفلت هواه ومتوثِّب نشاطه، لا يتم له إلا بإلجام شهوته بلجام الصبر، ورباطها بمربط العفة.

وكيف لا يجد مرارة الحبس للنفس من كان في زاوية من زوايا المساجد ومقصورة من مقاصر المدارس، لا ينظر إلا في دفتر ولا يتكلم إلا في فن من الفنون، ولا يتحدث إلا إلى عالم أو متعلم، وأترابه ومعارفه من قرابته وجيرانه وذوي سنه وأهل نشأته وبلده يتقلبون في رفاهة العيش ورائق القصف!؟

وإذا انضم لذلك الطالب إلى هذه المرارة الحاصلة له بعزف النفس عن شهواتها مرارة أخرى هي إعواز الحال، وضيق المكسب وحقارة الدخل _ فإنه لا بد أن يجد من المرارة المتضاعفة ما يعظم عنده موقعه، لكنه يذهب عنه ذلك قليلاً قليلاً؛ فأول عقدة تنحل عنه من عقد هذه المرارة عند أن يتصور ما يؤول به الأمر، وينتهي إليه حاله من الوصول إلى ما قد وصل إليه من يجده في عصره من العلماء، ثم تنحل عنه العقدة الثانية بفهم المباحث، وحفظ المسائل، وإدراك الدقائق؛ فإنه عند ذلك يجد من اللذة والحلاوة ما يذهب بكل مرارة، ثم إذا نال من المعارف حظاً، وأحرز منها نصيباً، ودخل في عداد أهل العلم كان متقلباً في اللذات النفسانية التي هي اللذات الحقيقية، ولا يعدم عند ذلك من اللذات الجسمانية ما هو أفضل وأحلى من اللذات التي يتقلب فيها كل من كان من أترابه.

وهو إذا وازن بين نفسه الشريفة وبين فرد من معارفه الذين لم يشتغلوا بما اشتغل به اغتبط بنفسه غاية الاغتباط، ووجد من السرور والحبور ما لا يقادر قدره. ص١٨٦ _ ١٨٧

١٨_ وكنت في أوائل أيام طلبي للعلم في سن البلوغ أو بعدها بقليل تصورت ما ذكرته هنا فقلت:

سددت الأُذْنَ عن داعي التصابي ... فلا داعٍ لدي ولا مجيبُ
وأنفقت الشبيبة غير وانٍ ... لمجد الشيب فليهن المشيب

وقلت _ أيضاً _ رامزاً إلى هذا المعنى:

وأبدي رغبة لنجود نجدٍ وشوقاً لانْتشاقي منه ريحاً
وما بسوى العقيق أقام قلبي وأضحى بين أهليه طريحاً

ص١٨٨

١٩_ وأما كون الرذائل حلوة الأوائل مُرة العواقب فَصِدْقُ هذا غير خافٍ على ذي لب؛ فإن من أرسل عنان شبابه في البطالات، وحل رابط نفسه فأجراها في ميادين اللذات _ أدرك من اللذة الجسمانية من ذلك بحسب ما يتفق له منها ولا سيما إذا كان ذا مال وجمال، ولكنها تنقضي عنه اللذة، وتفارقه هذه الحلاوة إذا تكامل عقله، ورجح فهمه، وقوي فكره؛ فإنه لا يدري عند ذلك ما يدهمه من المرارات التي منها الندامة على ما اقترفه من معاصي الله، ثم الحسرة على ما فوَّته من العمر في غير طائل، ثم الكربة على ما أنفقه من المال في غير حلّه، ولم يفز من الجميع بشيء، ولا ظفر من الكل بطائل.

وتزداد حسرته، وتتعاظم كربته إذا قاس نفسه بنفس من اشتغل بطلب المعالي من أترابه في مقتبل شبابه؛ فإنه لا يزال عند موازنة ذاته بذاته، وصفاته بصفاته في حسرات متجددة، وزفرات متصاعدة، ولا سيما إذا كان بيته في العلم طويل الدعائم، وسلفه من المتأهلين لتلك المعالي والمكارم؛ فإنه حينئذٍ تذهب عنه سكرة البطالة، وتنقشع عنه عماية الجهالة بكروب طويلة، وهموم ثقيلة، وقد فاته ما فات وقد حيل بين العير والنزوان، وحال الجريض دون القريض، وفي الصيف ضيعت اللبن؛ فانظر _ أعزك الله _ أي الرجلين أربح صفقة، وأكثر

فائدة، وأعظم عائدة؛ فقد بين الصبح لذي عينين، وعند الصباح يحمد القوم السرى.ص١٨٨ _ ١٨٩.

٢٠_ لا ينبغي لعالم أن يدين بغير مادان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ما تقتضيه أدلة الكتاب والسنة، وإبراز[1] الصفات كما جاءت، ورد علم المتشابه إلى الله سبحانه، وعدم الاعتداد بشيء من تلك القواعد المدونة في هذا العلم، المبنية على شفا جرف هار من أدلة العقل التي لا تعقل، ولا تثبت إلا بمجرد الدعاوي والافتراء على العقل بما يطابق الهوى، ولا سيما إذا كانت مخالفة لأدلة الشرع الثابتة في الكتاب والسنة؛ فإنها حينئذٍ حديث خرافة ولعبة لاعب، فلا سبيل للعباد يتوصلون به إلى معرفة ما يتعلق بالرب _ سبحانه _ وبالوعد والوعيد، والجنة والنار، والمبدأ والمعاد إلا ما جاءت به الأنبياء _ صلوات الله عليهم وسلامه _ عن الله _ سبحانه _.

وليس للعقول وصول إلى تلك الأمور، ومن زعم ذلك فقد كلف العقول ما أراحها الله منه ولم يتعبدها به، بل غاية ما تدركه، وجل ما تصل إليه هو ثبوت الخالق الباري، وأن هذه المصنوعات لها صانع، وهذه الموجودات لها موجد، وما عدا ذلك من التفاصيل التي جاءتنا في كتب الله _ عز وجل _ وعلى ألسن رسله فلا يستفاد من العقل، بل من ذلك النقل الذي منه جاءت، وإلينا به وصلت.ص١٩٨

١_ لعلها: إمرار.

٢١ـ واعلم أني عند الاشتغال بعلم الكلام وممارسة تلك المذاهب والنحل لم أزدد بها إلا حيرة ولا استفدت منها إلا العلم بأن تلك المقالات خزعبلات فقلت إذ ذاك مشيراً إلى ما استفدته من هذا العلم.

وغاية ما حصّلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين حيرة فما علم من لم يلق غير التحير
على إنني قد خضت منه غماره وما قنعت نفسي بدون التبحر

وعند هذا رميت بتلك القواعد من حالق، وطرحتها خلف الحائط، ورجعت إلى الطريقة المربوطة بأدلة الكتاب والسنة المعمودة بالأعمدة التي هي أوثق ما يعتمد عليه عباد الله، وهم الصحابة ومن جاء بعدهم من علماء الأمة المقتدين بهم، السالكين مسالكهم، فطاحت الحيرة، وانجابت ظلمة العماية، وانقشعت سحابة الجهالة، وانكشفت ستور الغواية، ولله الحمد، على أني ـ ولله الشكر ـ لم اشتغل بهذا الفن إلا بعد رسوخ القدم في أدلة الكتاب والسنة، فكنت إذا عرضت مسألة من مسائله، مبنية على غير أساس رجعت إلى ما يدفعها من علم الشرع، ويدمغ زائفها من أنوار الكتاب والسنة، ولكني كنت أقدر في نفسي أنه لو لم يكن لدي إلا تلك القواعد والمقالات فلا أجد حينئذ إلا حيرة، ولا أمشي إلا في ظلمة، ثم إذا ضربت بها وجه قائلها، ودخلت إلى تلك المسائل من الباب الذي أمر الله بالدخول منه كنت حينئذ في راحة من تلك الحيرة، وفي دعة من تلك الخزعبلات، والحمد لله رب العالمين عدد ما حمده الحامدون بكل لسان في كل زمان. ص١٩٨ ـ ١٩٩

٢٢ـ وبالجملة فالمجتهد على التحقيق : هو من يأخذ الأدلة الشرعية من مواطنها على الوجه الذي قدمناه ، ويفرض نفسه موجوداً في زمن النبوة ، وعند نزول الوحي وإن كان في آخر الزمان وكأنه لم يسبقه عالم ، ولا تقدمه مجتهد.

فإن الخطابات الشرعية تتناوله كما تناولت الصحابة من غير فرق.

وحينئذ يهون الخطب ، وتذهب الروعة التي نزلت بقلبه من الجمهور ، وتزول الهيبة التي تداخل قلوب المقصرين.ص٢٠٦

٢٣ـ ومما يزيد من أراد هذه الطبقات علواً ويفيده قوة إدراك ، وصحة فهم ، وسيلان ذهن ـ الاطلاع على أشعار فحول الشعراء ومُجِيْديهم ، والمشهورين منهم باستخراج لطائف المعاني ، ومطربات النكات مع ما يحصل له بذلك من الاقتدار على النظم ، والتصرف في فنونه؛ فقد يحتاج العالم إلى النظم لجواب ما يرد عليه من الأسئلة المنظومة ، أو المطارحات الواردة إليه من أهل العلم ، وربما ينظم في فن من الفنون لغرض من الأغراض الصحيحة؛ فإن من كان بهذه المنزلة الرفيعة من العلم إذا كان لا يقتدر على النظم كان ذلك خدشة في وجه محاسنه ، ونقصاً في كماله.

وهكذا الاستكثار من النظر في بلاغات أهل الإنشاء المشهورين بالإجادة والإحسان المتصرفين في رسالاتهم ومكاتباتهم بأفصح لسان وأبين بيان؛ فإنه ينتفع بذلك إذا احتاج إلى الإنشاء ، أو جاوب صديقاً ، أو كاتب حبيباً؛ لأنه ينبغي أن يكون كلامه على قدر علمه ، وهو إذا لم يمارس جيد النظم والنثر كان كلامه ساقطاً عن درجة الاعتبار عند أهل البلاغة ، والعلم شجرة ثمرتها الألفاظ ،

وما أقبح بالعالم المتبحر في كل فن أن يتلاعب به في النظم والنثر من لا يجاريه في علم من علومه، ويتضاحك منه من له أدنى إلمام بمستحسن الكلام ورائق النظام، ويستعين على بلوغ ما يليق به ويطابق رتبته بمثل علم العروض والقوافي، وأنفع ما في ذلك منظومة الجزاز وشروحها، وبمثل المؤلفات المدونة لذلك، وأنفع ما ينتفع به (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لابن الأثير.

ثم لا بأس على من رسخ قدمه في العلوم الشرعية أن يأخذ بطرف من فنون هي من أعظم ما يصقل الأفكار، ويصفي القرائح، ويزيد القلب سروراً، والنفس انشراحاً، كالعلم الرياضي والطبيعي والهندسة والهيئة والطب. ص٢٠٦_٢٠٧.

٢٤_ وبالجملة فالعلم لكل فن خير من الجهل به بكثير، ولاسيما من رشح نفسه للطبقة العلية، والمنزلة الرفيعة.ص٢٠٧

٢٥_ وإني لأعجب من رجل يدعي الإنصاف والمحبة للعلم، ويجري على لسانه الطعن في علم من العلوم لا يدري به، ولا يعرفه، ولا يعرف موضوعه، ولا غايته، ولا فائدته، ولا يتصوره بوجه من الوجوه.ص٢٠٨

٢٦_ وأما من كان أهلاً للعلم وفي مكان من الشرف فإنه يزداد بالعلم شرفاً إلى شرفه، ويكتسب به من حسن السِّمت وجميل التواضع ورائق الوقار وبديع الأخلاق ما يزيد علمه علواً وعرفانه تعظيماً، فيتخلق بأخلاق الأنبياء ومن يمشي على طريقهم، من عاملي العلماء وصالحي الأمة، ويعرف للعلم حقه، ويعظمه بما ينبغي من تعظيمه، فلا يكدره بالمطامع، ولا يشوبه بالخضوع لأهل

الدنيا، ولا يُجَهِّمه بالتوصل به إلى ما في يد الأغنياء فيكون عنده مخدوماً لا خادماً، ومقصوداً لا قاصداً.ص٢١٦

٢٧ـ وبين هاتين الطائفتين طائفة ثالثة، ليست من هؤلاء ولا من هؤلاء، جعلوا العلم مكسباً من مكاسب الدنيا، ومعيشة من معايش أهله لا غرض لهم فيه إلا إدراك منصب من مناصب أسلافهم، ونيل رئاسة من الرئاسات التي كانت لهم، كما نشاهده في غالب البيوت المعمورة بالقضاء أو الإفتاء أو الخطابة أو الكتابة، أو ما هو شبيه بهذه الأمور؛ فإن من كان طالباً للوصول إلى شيء من هذه الأمور، ذهب إلى مدارس العلم يتعلم ما يتأهل به لما يطلبه، وهو لا يتصور البلوغ إلى الثمرة المستفادة من العلم، والغاية الحاصلة لطالبه فيكون ذهنه كليلاً، وفهمه عليلاً، ونفسه خائرة، ونيته خاسرة، بل غاية تصوره ومعظم فكرته في اقتناص المنصب والوصول إليه، فيخدم في مدة طلبه واشتغاله أهل المناصب ومن يرجو منهم الإعانة على بلوغ مراده أكثر مما يخدم العلم، ويتردد إلى أبوابهم ويتعثر في مجالسهم، ويذوق به من الإهانة ما فيه أعظم مرارة ويتجرع من الغصص ما يصغر قدر الدنيا بالنسبة إليه.

فإذا نال ذلك المنصب ضرب بالدفاتر وجه الحائط، وألقاها خلف السور لعدم الباعث عليها من جهة نفسه والمُنشِّط على العلم والمرغب فيه.ص٢١٦ ـ ٢١٧

٢٨ـ ومن هذه الحيثية تنازل منصب العلم، وتهاون الناس به؛ لأنهم يرون رجلاً قد لبس لباس أهل العلم، وتزيَّا بزيهم، وحضر مجالسهم، ثم ذهب إلى مجالس أهل الدنيا ومن لهم قدرة على إيصال أهل الأعمال الدنيوية إليها من

وزير أو أمير، فتصاغر لهم، وتذلَّل، وتهاون، وتحقر، حتى يصير في عداد خدمهم ومن هو في أبوابهم.ص٢١٨

٢٩_ ولا أقول: إن أهل العلم العارفين به المطلعين على أسراره يمنعون أنفسهم من المناصب الدينية، وكيف أقول بهذا وهذه المناصب إذا لم تربط بهم ضاعت، وإذا لم يدخل فيها الأخيار تتابع فيها الأشرار، وإذا لم يقم بها أهل العلم قام بها أهل الجهل، وإذا أدبر عنها أهل الورع أقبل إليها أهل الجور؟! وكيف أقول هذا وأهل العلم هم المأمورون بالحكم بين الناس بالحق والعدل والقسط، وما أنزل الله وما أراهم الله، والقيام بين الناس بحججه، والتبليغ لأحكامه، وتذكيرهم بما أمر الله بالتذكير به وإرشادهم إلى ما أرشدهم الله إليه، ولأهل القضاء والإفتاء ونحوهما من هذه الأمور أوفر نصيب وأكبر حظ؟!.

ولكني أقول: إنه ينبغي لطالب العلم أن يطلبه كما ينبغي، ويتعلمه على الوجه الذي يريده الله منه، معتقداً أنه أعلى أمور الدين والدنيا، راجياً أن ينفع به عباد الله بعد الوصول إلى الفائدة منه.

ومن جملة النفع إذا احتاج إليه الملوك وأهل الدنيا أن يلي منصباً من المناصب، فطلبوا منه ذلك، وعوَّلوا عليه في الإجابة معترفين بحق العلم منقادين إلى ما يوجبه الشرع معظمين لما أوجب الله تعظيمه، وكان قد بلغ إلى منزلة في العلم تصلح ذلك المنصب، وشهد له أهل العلم بكمال التأهل، وإحراز عدته _ فهذا إذا كان الحال هكذا لا يحل له أن يمتنع من الإجابة، أو يأبى من قبول ذلك؛

فإنه إذا فعل ذلك كان تاركاً لما أوجبه الله عليه من القيام بحجته، ونشر أحكامه، وإرشاد عباده إلى معالمه، ونهيهم عن تجاوز حدوده.

ولا شك أن ذلك من أوجب الواجبات على أهل العلم وأهم المهمات.

ولو جاز ذلك لمن طلب منهم وعُوِّل عليه لجاز لغيره من أهل العلم أن يصنع كصنعه، ويسلك مسلكه؛ فتتعطل معاهد الشرع، وتذهب رسومه «ويتخذ الناس رؤساء جهالاً يقضون بغير علم فيضلون ويضلون» وذلك من علامات القيامة، وأشراط الساعة_ كما ورد به الخبر الصحيح_.ص٢١٩ _ ٢٢٠

٣٠_ وبالجملة: فمن كان قاصداً إلى علم من العلوم كان عليه أن يتوصل إليه بالمؤلفات المشهورة بنفع من اشتغل بها، المحررة أحسن تحرير، المهذبة أبلغ تهذيب.ص٢٢٧

٣١_ فالعالم المرتاض بما جاءنا عن الشارع، الذي بعثه الله _ تعالى _ متمماً لمكارم الأخلاق _ إذا أخذ نفسه في تعليم العباد وإرشادهم إلى الحق، وجَذْبهم عن الباطل، ودَفْعهم عن البدع، والأخذ بحجزهم عن كل مزلقة من المزالق ومدحضة من المداحض، بالأخلاق النبوية، والشمائل المصطفوية الواردة في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فيَسَّر ولم يعسر، وبشر ولم ينفر، وأرشد إلى ائتلاف القلوب واجتماعها، ونهى عن التفرق والاختلاف، وجعل غاية همه وأقصى رغبته جلب المصالح الدينية للعباد ودفع المفاسد عنهم _ كان من أنفع دعاة المسلمين، وأنجع الحاملين لحجج رب العالمين، وانجذبت له القلوب، ومالت إليه الأنفس، وتذلل له الصعب، وتسهل عليه الوعر، وانقلب له

المتعصب منصفاً، والمبتدع متسنناً، ورغب في الخير من لم يكن يرغب فيه، ومال إلى الكتاب والسنة من كان يميل عنهما، وتردى بأثواب الرواية من كان متجلبباً بالرأي، ومشى في رياض الاجتهاد واقتطف من طيب ثمراته، واستنشق من عابق رياحينه من كان معتقلاً في سجن التقليد، مكبلاً بالقيل والقال، مكتوفاً بآراء الرجال.ص٢٣١ _ ٢٣٢

٣٢_ ومن جملة ما ينبغي له تصوره، ويعينه استحضاره أن يعلم أن هذه الشريعة المباركة هي ما اشتمل عليه الكتاب والسنة من الأوامر والنواهي، والترغيبات والتنفيرات، وسائر ما له مدخل في التكليف، من غير قصد إلى التعمية والألغاز، ولا إرادة لغير ما يفيده الظاهر، ويدل عليه التركيب ويفهمه أهل اللسان العربي؛ فمن زعم أن حرفاً من حروف الكتاب والسنة لا يراد به المعنى الحقيقي والمدلول الواضح فقد زعم على الله ورسوله زعماً يخالف اللفظ الذي جاءنا عنهما، فإن كان ذلك لمسوغ شرعي تتوقف عليه الصحة الشرعية أو العقلية التي يتفق العقلاء عليها، لا مجرد ما يدعيه أهل المذاهب والنحل على العقل، مطابقاً لما قد حببه إليهم التعصب، وأدناه من عقولهم البعد عن الإنصاف _ فلا بأس بذلك، وإلا فدعوى التجوز مردودة مضروب بها في وجه صاحبها. ص٢٣٥_٢٣٦

٣٣_ ومن جملة ما يستعين به على الحق، ويأمن معه من الدخول في الباطل وهو لا يشعر أن يقرر عند نفسه أن هذه الشريعة لما كانت من عند عالم الغيب والشهادة، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويعلم ما تكن الصدور

وتخفيه الضمائر، ويحول بين المرء وقلبه _ كانت المخادعة بالحيل الباطلة، والتخلص مما طلبه بالوسائل الفاسدة، من أعظم المعاصي له، وأقبح التجاري[١] عليه.

وجميع هذه الحيل التي دوَّنها أهل الرأي هي ضد لما شرعه، وعناد له، ومراوغة لأحكامه، ومجادلة باطلة لما جاء في كتابه وسنة رسوله.

ومن تفكر في الأمر كما ينبغي، وتدبره كما يجب اقشعر له جلده، ووقف عنده شعره؛ فإن هذا الذي وضع للعباد هذه الحيل كأنه يقول لهم هذا الحكم الذي أوجبه الله عليكم أو حرمه قد وجدت لكم عنه مخلصاً، ومنه متحولاً بذهني الدقيق وفكري العميق، هو كذا وكذا.

فهذا المخذول قد بلغ من التجري على الله _ تعالى _ مبلغاً يتقاصر عنه الوصف؛ لأنه ذهب يعانده ويضاد ما تعبدنا به بمجرد رأيه الفايل، وتخيله الباطل مقراً على نفسه بقبيح صنعه، وأنه جاء بما يريح العباد من الحكم الشرعي، فإن كان مع هذا معتقداً أن ذلك التحيل الذي جاء به يحلل الحرام ويحرم الحلال _ فهو _ مع كذبه على الله وافترائه على شريعته _ قد ضم ذلك إلى ما يستلزم أنه يدعي لنفسه أن يشرع للعباد من عند نفسه غير ما شرعه لهم، وذلك ما يكون إلا لله _سبحانه_ فإن كان هذا المخذول يدعي لنفسه الألوهية مع الله _سبحانه_ فحسبك من شرٍّ سماعُه.

١_ لعلها: التجري.

وإن كان لا يدعي لنفسه ذلك فيقال له: ما بالك تصنع هذا الصنع؟ وأي أمر ألجاك إليه؟ وأوقعك فيه؟

فإن قال: رأيت الله ـ عز وجل ـ قد صنع مثل هذا في قصة أيوب، وصنعه رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في المريض الذي زنى.

فيقال له: ما أنت وهذا؟ لا كثر الله في أهل العلم من أمثالك، ومن أنت حتى تجعل لنفسك ما جعله الله لنفسه؟ فلو كان هذا الأمر الفظيع سائغاً لأحد من عباد الله لكان لهم أن يشرعوا كما شرع، وينسخوا من أحكام الدين ما شاءوا كما نسخ.

ثم أي جامع بين هذه أو بين ما شرعه الله من ذلك؟ فإنه مجرد خروج من مأثم، وتحلل من يمين قد شرع الله ـ تعالى ـ فيها إتيان الذي هو خير كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة، حتى ثبت في الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حلف على ذلك فقال: «**والله لا أحلف على شيء فأرى غيره خيراً منه إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني**».

فأين هذا مما يصنعه أسراء التقليد من الكذب على الله ـ تعالى ـ وعلى شريعته وعلى عباده.ص٢٣٧ـ٢٣٨

٣٤ـ ومن جملة هذه الوصايا الطاغوتية والنذور الشيطانية، ما يفعله كثير من الناس من النذور والوصايا على قبور الأموات؛ فإنه لا مقصد لهم بذلك إلا استجلاب الخير، واستدفاع الشر من صاحب القبر، وهو قد صار بين أطباق الثرى، يعجز عن نفع نفسه فضلاً عن نفع غيره؛ فلا يصح شيء من ذلك، بل

يتوجَّب على أهل الولايات صرفه في مصالح المسلمين، ويعرِّفون الناس بقبح ما يصنعونه من ذلك، وأنه من الأمور التي لا يحل اعتقادها، وأن الضر والنفع واستجلاب الخير واستدفاع الشر بيد الله ـ عز وجل ـ ليس لغيره فيه حكم، ولا له عليه اقتدار.

فإن رجعوا عن ذلك وتابوا وإلا انتقل صاحب الولاية معهم إلى ما هو أشد من ذلك، ولا يدعهم حتى يتوبوا.

وهكذا ما يقع من الأوقاف على القبور؛ فإنها من الحُبَس الشيطانية، والدلس الطاغوتية.

ولا يحل تقرير شيء منها ولا السكوت عنه، بل صرفها في مصالح المسلمين من أهم الأمور وأوجبها؛ فإن في عدم إنكارها وإبطالها مفسدة عظيمة تنشأ عنها الاعتقادات الباطلة، المفضية بصاحبها إلى نوع من أنواع الشرك وهو لا يشعر. ص٢٤٥ـ ٢٤٦

تاسعاً: نقولات مختارة من كتاب:

مناهج الشرف للشيخ محمد الخضر حسين ١٢٩٣ـ ١٣٧٧ هـ

ـ «**تعريف بالكتاب**»:

هذا الكتاب للشيخ العلامة محمد الخضر حسين

وقد مرت ترجمته في المجموعة الأولى من هذا المنتقى.

وقد سمى المؤلف رحمه الله كتابه هذا: (مناهج الشرف).

وهذا الكتاب طريف في مسماه وفي مضمونه.

ومؤلفه ممن عرف بالعلم، والأدب، والتبحر في علوم الشريعة واللغة، والتواريخ، والاجتماع، وغيرها.

كما أن له أسلوباً مميزاً أخّاذاً يتجلى في شتى مؤلفاته، ومنها هذا الكتاب الذي بين أيدينا الذي طبع للمرة الأولى في مطبعة الترقي بدمشق في جمادى الثانية١٣٣١، ثم أعيدت طباعته مراراً.

والطبعة التي بين أيدينا من مطبوعات الدار الحسينية للكتاب ط٤، ١٤١٣ هـ.

وقد اعتنى بها ابن أخي المؤلف الأستاذ علي الرضا الحسيني.

أما موضوعات هذا الكتاب فتدور حول: معنى الشرف، ومناهجه، والتفاضل فيه، وشرف الإنسان، والقوة العاقلة، وفضيلة العلم، وأدب النفس، وفضيلة الإرادة، ومزية الاستطاعة، وفضيلة العمل، ودلائل الشرف، ومظاهر التشريف.

وقد استنار في هذه الرسالة بهدي الشرع، وما ورد عن السلف الصالح رضوان الله عليهم، وما جاء في أقوال الحكماء.

والحقيقة أن هذا الكتاب ماتع في بابه، رائع في أسلوبه، يحار فيه من يريد انتقاء جمل منه، فيكاد يأخذه برمته.

الكتاب يقع في ٨٢ صفحة من القطع الصغير.

ـ «النقولات المنتقاة» : قال رَحِمَهُ اللَّهُ :

١ـ أما بعد: فإن معنى الشرف ومناهجه من أجمل الوجوه التي ينظر فيها الباحث عن حقائق الأشياء وأسرارها، وأعز ما يباكر إلى اجتناء معرفته قبل أن يدرج في حياته الاجتماعية ويسابق في مضمارها، وليست هذه المعرفة دانية القطوف، فيتناولها كل باع، من غير أن يفتقر في رسوخها إلى تحرير في العبارة واتساع، فإنك ترى كثيراً من الناس لم يستنبطوا المعنى الذي يضمه الشرف تحت اسمه، ولم يميزوا بينه وبين ما لا يضارعه في وسمه، ولا يدخل معه في رسمه. ص٧

٢ـ تتشعب مداركهم في ذلك بحسب اختلاف أذواقهم وما يلائم طبائعهم، فربما ظنوا الرذيلة فضيلة؛ فأعنقوا إليها، أو حسبوا الفضيلة في قبيل ما يترفع عنه من الدنايا؛ فاعتزلوا ساحتها، وشددوا النكير على من احتفظ بها.

ونشأ عن هذا تطرفهم في مقام الحكم بالتفاضل بين الرجلين، إلى أن يذكر بعضهم في نعوت الشرف ما يعده غيرُه خسةً أو لاغية. ص٧ ـ ٨

٣ـ هذا ما بعثني على أن أبحث في هذا الغرض، مستمداً في تحقيقه من دلائل الشريعة المقدسة، وسيرة علمائها الراشدين؛ فإن الإسلام لم يلق بهذا المعنى في يد العادات والأذواق، فَتُلْبِسُ ثوب الشرف من تشاء، وتنزعه عمن تشاء، بل أقام له قواعد، ورسم له معالم، من تخطى حدودها، وبنى على غير أساسها، كان في نظره سافلاً وضيعاً. ص٨

٤ـ وإذا تقصينا أثر ما يعد من أوضاع الشرف في عادات الأمم، واعتبرناه بنظر الإسلام، وجدناه على أربعة وجوه:

أحدها: ما وافق الشرع على اعتباره شرفاً في نفسه، فأثنى على صاحبه، ووعده بالمثوبة عليه، كسماحة اليد، وصدق اللهجة، والصبر للشدائد.

ثانيها: ما منحه التفاتة، وربط به بعض الأحكام، ولكنه يصرح بأنه غير معتد به لنفسه، وإنما هو وسيلة إلى غاية شرف، كسعة المال، أو أمارة تلوح إلى ما وراءها من فضل، كرفعة النسب.

ثالثها: ما تغاضى عنه، ولم ينزل به إلى عَدِّهِ نقيصة، كزيادة علم لا تنبني عليه فائدة علمية.

رابعها: ما أرشد إلى أنه يخدش في وجه الشرف، ويسقط بمن يرتكبه في جرف من المنكر، كبسط يد القوة إلى ما ليس بحق، ونصرة ذي القربى وإن كان مبطلاً.

قال عمرو بن الأهتم للأحنف في مجلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذ كنا نحن وأنتم في دار جاهلية، وكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكنا دماءكم، وسبينا نساءكم، واليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم.ص٨ ـ ٩

٥ـ وأما ما لا يرونه شرفاً، ولا يسوقونه في مقام المفاخرة، فعلى ضربين:

أحدها: ما كانوا يتخيلونه نقيصة تحط من مكان الرجل، فكشف الشارع عن فساد تصورهم، وأيقظهم إلى أنه يلتئم بنظام الشرف، كالاحتفاظ بالبنات، والجلوس مع المساكين.

ثانيهما: ما حسبوه غير مناف للفضيلة، وقاسوه بالأعمال التي يسعها أن تقارن كرم الهمة، فنادى عليهم بالخطأ في قياسهم، وأشعرهم بأنه مما ينقض بناء الفضل، ويبلي أطلاله، كتعاطي الربا.ص٩

٦ـ يطلق اسم الشرف، ويراد منه معنى الفضل، قال في لسان العرب: كل ما فُضِّل على شيء فقد شرف.

والفضل زيادة الشيء فيما هو كمال فيه، والشيء إنما يكمل بالوصف الذي يمتاز به، ويراد منه، كالصرامة في السيف، والعدْو في الفرس، والإضاءة في الكوكب، والحكمة في الإنسان، واستيفاء مطالب الحياة وشرائط السعادة في الأمة، وإجراء النظامات العادلة في الدولة.ص١١

٧ـ وأما الأمور المتمايزة بما هو كمال لها فإنها موضع الالتباس، فتستدعي إجالة نظر متسع، ولا يسهل وضعها في وزن مستقيم.

ومما يلقي الشبهة في تحقيق التفاضل بينها، أن الوصف الواحد قد يُعتبر في بعض الموجودات كمالاً، ويعد في غيره نقيصة، ومن هنا ترى بعض المحكَّمين في التفضيل بين أمرين، يتخذون افتراقهما في النوع عذراً يتخلصون به من القطع في المفاضلة بينهما.ص١٢

٨ـ يتفاضل البشر بحسب استعداداتهم الفطرية، وما يتهيأ لهم من وسائل الارتقاء؛ إلى رجل تصعد به محامده، حتى يسابق الملائكة في سماواتها العلى، وآخر يهوي إلى درك لو زحزح عنه إلى ما دونه التحق عند أولي البصيرة بمنازل

الأنعام، وبين هذين المرتبتين مقامات أوسع من أن يحيط بكثرتها التفصيل. ص١٢ _ ١٣

٩_ وإذا كان التفاضل في الخليقة وارداً على مقتضى الحكمة، فلا يجمُل بالرجل يأنس في نفسه المقدرة على إدراك منزلة، ولكنها دون الغاية البعيدة _ أن يحبس عِنانه، ويبقى عاكفاً في زوايا العجزة، بدعوى أنه لا يقنع إلا بالأمد الأسمى من السيادة.

ولو أخذ هذا بقبس من مراقبة أسرار الكون لأمضى عزمه، واندفع في سيره، ليبلغ إلى الغاية المستطاعة. ص١٣ _ ١٤

١٠_ وما كان ينبغي للرجل، حين تقوم له في سبيل مجده عقبات تقطع عنه وجهته_ أن يركن إلى خاطر اليأس، فينقض حبل رجائه، وينقلب إلى طبقات الأسافل، وليس له سوى أن يقف في مصارعتها حتى يكسر كعوبها، ويفت في جلمدها، فإن ما يتمخض به المستقبل، وتجري به صروف الأقدار أكبر من أن يضبطه قياس، أو تقضي عليه خواطر الإياس.ص١٤

١١_ من ضرب بنظره في سيرة رجل ممن شهدت لهم العقول الراجحة، ورفعتهم في رتب السيادة إلى السنام، وأخذ يتبصر في الأحوال التي امتاز بها عن سائر الحيوان _ فأول ما يطالعه في صحيفة آثاره عملٌ منتظم، وسيرٌ لا عوج فيه، يتحرك فتتناثر الصالحات من خلال حركاته، ويسكن فتبتهج العيون بسكينته.

وليست هذه الشؤون الظاهرة مما يعرض لأعضائه بغتة مثل ما يعرض الاختلاج للعين والارتعاش لليد، بل هي ناشئة عن قلب حاضر، ومنسوجة بإرادة ثابتة. ص١٨

١٢_ فتحرر بهذا الاستقراء: أن مدار كمال الإنسان على عقل، وعلم، وأدب، وإرادة، واستطاعة، وعمل. ص١٩

١٣_ القوة العاقلة: هي استطاعةُ النفسِ الانتفاعَ بالمعلومات عند الحاجة إليها.

ومما لا يحتمل الشبهة، أن حصص النفوس من هذه القوة متفاوتة؛ فمن الناس ذكي يقرأ من صفحات الوجوه، ولحظات العيون ما يُكِنِّه الرجل في خبايا سريرته، ومنهم غبي لا يصل إلى المعاني القريبة إلا بالعبارة الواضحة، وإعادتها عليه مرة بعد أخرى.ص٢٠

١٤_ نوه الإسلام بشأن العقل، وشمله بعناية كبيرة، ونكتفي في تقرير هذه العناية بثلاثة شواهد:

أحدها: أنه منع من تناول ما يؤثر فيه خللاً، كالمسكرات، وأغلظ القول في تحريمه.

ثانيها: ما وضعه على من ضرب شخصاً فأزال عقله من دية مبلغها ألف دينار.

ثالثها: توسيع طرق النظر أمامه، واستدعاؤه إلى التدبر في أسرار الموجودات.

رفع الإسلام مكانة العقل، وأثبته في سجل الشرف، على شرط أن يواجهه صاحبه في البحث عن مكان الحقيقة، وينافس به لإحراز العلوم النافعة.

ومما ينبهك على هذا الشرط الوثيق، قوله ـ تعالى ـ في ذم قوم حبسوا عقولهم في ظلمة الباطل، ولم يطلقوها من أسر المتابعة والجمود: ﴿ **إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ الفرقان: ٤٤.

فتمثيل حالهم بالأنعام، إنما ساقه إليهم إغفال عقولهم، وبقاؤها تائهة في أودية الجهالة، إلى أن حرموها حلاوة اليقين، وراحة الاعتقادات الراسية.

وقد مثل ـ تعالى ـ حال من نفروا عن العظة، ونأوا بجانبهم عن الإصاخة إليها بحال الحُمُر المتوحشة إذا عاينت أسداً امتلأت منه فزعاً، وطاشت عن ساحته فالتةً، فقال: ﴿ **كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ** ﴾ المدثر: ٥٠ ـ ٥١.

وفي إلحاقهم بالحمر، ووضعهم معها في قران التشبيه إيذان بأن منزلتهم في الحطّة ما برحت بإزاء منازلها، وأنَّ قُوى مداركهم لم تصعد بهم إلى مطالع الشرف قيد أنملة؛ حيث أصبحت عارية من إدراك ما فيه سعادة دائمة.

وقال ـ تعالى ـ في جملة ما قصه علينا من أقوال الضالين عن سنة هدايته: ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ** ﴾ الملك: ١٠ الآية.

فهؤلاء لم يريدوا سلب حقيقة العقل من أنفسهم بحسب الواقع، وإنما اعتبروه بمثابة المعدوم، وأطلقوا في نفيه؛ حيث لم يجتنوا به ثمرة الإيمان الواجب، ولم يستضيئوا به في البحث عن التعاليم المفيدة.ص**٢٢ ـ ٢٣**

١٥ـ يذكر بعض الناس: أن واسع العقل يكون أنكد عيشاً في هذه الحياة، ممن قصرت أنظارهم، وجمدت مداركهم، ومنهم من يقول: إنما الراحة فيها على مقدار اتساع العقل، وبعد مراميه.

وقد فك ابن حزم التعارض بين المقالين: بأن استراحة العقلاء من جهة تلقي المكاره بعزيمة ثابتة، وعدم التأثر لصدمات المصائب، بخلاف صاحب النظر الفاتر؛ فإن خاطره ينزعج لأقل بلاء ينزل بساحته.

وأما نكد عيش العاقل فمن أجل ما يشاهده من إطفاء نور الحق، والنفخ في مزمار الباطل، أو الاستماع إلى ألحانه بطرب وارتياح.

وهذا بخلاف من انطفأت بصيرته؛ فإنه لا يهمه _ بعد انتظام شؤون بيته _ أن تنهض قائمة، أوتحز أعناقها على نُصب الشهوات.ص٢٥

١٦_ إذا كانت العقول في مثال السيوف، تقطع الباطل أن يتشبث بأطراف الحقائق؛ فإن العلم ثقافها الذي يقوِّم أَوَدَها، ومِصْقَلَتُها التي تجلو أصداءها.

أترون السيف الذي احدودب متنه، أو تَكاثف الخبث على غراره، كيف يقبح منظره، وينبو عند الضراب به؟.٢٧

١٧_ كذلك العقل إذا غشيته الشبه، وانحدرت به في نواحي الضلالة، حتى التوى غصنه بالتواء شعبها، أو بقي في مستنقع من الجهالة، حتى التف عليه من سوادها حجاب كثيف _ فإنه يدنو من ذوي البصائر، فتشمئز فطرهم السليمة نفوراً منه، ويذهب إلى البحث عن الحقيقة، فلا يقع على مكامنها.ص٢٧

١٨_ وما اللسان إلا مرآة؛ تمثل خواطر العقول، وتنقل مداركها من شعور إلى شعور، والمرآة إذا تكوَّر سطحها، أو تجهّم وجه زجاجها بغبش أخذت الصور على غير نظامها، وعرضتها في أشكال غير مطابقة.

كذلك اللسان؛ إذا ألقت عليه الفهاهة أثقالها، وشدت عليه اللّكنةُ عقدتها، فإنه لا يحتفظ بما يمليه عليه الفكر من المعاني، فيضبطها من سائر حواشيها، بل يؤديها في مثال شخص حذفت بعض أعضائه، أو تخاذلت هيأته، فتصوب رأسه إلى أسفل، وتصعدت قدماه إلى أعلى.ص٢٧ ـ ٢٨

١٩ـ تتفاضل العلوم بحسب أهمية ثمرتها، أو عموم نفعها، أو قوة براهينها، أو شرف موضوعها.ص٢٨

٢٠ـ يثبت الشرف للعلم في اعتبار الإسلام، من جهة أنه يثمر عملاً نافعاً، فإذا لم يكن له أثر في عمل يشكر فإما أن يعد ضرباً من المباح، كمسائل الخلاف التي لا يترتب عليها فائدة، وإما أن يحسب فيما يصف صاحبه بوصف الحطة، كالسحر والطِّلَّسمات.ص٢٩ ـ ٣٠

٢١ـ قال الشيخ ابن عرفة في حديث «**أو عِلْمٍ ينتفع به**»: تدخل التآليف في ذلك، إذا اشتملت على فوائد زائدة، وإلا فذلك خسار للكاغد ـأي القرطاسـ.

قال الأبي: ويعني بالفائدة الزائدة على ما في الكتب السابقة عليها، وأما إذا لم يشتمل التأليف إلا على نقل ما في الكتب المتقدمة فهو الذي قال فيه خسار للكاغد، وهكذا كان يقول في مجالس التدريس: «إذا لم يكن في مجلس الدرس التقاط زيادة من الشيخ فلا فائدة في حضوري مجلسه، بل الأولى ممن حصلت له معرفة الاصطلاح، والقدرة على فهم ما في الكتب، أن ينقطع لنفسه، ويلازم النظر».

وضمّن ذلك في أبيات نظمها وهي:

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتةٌ وتقريرُ إيضاحٍ لمشكل صورةِ
وعزوُ غريبِ النقلِ أو حلُّ مقفلٍ أو اشكالٌ آبدتُه نتيجةُ فكرةِ
فَدَعْ سعيه وانظر لنفسك واجتهدْ ولا تتركن فالتركُ أقبحُ خَلَّةِ

ص٣١ _ ٣٢

٢٢_ يتعرض الكاتبون في الأخلاق إلى رسومها الفارقة بينها؛ بحيث تتمايز حقائقها ولا تختلط حدودها، والذي يعسر أحياناً إنما هو تطبيق تلك الرسوم على الأحوال الخاصة، ومعرفة أن هذا موقع الإقدام مثلاً؛ فنسمي الإحجام عنه جبناً، أو هو موقع الإحجام؛ فنسمي الإقدام عليه جرأة، وقد تلتبس بعض المواطن، فلا يدري الناظر هل يحسن فيها الترفع، فيكون التنازل ذلة، أو يليق بها التنازل، فيكون الترفع كبراً؛ فلا بد حينئذٍ من جودة الرأي، وإمعان النظر في تَعرُّف المواضع التي يصلح فيها مثل الإقدام، أو الصفح، أو البذل، أو الترفع، التي هي آثار الشجاعة، والحلم، والكرم، وعزة النفس.

وفي هذا المقام تظهر مزية التربية الخاصة، فإنها تعطي للإنسان ملكة التفرقة بين مواقع الأخلاق الفاضلة والأخلاق السافلة؛ فالأب والمؤدب يكرران على الصبي تمجيد الحلم، وعزة النفس مثلاً، ويزيدان على ذلك تنبيهه على مواقعهما حين يغضب بغير حق، أو يتنازل إلى غير أهل.ص٣٩ _ ٤٠

٢٣_ قد يمر بك في أقوال الشعراء ما يحث أو يثني على بعض الأخلاق المعروفة بالمذمة، فلا يغرنك بما يمسح عليه من زخرف الفصاحة، كقول بعضهم يأمر بالحمق:

وكن أكيس الكيسى إذا كنت فيهم وإن كنت في الحمقى فكن أحمق الحمق

فعجز هذا البيت لا يتعلق بأذيال الأدب، إلا إذا قصد به ناظمه معنى مقاومة الأحمق، ومقابلته بشدة، تدفع في أذيته إذا لم يكف في مدافعتها اللين والمجاملة.

ويماثل هذا قول ابن الرومي يمدح طبيعة الحقد:

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض

فحيث ترى حقداً على ذي إساءة فثمَّ ترى شكراً على حسن القرض

فالحقد مما اتفق العقلاء على أنه خلق ذميم؛ لأنه طبيعة احتفاظ الإنسان على الجريمة، وإمساكها على ظهر قلب؛ ليجازي بها حيث تسنح الفرصة، وإن أصلحها المجرم ببسط المعذرة أو رجاء المغفرة؛ فإذا عنى ابن الرومي من الحقد الذي عقد النسب بينه وبين الشكر عدم نسيان الإساءة لمن لا يغني في رد شكيمته الأناة وسماحة الضمير_كان شعره بمقربة من الحكمة السائرة.ص٤٠ _ ٤١

٢٤_ وقد اشتدت عناية الشريعة بالإرادة؛ فبعد أن أخذتها شرطاً في صحة الفعل، أو كماله نظرت إليها بانفرادها، ووضعتها بمقربة منه، فقدرت للنوايا الفاضلة نصيباً من المثوبة إذا لم يتمكن صاحبها من إنجاز ما عزم عليه، قالﷺ فيما روى البخاري: «**من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة**».

كما فرضت للإرادات السيئة كفلاً من العقوبة، وإن لم يعقبها أثر في الظاهر، على ما ذهب إليه عامة السلف، واستشهدوا في هذا بقوله _ تعالى _ : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ**﴾ الآية النور: ١٩، فقد بنى استحقاقهم

للعذاب الأليم على عمل قلبي، وهو محبة شيوع الفاحشة، واستدلوا بحديث: «**إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار**» فقيل: يا رسول الله، هذا القاتل، وما بال المقتول؟ قال: «**لأنه أراد قتل صاحبه**»، وفي رواية «**أما أنه كان حريصاً على قتل أخيه**» فإنه اعتبر في عِلَّة العقوبة نفس الإرادة.

وفسر هؤلاء الهم الذي ورد الحديث بعدم المؤاخذة فيه؛ على معنى حديث النفس بالفعل من غير قرار علة وتصميم. ص٤٢ ـ ٤٣

٢٥ ـ يمثِّل لك شدة العزيمة أن عبدالملك بن مروان قصد الخروج إلى بعض الحروب، فلما استعد للرحيل، وقفت له عاتكة بنت يزيد بن معاوية تستعطفه إلى التخلف وترك الخروج لموقع الحرب بنفسه؛ ظناً منها أن سلطان الهوى أشد أثراً على قلب الرجل من عزيمته، فقال لها: هيهات، أما سمعت بقول الأول:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

ص٣٤ ـ ٤٤

٢٦ـ ينبهك على التفاضل في الإرادات الحسنة، أن الرجلين قد يتماثلان في درجة الفضل، وتتحد آثارهما، ولكنك تجد أحدهما قد تمكن من الأخذ بالمكارم، وتجمعت حوله وسائل الارتقاء، حينما احتاج الآخر إلى مصارعة الموانع، وصرف الوسع في تحضير الوسائل، فإنا نقطع لعزيمة الثاني بفضل قوة هي مجهولة في همة الأول؛ إذ من الجائز أن همة الأول لا تثبت لتسوية العقبات، ولا تشد حزامها لتحصيل ما يعوزها من الوسائل المتعاصية.

قال أبو الوليد الباجي يوماً مفاخراً لابن حزم: أنا أعظم منك همة في طلب العلم؛ لأنك طلبتَه وأنت تعان عليه تسهر بمشكاة الذهب ـ يشير إلى ثروة ابن حزم وآبائه ـ وطلبتُه وأنا أسهر بقنديل بائن السوق ـ جمع ساق ـ.

فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك؛ لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال؛ رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبتُه في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرجُ به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة.

ويؤيد ابن حزم في جوابه هذا أن من تربى في مهد الترف، وأحاطت به زخارف الدنيا من كل ناحية يسكن في قلبه الحرص على اللذائذ، ويصعب عليه التخلص من شواغلها؛ فمن خلع صدره من الشغف بمناظر النعيم، والميل إلى مضاجع الراحة، وهي طوع يمينه، ثم استبدلها بالتوجه في سبيل المجد الذي لا يخلص سالكه من متاعب، واقتحام أخطار ـ فلا بد أن يكون قد ضم بين جنبيه همة سامية، وإرادة لنفس الفضيلة خالصة.ص٤٥ ـ ٤٦

٢٧ـ والإسلام يثبت الفضل في المال، من جهة أنه معونة على المشروعات العظيمة، ومطية إلى كثير من المقامات العالية، فلو أوتي رجل سعة من الثروة، فركض بها ركض الوحوش في الفلاة، ولم ينفقها إلا في ملبس فاخر، ومطعم لذيذ، أو مطية سابقة، وقصر مشيد ـ كان أحط رتبة من المسكين الذي يزيد عليه بمثقال ذرة من الخير.

قالﷺ : «**إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيراً، فنفح به يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً**» .ص٤٩

٢٨_ فنقول: إن الشارع فوض في أمر اللباس إلى حكم العادة، وما يليق بحال الإنسان، فإذا جرت العادة بلبس نوع من الثياب، وكان مستطيعاً له، فعدل إلى صنف أسفل منه أو أبلى، قبح به هذا الحال، وكره له؛ لأن بذاذة اللباس ورِّثته مما تقذفها العيون، وتنشز عنها الطباع، فتلقي بصاحبها إلى الهوان، والالتفات إليه بألحاظ الازدراء.

وهذا هو الوجه في إنكارهﷺ على الرجل في الحديث السالف، وأما الخروج عن المعتاد، والتطلع إلى ما هو أنفس وأغلى، فهو الذي رفضناه من حواشي الفضل، ونفينا أن يقفز بصاحبه درجة، قال المعري:

إذا كان في لبس الفتى شرفٌ له فما السيف إلا غمده والحمائلُ

بل تجد أكثر الناس يستخفون بمن يتعدى طور أمثاله في ملبسه، ويعدونه سفهاً في العقل، وطيشاً مع الهوى.ص٥٠

٢٩_ وتوهَّم كثير من الأدباء أن الفصاحة وصف كمال في نفسه، فإذا اتفق لهم أن يبرزوا معنى في أسلوب فصيح، قذفوه بأفواههم، ولم يبالوا أن يكون ذلك المعنى عبثاً، أو خاذلاً لحق.

ونرفع مقالنا _ هذا _ أن نسوق فيه أمثلة من منظوماتهم السخيفة، ولا سيما أشعارهم التي قلبوا فيها بعض آداب شرعية، ومدائحهم التي وقعوا بها حول الشرك بواجب الوجود[1]. ص٥٢

١_ يعني به الله _ عز وجل _ فالوجود ممكن الوجود وهو المخلوق، وواجب الوجود وهو الخالق.

٣٠_ وفي الناس من لم يتفقهوا في فضيلة الفصاحة، فإذا سمعوا ناطقاً يجهر بالعبارة، ويطلقها من لسانه بدون حبسة أدخلوه باعتقادهم في زمرة الفصحاء، دون أن ينظروا في تحقيق المطابقة بينها وبين المعاني التي قصد إفهامها.

والدرّاكة _ الذي بلغ علمه أقصى الشيء _ قد يرجِّح ذا العقدة في نطقه، حين يفرغ العبارة في عين الغرض، ويفضله عمن يرمي بكلامه المتتابع، وهو لا يصيب المفصل من المراد.ص٥٢

٣١_ وأما الوجاهة: وهي أن يحصل للرجل شأن يستهوي إليه نفوس قوم بمودة أو رهبة أو رجاء _ فتارة تكتسب باستقامة السيرة، وخلوص الطوية؛ فقد جرت سنة الله أن من صفت سريرته، وغزرت صالحاته، أحدقت إليه الضمائر الحرة، وأولته وداً وانعطافاً، وهو ما وصف الله به عيسى _ عليه السلام _ في قوله: ﴿**وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾ آل عمران: ٤٥.

وهذا الضرب من الوجاهة وصف شرف في نفسه، وإذا توسل به الوجيه إلى قضاء ما يهم الناس من المآرب كان سيادة فوق سيادة.

وتارة تدرك بحال تربي رهبة، كالقرب من ذي سلطة، أو تحدث رغبة، كثروة يطمع الطامعون أن يبلّوا صدى حاجاتهم من قطراتها، وهذا الضرب إنما يحتمله العد في مساق الفخر إذا خدم صاحبه المصلحة، وتناهى به إلى صنيع يشكر عليه.ص٥٣

٣٢_ وإذا اطلعت على أثر يقتضي البعد عن الوجاهة، فإنه مصروف إلى الحرص في طلبها، والتصنع لإحراز سمعة في المجامع الحافلة، والبلاد القاصية.

وأما إذا اندفعت همة الرجل إلى المكارم بجاذب ابتغاء الفضيلة، وطفق ذكره يتسع على حسب مساعيه المفيدة _ فذلك خير من العزلة والاختباء في زوايا الخمول.

قال _ تعالى _ فيما قصه من قول إبراهيم _ عليه السلام _ : ﴿ **وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ** ﴾ الشعراء: ٨٤، وقال في سياق أقوال لقوم صالحين: ﴿ **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً** ﴾ الفرقان: ٧٤.ص٥٣ _ ٥٤.

٣٣_ يقولون: إن الولاية معيار همم الرجال، وعدالتهم؛ فإنهم بِعَدِّها ثلاثة أصناف: فمنهم من يتمادى على سيرته الأولى، ولا ينتقل إلى حال تبعد عما عهد له في الإساءة أو الإحسان.

وبعضهم ينطوي على نفسٍ عاطفةٍ إلى الخير، فإذا جلس في منصب استعظم مكان الحقوق، وأخذ يفحص بخاطره عما يلزم اتخاذه من النظامات الكاملة بحفظها، ومتى اهتزت هذه النفس العاطفة أنبتت من التدابير المثمرة ما يبعثها مقاماً محموداً.

ومنهم من يحمل في مخبآت صدره خبائث، وقد طبع على صناعة المخاتلة والاحتيال، فيحتفظ في سيرته جهده، ويتحاشى بظاهر عرضه أن يلوث بفضيحة، فإذا قبض بيده على سلطة خلع ثوب عفته المستعار، وغشي من المخازي ما يجعله هدفاً لسهام الطاعنين.ص٥٤ _ ٥٥

٣٤_ لا يفوت الرئيس الذي يحمل النية السوداء، ويركب في المظالم مَتْنَ عمياءَ_ أن ينساق إلى ذوي نفوس حرة ينقرون له على وجه نقيصته، ويصبون في

أذنه أقوالاً تفيقه من نشوة السلطة، وتكدر عليه حلاوتها إلى مرارة، وإن ملك قوة ورجالاً، واتخذ سلاسلاً وأغلالاً.

قتل الحجاج عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، ثم أرسل إلى أمه _ أسماء بنت أبي بكر الصديق _ فأبت أن تأتيه، فانطلق يتبختر حتى دخل عليها، وقال لها: كيف رأيتِيني صنعت بعدو الله _ يعني ولدها عبدالله _ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، أَمَا إن رسول الله حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً _مهلكاً_ فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه.

فنفذ سهم هذه المقالة في فؤاده، فأفحمه وقام عنها.ص٥٥

٣٥_ العمل الفاضل ما دعا إليه منزّل الشرائع كلَّ واحد بعينه، كالعبادات، أو خاطب عليه الأمة لتقوم به طائفة منها، كالتعليم، وحماية الحقوق.

ولا يعد في محاسن الأعمال ما لا يُطَّلعُ له في دلائل الإسلام على ما يشهد باستحسانه. ص٥٩

٣٦_ وحطّ ابن خلدون من شأن التجارة، قال: لاستلزامها المكايسة في البيع والشراء، وخلقُ المكايسة بعيد عن المروءة التي تتخلق بها الملوك والأشراف، ثم ذكر ما يعرض لها من الغش والخِلابة، وتعاهد الأيمان الفاجرة.

وأنت إذا أمعنت في كلامه، واعتبرت المكايسة ضرورية للتجارة أخذت منه للتجارة حالين:

أحدهما: أن يرتكب صاحبها الغش والخلابة، وتعاهد الأيمان الكاذبة، وهي بالنظر إلى هذه الحالة نقيصة تنزع عنه ثوب المروءة، وتنزل به عن مرتبة الملوك والأشراف.

ولكن هذه الحالة غير داخلة في حقيقة التجارة، ولا هي من مقتضياتها؛ فكيف يسري نقصها إلى أصل هذه الحرفة، ويجعل سبباً لإخلالها بالمروءة اللائقة بالأشراف؟.

ثانيهما: أن يترفع التاجر عن هذه الحالة المزرية، ولا يبقى معه سوى خلق المكايسة؛ فإن عنى ابن خلدون أنه يخل بالمروءة التي يحسن التحفظ عليها في نظر الشارع _ فغير صحيح، بل هي معدودة من فروض الكفايات، كسائر الصنائع التي يتوقف عليها حياة الأمة، وقد كان أكابر الصحابة يتجرون.

وإن أراد مروءة الأشراف بحسب بعض العوائد فمحتمل، ولكنا لا نعتد من حكم العادة بالشرف، أو ما ينافيه إلا بما قامت شواهد الشرع على صحة اعتباره.ص٦١ _ ٦٢

٣٧_ وإذا وثقنا بأن الأعمال الشريفة ما حسنت في نظر الإسلام انفتح لنا في طريق العلم بمعنى الشرف سبيلان:

أحدهما: أن العمل الفاضل ما ثبت حسنه بالدلائل المبثوثة في الكتاب والسنة، المأخوذة بأفهام المجتهدين على مقتضى وضع اللغة العربية، وأساليب بلاغتها؛ فينهدم فيما بناه الزنادقة تعليمٌ انطلى تمويهُه على أعين بعض العامة؛ فاستزلهم في غواية، وهو أن هناك أحكاماً يتلقاها بعض الأخيار من تعليم

باطني؛ ليعمل بها في نفسه، أو يخلعها إن شاء على أتباعه، فيبصرون رجلاً يقلب رسوم الشريعة، ويحيد عن منهجها الصريح، ويستمرون على اعتقاد كماله؛ بزعم أن ما انتحله من الأوضاع المخالفة قد بلغ إليه بطريق غيب.

وترى كثيراً منهم يحمل في اعتقاده أن الرجل إذا ارتقى الذروة القاصية في الصلاح سقطت عنه تكاليف الشريعة، كأنهم لم يتعلموا أن رسوم الشرع من عبادات وغيرها هي الحافظة لأركان الشرف؛ فمن نبذها فقد نزع عن نفسه ثوب الكمال الإنساني، وأصبح عارياً من كل كرامة.

ثانيهما: أن العمل الذي يأمر به الإسلام، لا يحق لأحد أن يتركه ترفعاً، ويرى مباشرته له نقيصة تحط من جلالته.

وترى بعض من ينتمي إلى العلم يعتقد الخير بما يصنعه طائفة من العامة في مظهر الطاعة، ويدافع عنهم صولة المنكرين بتحريف وتأويل، ولو قلت له أدخل يدك في أيديهم، وضُمَّ صوتك إلى أصواتهم، ونقِّر على ما ينقرون، فإما أن يستفيق من غفوته، أو يعتذر بأن هذا يقبح بمثله عادة.

والذي يقطع هذه المعذرة، أن صوت العادة أضعف صدى، وأحقر من أن يسمع في تقبيح ما يُحسِّنه منزّل الشريعة، ويجعله وسيلة يبتغي بها الفوز بالمثوبة، والزلفى عنده.ص٦٢ _ ٦٣

٣٨_ يورد الواصفون لحال حياة الرجل شؤوناً تساعفه بها صروف الأقدار، ويقصدون بها الدلالة على عظم مكانه في الفضيلة، مثل صحبة العظماء؛ فقد جرت العادة أن من اتصل برجل خطير قاصداً الاستقاء من معارفه، أو الاقتداء

بسيرته _ لا يفوته أن يفيض عليه من تحقيقات علومه، أو يخلع عليه بردة من ملابس آدابه.ص٦٤

٣٩_ ومن هذا ولاية منصب عظيم، كالقضاء والإمارة والوزارة؛ فإنه يجري في الظنون أن لا يستخلص لهذه المقامات إلا ذو كفاءة، وإنما يصح الاعتماد في شرف الرجل على مجرد الولاية بدون نظر في سيرته، أو تتبع آثاره _ إذا ثبت أن تقليده بها صدر من عارف بحقائق الرجال، ذي عدالة تصده أن يوسد الأمر إلى غير أهله.ص٦٤

٤٠_ إنما يكره العلماء السكنى بالقرى وإن كانت وطناً، ويقصدون إلى الإقامة بالحواضر؛ لأن سوق العلم فيها نافقة، والحرص على التعلم بها أقوى؛ فيجد العالم من الراغبين في الاستفادة سبلاً مفتوحة، ودواعي باعثة على المطالعة والتحرير.

كان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام بدمشق، ثم خرج إلى الديار المصرية؛ لغضب الأمير إسماعيل أبي الخيش عليه، حين أنكر عليه الشيخ إعطاء بلد صيدا وقلعة الشفيف إلى الإفرنج، فلما مر بالكرك تلقاه صاحبها، وسأله الإقامة عنده، فقال له: بلدك صغير على علمي، ولما وصل إلى القاهرة عرف سلطانهم نجم الدين أيوب قيمته؛ فأكرم نزله.ص٦٦

٤١_ ويرجحون الرجل بكثرة أتباعه، ومعتقدي أفضيلته، وهذا وزن صحيح إن كان هؤلاء الأتباع من أولي الأحلام الراجحة، والألمعية المنقَّحة.

أما إذا كانوا فيمن عميت عليهم سبل السيادة، ولا فارِق عندهم بين المكارم وأضدادها _ فلا ترجح بهم صحيفته، وإن كانوا أكثر من الحصى.ص٦٦

٤٢_ وإذا اعترفوا بالفضل لرجلين: أحدهما: حاضر لديهم، والآخر لم تقع عليه أعينهم، جرى في ظنهم أن الغائب أوسع فضلاً، ورفعوه في اعتبارهم مرتبة.

ومن علل هذا أن المقررين لأحوال ذوي الفضل محادثة أو كتابة إنما يتعرضون في الغالب إلى محاسنهم، وقلما يذكرون لهم سيئة من أعمالهم؛ فإذا تلقى الإنسان ترجمة فاضل تصوره بصورة كامل خَلُصَ من كل عيب، بخلاف اعتقاده بفاضل شهد شخصه، وراقب سيرته؛ فإنه يطلع له أحوال لا يستحسنها بمقتضى ذوقه أو عادته، أو كانت مما يؤاخذ به الفضلاء، وشأنه أن يندمج في فضائلهم، وتغطي عليه محاسنهم، ومن هنا نشأت المقالة السائرة: «إن الخبر عن الغائب فوق المشاهدة».ص٦٦ _ ٦٧

٤٣_ ومن هذا حسن التركيب، وجمال المنظر، فلا يعد في نفس الفضيلة، وإنما هو كالعلامة الرامزة إلى حسن الخلق، فإنه _ كما يقول الحكماء _: دال على اعتدال المزاج، وإذا اعتدل المزاج كان منشأ للأفعال الجميلة غالباً، ومن هنا قال الفقهاء بتقديم صبيح الوجه إلى الإمامة، إذا ساوى غيره في شرائطها، وأوصاف كمالها.

فإن تخلف عن وسامة المحيا حريةُ الطبع، وشهامة الخاطر _ انفصل عن محل الاعتبار في نظر الشارِع وعادةِ الفضلاء، قال المتنبي:

وما الحسن في وجه الفتى شرف له   إذا لم يكن في فعله والخلائقِ

ص٦٧

٤٤ـ ووُضِعَ في الطبائع إجلالُ العالي في السن، وتفضيلُه على من هو أقصر أجلاً، أو أقرب عهداً بالحياة منه.

والسر في هذا أن الشيخ بامتداد حياته، وطول تجاربه ـ صار مظنة لأن يكون أوسع علماً، وأرسخ في الأخلاق الفاضلة.

ما استقامت قناة فكريَ إلا   بعد أن قوَّسَ المشيب قناتي

ص٦٨

٤٥ـ ولهذا ترى الأشيب أقدر على مقاومة الهوى، وأصوب رمية في وجه السياسة غالباً، بخلاف الشباب؛ فإنه يكثر فيهم الجهل بالعواقب، ويأخذهم السرف في اتباع الزينة والملاهي بسهولة؛ وبهذا كان للإقبال على الطاعة في حالة الشبيبة مزية على القيام بها في حال مشيب، كما قال ﷺ في حديث سبعة يظلهم الله في ظله: «**وشاب نشأ في طاعة الله**».

فإذا عاش الطاعن في السن وهو يجري مع شهواته بغير عنان، ولم يستفد من تصاريف الزمان ملكة قياس الوقائع بأشباهها ـ فلا يستحق لطول عمره تجلة.

إذا لم يكن مر السنين مُترجِماً   عن الفضل في الإنسان سميته طفلا

وما تنفع الأيام حين تعدُّها   ولم يستفد فيهن علماً ولا فضلا

ص٦٨

٤٦ـ وينبهون على شأن الرجل بالحديث عن رحلته إلى الأقطار، والمدن الآهلة بالعلماء والفضلاء؛ فإن الناهض في الأسفار قلما يفوته أن يلاقي عالماً، أو فاضلاً يقتبس من لقائه مسائل أو أساليب أو شمائل لا يتوفَّق لها في وطنه. ص٦٩

٤٧ـ وقد خففت كثرةُ التآليف، وقيام المطابع بنشرها شدةَ الحاجة إلى الرحلة من الجهة العلمية. ص٦٩

٤٨ـ وجرى في قريض أبي الطيب المتنبي، أن من دلائل كمال الرجال رميَ الناقص له بسباب، حين يقول:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كاملُ

ووجه هذا: أن الوضيع لا تلتفت همته إلى من كان واقفاً في صفه من الأسافل، فتحدثه بأن يلغ في أعراضهم بالمذمة؛ لأنه غني في نشر مثالبهم بما تلبسوا به من الفضائح، حتى إذا ألقى نحوهم بسبة رماها على شفته من غير حرص وشدة اهتمام بالتحدث بها.

وإنما تتوجه همته بمجامعها إلى الرجل الكامل، حيث يقصد إنزاله في معتقد الجمهور إلى مدرجته، أو ما هو أسفل منها.ص٦٩

٤٩ـ طبع البشر على أنهم إذا عرفوا رجلاً بنعت شرف أكبروه في قلوبهم، وهابوه في نفوسهم بمقدار ما يعتقدون فيه من الكمال.

ويشاهد أثر ذلك الإجلال في بعض أحوالهم الظاهرة عند مواجهته.ص٧٧

٥٠_ تنوعت الهيئات التي يقصد بها إجلال الرجل العظيم؛ بحسب اختلاف عوائد الأمم، وأذواقهم إلى أنواع شتى لا داعي في هذه الورقات إلى استقرائها، وإنما نأتي على المنهج الذي يلائم النفوس الفاضلة، ويسعها أن تسلكه عن رِضاً وسماحة خاطر.ص٧٧

٥١_ يتجلى لك هذا المنهج إذا أنست رجلاً سليم الفطرة، حاضر العقل، ولم يحدث له رجاء، ولا رهبة من الرجل الأفضل؛ فإنه لا يصدر عنه من شعائر الاحترام عندما يلاقيه أكثر من أن يبسط يده إلى مصافحته، ويطلق لسانه بتحيته، أو بما يستحق من التمجيد، وإذا تواصلت بينهما المحادثة سلك في خطابه سبيل الأدب الجميل، وتلقى مطالبه بحسن الطاعة.ص٧٧

٥٢_ طالعِ التاريخ ترَ الرجل من آحاد الرعايا يدخل في مجلس عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فلا يزيد على التحية الإسلامية، فيقتنع الخليفة برسم هذه التحية، ويرد عليه بمثلها أو أحسن منها، وما كان ابن الخطاب يجهل أن الرجل يحترمه بقلبه لأنه لم يلثم راحته، ولم يلبس ثوب العبودية بين يديه، بل كان على خبرة بأن هذا الذي اقتصر في تحيته على ما أمر الإسلام يوقره في صدره، ويحافظ على طاعته في الغيب، كما يسارع إلى امتثال أمره عند الشهادة.

يعلم هذا، ولا نحتاج إلى أن نسند علمه إلى نور إيمانه، وصفاء سريرته، ولكنه كان على بصيرة من سيرة نفسه العادلة، وتصرفاته المحكمة، وهي لا تثمر في قلوب الرعية إلا المهابة والتعظيم.ص٧٧ _ ٧٨

٥٣_ ترى الوجهاء الذين لم يبلغوا رشدهم في المعرفة، ولم يثقوا من أنفسهم بالعدالة_ أعلقَ همة، وأشد حرصاً على أن يحتفظ لهم الناس بهذه المظاهر البالغة، ولهذا لا تجدهم ينظرون إلى سليم الفطرة نيِّر القريحة بانعطاف وإعجاب؛ لأنه يجري في معتقدهم أن من كان بتلك الصفة لا تسمح به همته بأن يتمضمض عندهم بعبارات التملق والإطراء، وينعت نفسه باسم المملوك ومقبِّل الأعتاب.

وهذا على خلاف سنة الوجيه، الذي امتلأ معارف، وتمكن من فضيلة العدل، فإنه يكون في غنىً بِلَذَّة الحكمة والاستقامة عن أن ينتصب الناس لرؤيته قائمين، أو يضعوا شفاههم على ظاهر راحته لاثمين.ص٧٩

٥٤_ وأما تنبيه الرجل عن محاسن نفسه، وتحدثه بمزاياه فإنما سوغه العلماء في مواضع ذكرها السيوطي في تقييده المسمى بـ: (نزول الرحمة في التحدث بالنعمة).

قال: ومنها إذا لم يُنْصف، أو نوزع، أو كان بين قوم لا يعرفون مقامه، ويستدل لذلك بعمل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه لما ولي الخلافة خطب فقال: أما بعد: أيها الناس، فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم.

فجرى على قاعدة التواضع، ثم بلغه عن بعض الناس كلام، فخطب وقال: ألست أحق الناس بها؟ ألست أول من أسلم؟ ألست صاحب كذا، ألست صاحب كذا؟. أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه.

ثم قال[1] : ووقائع العلماء في تحدثهم بمثل هذا لا تحصى.

ومن هذا ما حكى القاضي تاج الدين السبكي عن والده الشيخ تقي الدين : أنه طلب من خازن كتب المدرسة الظاهرية أن يعيره من الخزانة كتاباً ، فتمنع عليه ، فغضب السبكي وقال : مثلي لا يحتاج إلى كتب هذه الخزانة ، بل كتب هذه الخزانة محتاجة إلى مثلي يحررها.

ومما ينتظم بهذا الصدد ما قصه الله ـ تعالى ـ في قول يوسف ـ عليه السلام ـ لمن لا يعرف صفة عدالته وعلمه : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ يوسف : ٥٥.ص٧٩ ـ ٨٠

١ـ يعني السيوطي.

عاشراً: نقولات مختارة من كتاب:

حكم وأخلاق عربية لمحمد المكي بن الحسين

ـ «نبذة عن المؤلف»:

هو العلامة اللغوي محمد المكي بن الحسين علم من أعلام الأدب واللغة ونادرة من نوادر اللغويين في زمانه، قل أن يوجد مثيل له في فكره الغواص في بحر العربية، يفتش في أعماقه عن أجمل ما في التراث العربي، ويبحث بجلد وصبر عن مكنوناته، فيصقلها صقل البارع في المهنة، السباق في ميدانها، ويضمها عقوداً متناسقة، في بحوث لها روعتها وجمالها.

ومع بالغ الأسف أن مثل هؤلاء الأعلام من أرباب الفكر الصافي، والأدب الأصيل يكون نصيبهم النسيان، والإهمال.

ولقد قيض الله لهذا العلم من يحرص على نشر علمه، والتعريف به، ألا وهوابن أخيه: الأستاذ علي الرضا الحسيني.

وهذه نبذة يسيرة عن صاحبنا بقلم الأستاذ علي الرضا ـ حفظه الله ـ يقول فيها:

«ولد محمد المكي بن الحسين بن علي بن عمر في مدينة نفطة بالجنوب التونسي في شهر ربيع الأول ١٣٠١هـ، ونشأ في دوحة أصيلة وعريقة في العلم والفضل والأدب، ويزينها من فوق ذلك شرف الانتساب إلى آل البيت الأطهار.

خاله العلامة محمد المكي بن عزوز، وإخوته الإمام محمد الخضر حسين وزين العابدين بن الحسين والجنيدي، وجميعهم كانوا من أفاضل العلماء المنصرفين

إلى خدمة الإسلام وإعلاء رايته ونشر الدعوة المختارة أينما رحلوا وحيثما حلوا.

انتقل إلى مدينة تونس مع عائلته سنة ١٣٠٦هـ وأخذ في حفظ القرآن الكريم وتلقى مبادئ العلوم الشرعية عن والدته البارة السيدة حليمة السعدية بنت الصالح التقي مصطفى بن عزوز.

ثم التحق في الجامع الأعظم ـ جامع الزيتونة ـ وحصل على شهادة التطويع.

ومن شيوخه شقيقه الإمام محمد الخضر حسين، والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وعلي الشنوفي، وأحمد جعيط وغيرهم.

رافق أسرته في هجرتها إلى الشرق سنة ١٣٣٠هـ بعد أن ضيق الباغي الفرنسي الخناق على أخيه الإمام محمد الخضر الذي لاحقه حكم بالإعدام؛ لنضاله ودعوته إلى الاستقلال والحرية.

واستقر في مدينة دمشق منصرفاً فيها إلى التدريس في مدارسها الأهلية والرسمية معلماً للغة العربية وآدابها.

والتقى بأعلام دمشق ومنهم خير الدين الزركلي، ومحمد بهجة البيطار، وسليم الجندي، والشيخ عبدالقادر المغربي، ومحمد المبارك الجزائري، ومحمد كرد علي.

بعد ما يقارب ثماني سنوات عاوده الحنين إلى تونس فرجع إليها سنة ١٣٣٨هـ ـ١٩٢٠م متفرغاً للمطالعة والتحقيق، واشتهرت لغوياته في مختلف الصحف والمجلات التونسية إلى جانب أحاديثه اللغوية والمستمرة من إذاعة تونس.

لم يتزوج طيلة حياته، وكانت أوراقه وأقلامه هي رفيق عمره الزاخر بالإنتاج والعطاء حتى وفاته في مدينة تونس يوم **٢٠** شعبان **١٣٨٢**هـ الموافق **٢٦** كانون الثاني **١٩٦٣**م.

وقد ترك آثاراً قيمة جمعتها وحققتها في عدة مؤلفات وهي: عادات عربية، نوادر في اللغة، نوادر في الأدب، أسماء لغوية، حكم وأخلاق عربية، أمثال عربية، كلمات للاستعمال.

وضعت عنه كتابي (محمد المكي بن الحسين _ حياته وشعره) ضممت فيه الشعر الذي نظمه في حياته وتوصلت إليه بالبحث، كما تناولت حياته المباركة بالقليل مما اتصلت به من أخباره.

ولعل الأبيات التي قالها الإمام محمد الخضر حسين في أخيه محمد المكي، وأشار فيها إلى فطنته وفراسته، وأدبه الجم ولا سيما خجله _ خيرُ ترجمةٍ لأخلاقه.

يقول الإمام محمد الخضر حسين من ديوانه (خواطر الحياة):

دعتني إلى وده فطنةٌ … يجيد بها إن سألت الجوابا

وما بين بُرديه إلا أخٌ … يؤانسني إن فقدت الصحابا

أروم عليه عتاباً وكم … تفرسَّ ما رمته فأصابا

يهبُّ على وجهه خجلٌ … فيصفو ضميري وأنسى العتابا

رحمهما الله، وأجزل إليهما الثواب، والحمد لله رب العالمين».

_ «**تعريف بالكتاب**»:

هذا الكتاب من أنفس ما كتب في الأدب والأخلاق والحكم العربية في

العصور المتأخرة؛ فقد توجه اللغوي الكبير محمد المكي ابن الحسين إلى العناية بهذا الباب، والبحث في ألفاظه، ومعانيه وكنوزه، وأخرجها للناس في مقالات تداولتها الصحف، والمجلات، والإذاعات، ولا سيما مجلة الهداية الإسلامية التي كان يصدرها أخوه العلامة محمد الخضر حسين ـ رحمهما الله ـ.

وقد قام الأستاذ الفاضل علي الرضا الحسيني بجمع ما نشر من تراث عمه محمد، سواء كان من البحوث، أو المخطوطات التي لم تنشر من قبل، وجعلها في هذا الكتاب (حكم وأخلاق عربية).

وذكر في مطلع كل مقال وهامشه المصدرَ الذي أخذ عنه مطبوعاً، أو مخطوطاً.

وقدم المطبوع والمنشور حسب تسلسل التواريخ، ثم أردفها بالمخطوط الذي عثر عليه بمكتبة عمه.

وهذا الكتاب يحتوي على غرر من الموضوعات ونفائس من التحريرات تذكر بصنيع الأوائل، إلا أنه يفوق كثيراً منها بسمو العبارة، ومجافاة الإسفاف.

ويكفي القارئ إطلالة على ما في الكتاب المذكور؛ لِيَعْلَمَ مدى الجهد المبذول، وليدرك أن كاتبه اعتنى بحسن الاختيار، وبراعة التحرير، وأمانة النقل وغير ذلك مما يغري بقراءة الكتاب مرة إثر أخرى.

ولقد يسَّر الله اختيار بعض عنوانات الكتاب، ومن ثَمَّ انتقي منها بعض ما تحت تلك العنوانات.

وهذه النقولات تحتوي على حكم بالغة، وعظات نافعة، ومعلومات قيمة، وتعليقات نادرة.

والكتاب يقع في ٣٦٨ صفحة مقاس ١٧×٢٥سم، وهو من جمع وتحقيق الأستاذ علي الرضا الحسيني، ومن نَشْر الدار الحسينية للكتاب ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : **قال** رحمه الله :

١ ـ خفة النوم المحمودة وذم النومة

ـ كانت العرب تَمْدح بخفة الرؤوس عن النوم، وتذم النومة، وأشعارهم في ذلك كثيرة، فمن ذلك ما أنشده التّوزي:

لقد علمتْ أم الصبيين أنني إلى الضيف قوام السِّنات خروج

أورده المبرد في (الكامل ج١ ص١٠١: طبع مصر سنة ١٣٣٩) ، وقال: قوله :قوام السنات: يريد سريع الانتباه، والسِّنة شدة النعاس، وليس النوم بعينه: قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** ﴾ البقرة: ٢٥٥.ص٥

ـ ويقال: ما كان نوم فلان إلا غراراً أي: خفيف، والغرار: شفرة السيف والسهم.ص٧

ـ ومما يجدر بنا ذكره هنا قول عبد الملك لمؤدب ولده: علمهم العوم، وخذهم بقلة النوم.ص٧

ـ هذا ولنكتف بما أوردناه هنا من أقوال العرب في تمدحهم بخفة النوم.

وأما ذمهم النومة، فمن ذلك قول عروة بن الورد (من شعراء الحماسة) :

لحا الله صعلوكاً إذا جنَّ ليله مصافي المشاش آنفاً كل مجزرِ

ينام عشاء ثم يصبحُ ناعساً يحت الحصا عن جنبه المتعفرِ

ص٧

ـ وقال حاتم الطائي:

لحا الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوساً ومغنما

ينام الضحى حتى إذا نومه استوى تنبه مثلوج الفؤاد مورَّما

ص٨

ـ وقال الآخر:

إذا ما قضيتم ليلكم بمدامكم وأفنيتموا أيامكم بمنام

فمن ذا الذي يلقاكم في ملمة ومن ذا الذي يلقاكم بسلام

ص٨

٢ ـ لله درك، لله كذا، تبارك الله!

ـ يقال في الدعاء للإنسان: لله درك، معناه: كثُر خيرك، وأصلُ الدَّرِّ اللبنُ، وجميع خير العرب في اللبن.ص١٧

ـ وجاء في المخصص لابن سيده ج٧: ١٨١ ما يأتي:

وقولهم: لله درك، أي لله صالح عملك؛ لأن الدر أفضل ما يحتلب، وقيل: أصله أن رجلاً رأى آخر يحلب إبلاً؛ فتعجب من كثرة لبنها، فقال: لله درك!. ص١٧

ـ وقال المفضل بن سلمة في كتاب الفاخر:

وقولهم: لله درك، قال الأصمعي وغيره: أصل ذلك أنه كان إذا حُمِد فعلُ الرجل وما يجيء منه، قيل له: لله درك أي: ما يجيء منك بمنزلة درِّ الناقة والشاة، ثم كثر في كلامهم حتى جعلوه لكل ما يتعجب منه.ص١٨

ـ وقال أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال:

«...ويقولون عند المدح: لله در فلان، وعند الذم لا درَّ درُّه، ومعنى قولهم:

لا در دره، أي: لا كان له خير يدر على الناس، من قولهم: درت الدَّرة: إذا انصبت، والدرة: اللبن تدر عند الحلب، وديمة درور: منصبة...» ص٢٠

_ وقولهم: لله كذا، كلمة تقال عند التعجب من الشيء على معنى لا يقدر على خلقه واختراعه إلا الله _ عز وجل _.

وقال زاهر بن أبو كرام التميمي: ويروى كدام «من شعراء الحماسة»:

للهَ تيمٌ أي رمح طراد لاقى الحِمام به ونصلِ جلادِ

ص٢٠

_ وقال الأخنس (من شعراء الحماسة):

فلله قومٌ مثلَ قومي عصابةً إذا اجتمعت عند الملوك العصائب

قال الخطيب التبريزي:

(فلله قوم) تعجب، والمعنى: أنه يظهر من عزهم وفخرهم في مجالس الملوك ما يستحق به التعجب منهم ا _ هـ.ص٢٠

_ وتبارك الله أي: تقدس وتنزه، وتعالى وتعاظم، صفة خاصة بالله _تعالى_ لا تكون لغيره، وسئل أبو العباس عن تفسير تبارك الله، فقال: ارتفع، وقال الزجاج: تبارك: تفاعل من البركة، كذلك يقول أهل اللغة.

وقال ابن الأنباري: تبارك أي: يُتبرك باسمه في كل أمر، وقال الليث في تفسير تبارك الله: تمجيد وتعظيم، وقال الجوهري: تبارك الله أي: بارك مثل قاتل وتقاتل إلا أن فاعل يتعدى وتفاعل لا يتعدى.ص٢٠ _ ٢١

٣ ـ لا تفتش عن زلة صديق

ـ قيل: إن جعفر الصادق كان يقول: لا تفتش على عيب الصديق؛ فتبقى بلا صديق.ص٢٢

ـ وقيل: من عاتب في كل وقت أخاه فجدير بأن يمله ويقلاه، وعلى عكس ذلك قال الشافعي رحمه الله: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته.ص٢٢

ـ ومن كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«أَغْضِ على القذى، وإلا لم ترض أبداً».ص٢٣

ـ وأنشد ابن الأعرابي:

أغمض للصديق عن المساوي ... مخافة أن أعيشَ بلا صديقِ

ص٢٣

ـ وقال:

ومن تطلَّبَ خِلاً غير ذي عوج ... يكن كطالب ماءٍ من لظى الفحْمِ

ص٢٣

ـ وقال الصلاح الصفدي:

صديقك مهما جنى غطِّهِ ... ولا تُخْفِ شيئاً إذا أحسنا

وكن كالظلام مع النار إذ ... يواري الدخان ويبدي السنا

ص٢٣

ـ قلت: ومن أمثالهم: (قرينك سهمك يخطئ ويصيب) قال الميداني: يضرب في الإغضاء على ما يكون من الأخلاء.ص٢٣

ـ وعن الأصمعي أنه قال: قال أكثم بن صيفي: اصحب من الأخوان من إن صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإن اختللت مانك، وإن رأى منك حسنة جازاك عليها، أو سقطة أغضى لك عنها، لا تختلف عليك طرائقه، ولا تخشى بوائقه.ص٢٣

ـ وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أوجب عليك حقاً؟ قال: الذي يسد خللي، ويغفر زللي، ويقبل عللي، ويبسط عنده أملي.ص٢٣

٤ ـ مثال للعدالة

من القضاة الذين يضرب بهم المثل في استخراج الحقوق، ورفع المظالم ـ قاضي قضاة الأندلس: منذر بن سعيد البلوطي، كان يتفقه بفقه داود الظاهري، ويؤثر مذهبه، ويحتج لمقالته، فإذا جلس مجلس الحكم قضى بمذهب مالك وأصحابه، وكانت ولايته لقضاء الجماعة بقرطبة ستة عشر عاماً كاملة، لم تحفظ عليه مدة ولايته قضية جور، ولا عدت عليه في حكومته زلة، وكان قوالاً بالحق، ناصحاً للخلق، ومولده عام ٢٦٥، وتوفي ٣٥٥هـ.

هذا وأذكر قولي في قضية:

وقضية لو أنها رفعت إلى ... قاضي الجماعة منذر بن سعيد

لرأيت وجه العدل فيها وانبرى المـ ... ـظلوم يمرح في ثياب سعود

ص٢٤

٥ ـ ما يمتدح به العرب

ـ كانوا يمتدحون بخفة الرؤوس عن النوم، ويذمون النَّومَةَ.

ص٣٠

ـ ويمتدحون بخفة لحم الجسم؛ لأن كثرته داعية إلى الكسل والثقل، وهما يمنعان من الإسراع في دفع الملمات، وكشف المهمات، قال طرفة بن العبد:

أنا الرجل الضَّرْبُ الذي تعرفونه ... خشاشٌ كرأسِ الحية المتوقِّد

الضرب: الخفيف اللحم.ص٣٠

ـ ويمتدحون بخدمة الضيف وإكرامه ومؤانسته، قال أعرابي يخاطب امرأته، وقد نزل به أضياف فقام إلى الرحى، فطحن لهم:

لعمرُ أبيكِ الخير إني لخادمٌ ... لضيفي وإني إن ركبتُ لفارسُ

ص٣١

ـ وكانوا يحتفلون بالضيف إذا مر بهم، ويهتمون به، ألا ترى إلى قول مرة بن محكاز السعدي:

أقول والضيف مخشيٌّ ذمامتُه ... على الكريم، وحقُّ الضيف قد وجبا

يا ربةَ البيت قومي غيرَ صاغرةٍ ... ضمي إليك رحالَ القوم والقُرُبا

ص٣١

ـ وكانوا يمدحون الجهير الصوت، ويذمون الضئيل الصوت، ولذلك تشادقوا في الكلام، ومدحوا سعة الفم، وذموا صغر الفم، قيل لأعرابي، ما الجمال؟ قال: طول القامة وضَخْم الهامة، ورَحَبُ الشِّدْقِ، وبعدُ الصوتِ.ص٣٢

٦ _ طيب الثناء

_ كان كعب الأحبار ﵁ يقول: ما استقر لعبد ثناء في الأرض حتى يستقر له في السماء.ص٣٥

٧ _ قرناء السوء

_ ومن كلام علي بن أبي طالب ﵁: «توحشت في القفر البلقع، فلم أر وحشة أشد من قرين السوء».ص٤٠

_ قيل لبعضهم: ما حملك أن تعتزل عن الناس؟ فقال: خشيت أن أسلب ديني ولا أشعر، وهذا إشارة منه إلى مسارقة الطبع واكتسابه الصفات الذميمة من قرناء السوء.ص٤٠

_ ومن كلام أفلاطون: لا تصحب الشرير؛ فإن طبعك يسرق من طبعه سراً وأنت لا تعلم.ص٤٠

_ وفي غرر الخصائص ما يأتي:

«وقد تكتسب الأخلاق من معاشرة الكرام، وفسادها من مخالطة اللئام، وربَّ طبعٍ كريم أفسدته معاشرة الأشرار، وطبعٍ لئيمٍ أصلحته مصاحبة الأخيار» ص٤٠ _ ٤١

_ ومن أمثالهم: (تطأطأ لها تخطئك) الهاء للحادثة.

يقول: اخفض رأسك لها تجاوزْك، وهذا كقولهم: دَعِ الشرَّ يعبرْ، يُضْرَبُ في ترك التعرض للشر.ص٤٤ _ ٤٥

_ ومن أمثالهم (قيل للشقي: هلم إلى السعادة، قال: حسبي ما أنا فيه)

يضرب لمن قنع بالشر وترك الخيرَ وقبولَ النصح.ص٤٥

ـ قال أفلاطون: لا تصحبوا الأشرار؛ فإنهم يمنون عليكم بالسلامة منهم.ص٤٧

ـ ويقال: أردى ما في الكريم منع الخير، وأحسن ما في الشرير كف الشر.ص٤٧

ـ الداغل:الباغي أصحابه الشر يدغل لهم الشر، أي: يبغيهم الشر ويحسبونه يريد لهم الخير.ص٤٧

ـ التِمْسَحُ:التِمْسح والتِمساح ـ بكسرهما من الرجال: المارد الخبيث، والكذاب الذي لا يصدق أثره، يكذبك من حيث جاء، والتمسح: المداهن المداري الذي يلاينك بالقول وهو يغشك.ص٤٨

ـ المذّاع :كشدّاد: من لا وفاء له، ولا يحفظ أحداً بالغيب.ص٤٩

٨ ـ دهاء معاوية وحلمه

ـ أخرج ابن عساكر عن الشعبي قال: دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو ابن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد، فأما معاوية فللحلم والأناة، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهات، وأما زياد فللكبيرة والصغيرة.ص٦٥

ـ وقال الأصمعي: كان معاوية رَحِمَهُ اللهُ يقول: أنا للأناة، وعمرو للبديهة، وزياد للصغار والكبار، والمغيرة للأمر العظيم.ص٦٥

ـ وأخرج ابن عساكر عن قبيصة بن جابر قال: صحبت معاوية فما رأيت رجلاً أثقل حلماً ولا أبطأ جهلاً، ولا أبعد أناة منه، وصحبت عمرو بن العاص

فما رأيت رجلاً أنصع طرفاً ولا أحلم جليساً منه، وصحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر ـ أي احتيال ـ لخرج من أبوابها كلها.ص٦٥

ـ وقال المقبري: تعجبون من دهاء هرقل وكسرى، وتَدَعُوَن معاوية؟! وذكروا أنه لم يكن في ملوك العجم أدهى من كسرى أنوشروان.ص٦٦

ـ وكان معاوية رضي الله عنه من أدهى الدهاة، رُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لجلسائه: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية.

وذكروا أن عمر بن الخطاب لما دخل الشام فرأى معاوية قال: هذا كسرى العرب.ص٦٦

ـ ولم يكد معاوية يتولى الأمر بالشام حتى أخذ بما أوتيه من علم وحلم يضع أساس الملك، ويسير في رعيته سيرة حسنة حببته إليهم، وكان يتأنى الأمور، ويداري الناس على منازلهم، ويرفق على طبقاتهم؛ فأوسع الناس من أخلاقه، وأفاض عليهم من بره وعطائه، وشملهم من إحسانه، فاجتذب القلوب، واستدعى النفوس حتى آثروه على الأهل والقرابات، وعُدَّ مربيَّ دولٍ، وسائسَ أمم، وراعيَ ممالك.ص٦٦

ـ وكان رضي الله عنه يُرمى بالمطاعن، ويُرشق بسهام الإنكار، فَيُسِرُّها في نفسه، ولا تبدو عليه سورة الغيظ الذي يتخبط كثيراً من المستبدين.

وأسمعه رجلٌ كلاماً شديداً فقيل له: لو عاقبته! فقال: إني لأستحي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي، وأغلظ له رجل فحلم عنه، فقيل له:

أتحلم عن هذا؟ فقال: إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا.ص٦٦ _ ٦٧

_ وقال ﷺ : لقد كنت ألقى الرجل من العرب أعلم أن في قلبه عليّ ضغناً، فأستشيره، فيشير إلي منه بقدر ما يجده في نفسه، فلا يزال يوسعني شتماً وأوسعه حلماً، حتى يرجع صديقاً أستعين به فيعينني، وأستنجده فينجدني.ص٦٧

_ وكان ﷺ عاقلا في دنياه، لبيباً عالماً حليماً ملكاً قوياً، جيد السياسة، حسن التدبير لأمور الدنيا، عاقلاً حكيماً فصيحاً بليغاً يحلم في موضع الحلم، ويشتد في موضع الشدة، إلا أن الحلم كان أغلب عليه.ص٦٨

_ وقال ﷺ : لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم.ص٦٨

_ ويروى عنه أنه قال: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً، قيل له: وكيف ذاك؟ قال كنت إذا جبذوها أرخيها، وإذا أرخوها جبذتها ص٦٨

_ وقال لابنه يزيد: عليك بالحلم والاحتمال حتى تمكنك الفرصة، فإذا أمكنتك فعليك بالصفح؛ فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور.ص٦٩

_ وقال _ أيضاً _ : أفضل ما أعطي الرجل الحلم، وقال: ما وجدت لذة هي عندي ألذ من غيظ أتجرعه، وسفه بحلم أقمعه.ص٦٩

_ وقال له ابنه يزيد: لقد أفرطت في الحلم حتى خفت أن يُعدَّ ذلك منك

ضعفاً وجبناً، فقال معاوية: أي بني، إنه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة؛ فامضِ لشأنك، ودعني ورأيي.

وبمثل هذه السيرة صار خليفة العالم، وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة.ص٦٩

ـ وقيل للأحنف: من أحلم الناس أنت أو معاوية؟ فقال: معاوية قد قدر فحلم، وأنا أحلم ولا أقدر؛ فكيف أقاس به؟! ص٦٩

٩ ـ زينة العلم الحلم والوقار

ـ كان الأحنف بن قيس رحمه الله يقول: «ما أضيف شيء إلى شيء أحسن من علم إلى حلم».ص٧٠

ـ وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «ما قرن شيء إلى شيء أحسن من علم إلى حلم، ومن عفو إلى مقدرة».ص٧٠

ـ ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال لرجل: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك، ويكثر علمك».ص٧١

ـ وقال الإمام مالك رحمه الله لفتى من قريش: «يا ابن أخي، تعلّم الحلم قبل العلم».

وقال لفتى من قريش: «يا ابن أخي، تعلّم الأدب قبل أن تتعلم العلم». ص٧١

ـ وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: «جمال العلماء كرم النفس، وزينة العلم الورع والحلم».ص٧١

ـ وقال الشعبي: «يا طلاب العلم، لا تطلبوا العلم بسفاهة وطيش، اطلبوه بسكينة ووقار وتؤدة». ص٧١

١٠ ـ البغي والبغاة

ـ قال المتلمس:

ومنْ يبغِ أو يسعى على الناس ظالماً يَقَعْ غيرَ شكٍّ لليدين وللفم

ص٧٤

ـ ومن أمثال العرب: (البغي آخر مدة القوم) يعني: أن الظلم إذا امتد مداه أذَّن بانقراض مدتهم. ص٧٥

ـ وقال المنصور: الرعية لا يصلحها إلا العدل، وأنقص الناس مروءة وعقلاً من ظلم من هو دونه. ص٧٦

١١ ـ أسباب العزل عند أهل العدل

ـ يروى عن جعفر بن يحيى، أنه رُفع إليه كتاب يشتكي فيه عامل، فوقَّع على ظهره[١]: يا هذا! قد قلَّ شاكروك، وكثر شاكوك، فإما عدلت، وإما اعتزلت. ص٧٧

ـ ووقع المأمون لعامل: لو استقامت لك الطريقة، لرضيت الخليقة، فإن لم تدع فيهم القذل[٢]، راعينا فيك العزل. ص٧٧

ـ وفي الحديث «شر الرعاء الحطمة» أخرجه مسلم في صحيحه.

١ـ أي على ظهر الكتاب.

٢ـ يعني الميل والجور.

قال ابن الأثير في النهاية: «هو العنيف برعاية الإبل في السوق، والإيراد والإصدار، ويلقي بعضها على بعض ويعسفها، ضربه مثلاً لوالي السوء، ويقال _ أيضاً _ حطم بِلا هاء».ص٧٨

_ قال بعض البلغاء: لتكن معاونتك أخاك بمهجتك عند البلاء أكثر من معاونتك إياه عند الرخاء، وقيل: أفضل المعروف نصرة الملهوف.ص٧٩

_ وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لزياد بن أبيه: يا زياد، هل أنت حامل كتابي إلى أبي موسى في عزلك عن كتابته؟

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، إن لم يكن ذلك عن سخط، قال: ليس عن سخط، ولكني أكره أن أحمل فضل عقلك على الرعية.ص٧٩

_ وقال رجل لسليمان بن عبد الملك، وهو جالس للمظالم: يا أمير المؤمنين، ألم تسمع لقول الله _ تعالى _ : ﴿ **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾؟ يوسف: ٤٤

فقال: ما خطبك؟ قال: وكيلك اغتصبني ضيعتي وضمها إلى ضيعتك الفلانية، قال: فإن ضيعتي لك، وضيعتك مردودة إليك، ثم كتب إلى الوكيل بذلك وبِصَرْفه عن عمله.ص٧٩

١٢ _ وصايا صحية عن العرب

_ هذا تحرير يشتمل على كلمات من الوصايا الصحية الواردة عن العرب قديماً؛ إذ بها نعلم ما كان لهم في تلك العصور من العناية والدراية بكثير من القواعد الصحية، والإرشادات الطبية المتبعة في عصرنا هذا، وإليك البيان.ص٨٠

_ قال الأصمعي: كانت امرأة من العرب تأتي بصبية لها قبل الصبح، فتقف

على تلٍّ عالٍ هناك وتقول: أي بَنِيَّ! خذوا صفو هذا النسيم قبل أن تكدره الخلائق بأنفاسها.ص٨٠

ـ هارون الرشيد كان ليلة بالحيرة، فلما كاد أن يتنفس الصبح قال لجعفر ابن يحيى: قم بنا نتنفس هواء الحيرة قبل أن تكدره أنفاس العامة.

قلت: هذا مما يدل على ما كان للعرب في ذلك العهد من الاهتمام، والعناية بالخروج إلى المواضع النقية الهواء، الطيبة المناخ.ص٨٠

ـ ومما يدل على ذلك ـ أيضاً ـ ما كتب به عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة يوم طاعون عمواس إذ قال: «سلام عليك، أما بعد فإنك أنزلت الناس أرضاً عميقة، فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة».ص٨١

ـ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تزالوا أصحاء ما نزعتم ونزوتم.

يريد ما نزعتم عن القسي، ونزوتم على ظهور الخيل، وإنما أراد الحركة.ص٨١

ـ وفي حديث عمر: أن عمرو بن معدي كرب شكا إليه النقرس[1]، فقال: كذِّب عليك الظهائر ـ أي عليك بالمشي في الظهائر ـ وهي جمع ظهيرة، وهي ما ظهر من الأرض وارتفع. ص٨١

ـ وفي حديث له آخر: أن عمرو بن معدي كرب اشتكى إليه المعص، فقال: كذب عليك العَسْل ـ يريد العسلان، وهو مشي الذئب ـ أي عليك بسرعة المشي.

١ـ النِّقرِس: ورم في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين، ويقال: إنه يأتي من جراء الإفراط في أكل اللحم، وهكذا كان عمرو بن معدي عرب رضي الله عنه فقد كان يقول ـكما ذكر في سيرتهـ: إني لأجلس على الجذع من الإبل فأنتقيه عظماً عظما!.

والمعص بالعين المهملة : التواء في عصب الرجل.ص٨١

ـ وقال عمر بن الخطاب ﵁ : «إياكم والبطنة في الطعام والشراب؛ فإنها مفسدة للجسم، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما؛ فإنه أصلح للجسد، وأبعد عن السرف» .ص٨١

ـ ومن كلامه ـ يعني علي بن أبي طالب ـ ﵁ : «يضر الناس أنفسهم في ثلاثة أشياء: الإفراط في الأكل؛ اتكالاً على الصحة، وتكلف حمل مالا يطاق؛ اتكالاً على القوة، والتفريط في العمل؛ اتكالاً على القدرة» .ص٨٣

ـ ومن كلامه ـ أيضاً ـ : «كثرة الطعام تميت القلب كما تميت كثرة الماء الزرع، وإن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه» .ص٨٣

ـ وقال عمرو بن العاص: فوالله، ما بطن قوم قط إلا فقدوا بعض عقولهم، وما مضت عزيمة رجل بات بطيناً.ص٨٠

وقال بعض الحكماء: لكل شيء صدأ، وصدأ القلوب شبع البطون.ص٨٣

ـ وقال بعض أطباء السواد: الدواء الذي لا داء فيه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه، وتقوم عنه وأنت تشتهيه.ص٨٣

ـ قال عبد الملك بن مروان يوماً لأبي الزعزعة: يا أبا الزعيزعة، هل أتخمت قط؟ قال لا، قال فكيف؟ قال: لأنا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا مضغنا دقَّقنا، ولا نكظ المعدة، ولا نخليها.ص٨٣

ـ ومن وصايا الحارث بن كلدة الثقفي: لا تنم بالليل عرياناً، ولا تقعد على الطعام غضباناً، وارفق بنفسك؛ يكن أرخى لبالك، وقلل من طعامك؛ أهنأ لنومك.ص٨٣

ـ ومن وصاياه ـ أيضاً ـ : عليكم بتنظيف المعدة في كل شهر؛ فإنها مذيبة للبلغلم، مهلكة للمرة، منبتة للحم، وإذا تغدى أحدكم فلينم على إثر غدائه، وإذا تعشى فليمش أربعين خطوة.ص٨٤

ـ وبقي ابن كلدة إلى زمن معاوية ﷺ فقال له معاوية: ما الطب يا حارث؟ فقال: الأَزَمُ يا معاوية؛ يعني الجوع.ص٨٤

ـ قال أبو عثمان الثوري: لله در الحارث بن كلدة؛ إذ زعم أن الدواء هو الأَزَمُ. فالداء كله من فضول الطعام، فكيف لا ترغب في شيء يجمع لك صحة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح الدين والدنيا، والقرب من عيش الملائكة ؟. ص٨٤

١٣ ـ قمع الشهوة

ـ قال علي ﷺ: «إياك والشهوات! وليكن مما تستعين به على كفها علمك بأنها ملهية لعقلك، مُهَجِّنة لرأيك، شائنة لعرضك، شاغلة لك عن معاظم الأمور، مشتدة بها التبعة عليك في آخرتك.

إنما الشهوات لعب، فإذا حضر اللعب غاب الجد، ولن يقام الدين وتصلح الدنيا إلا بالجد» .ص٨٥

ـ وجاء في المدهش لابن الجوزي: يا تائهاً في بوادي الهوى، انزل ساعةً بوادي الفكر، يخبرك بأن اللذة قصيرة، والعقاب طويل، واعجباً لمن يشتري شهوة ساعة بغم الأبد، كانت المعصية ساعة ـ لا كانت ـ فكم ذلت بعدها النفس، وكم تصاعد لأجلها النفس....ص٨٦

ـ وقال معاوية رضي الله عنه : لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم.ص٨٦

ـ وقال الحكيم: الحكمة جلاء العقل، وتمييزه بالأدب، وقمع الشهوات بالعفاف..ص٨٧

ـ وقال علي رضي الله عنه : عبد الشهوة أذل من عبد الرق.ص٨٧

ـ وقال سقراط: الحرية هي الخروج عن استعباد الشهوات المذمومة في العقل.ص٨٧

ـ وقال أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي رحمه الله : الجوع نور، والشبع نار، والشهوة الحطب يتولد منه الإحراق؛ فلا تنطفئ ناره حتى يحرق صاحبه.ص٨٧ ـ ٨٨.

١٤ ـ الرأي السديد

ـ كان زال بن سامٍ يقول: الرأي السديد أجدى من الأيّد الشديد.ص٩٠

ـ وقال آخر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا تدبرٍ   فإن فساد الرأي أن تتعجلا

ص٩١

ـ ومن أمثالهم (الخطأ زاد العجول) يعني: قلَّ من عجل في أمر إلا أخطأ قصد السبيل ـ.ص٩١ ـ ٩٢.

ـ وجاء في الألفاظ لابن السكيت ص١٨٤ ما لفظه: «والركين: الحليم الذي يطيل الفكر إذا وردت عليه الأمور» ص٩٢

ـ والرأي: هو التفكر في مبادئ الأمور، ونظر عواقبها، وعلم ما تؤول إليه من الخطأ والصواب.ص٩٢

١٥ ـ أجواد أهل الحجاز في القرن الأول الهجري

ـ أجود أهل الحجاز ثلاثة: عبد الله بن جعفر، وعبيد الله بن العباس، وسعيد بن العاص.ص٩٥

ـ **عبيد الله بن العباس** ﷺ **:** كان لفرط جوده يسمى معلم الجود، وهو أول من وضع الموائد على الطرق، وكانت نفقته في كل يوم خمسمائة دينار، وكان إذا خرج من دوره طعام إلى رحابه ومساجده لا يرد إليها منه شيء، فإن لم يجد من يأكله ترك مكانه فربما أكلته السباع، وكان هو والناس في ماله سواء، من سأله أعطاه، ومن لم يسأله ابتدأه، فلا يرى أنه يفتقر فيقتصد، ولا يرى أنه يحتاج فيدخر ـ (غرر الخصائص للبرهاني ص٢٤٢).ص٩٥

ـ **سعيد بن العاص** كان سعيد بن العاص الصحابي ﷺ يجمع إخوانه كل جمعةٍ فيصنع لهم طعاماً، ويخلع عليهم، ويرسل إليهم بالجوائز، ويبعث إلى عيالهم العطاء الكثير، وكان يبعث مولى له كل ليلة جمعةٍ إلى مسجد الكوفة ومعه الصررُ فيها الدنانير، فيضعها بين يدي المصلين.عن التهذيب للإمام النووي.

ومن جوده: أنه كان يسمر معه ليلةً قومٌ فانصرفوا وبقي رجل، فعلم أنه طالب حاجةٍ، ويمنعه الحياء من ذكرها، فأمر سعيد بإطفاء الشمعة، وقال: ما حاجتك يا فتى؟ فذكر أن عليه ديناً أربعة آلاف درهم، فأمر له بها، قال: وكان إطفاؤه الشمعة أكثر من عطائه.

وعوتب في كثرة العطاء، فقال: إن الله تعالى عوّدني أن يتفضل عليّ، وعوّدته أن أتفضل على عباده، فأخاف إن قطعت أن يقطع.ص٩٦

ـ **عبد الله بن جعفر:** كان عبد الله بن جعفر رضي الله عنه من الجود بالمكان المشهود، وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف درهم كل سنة فيفرقها في الناس ولا يُرى إلا وعليه دين (المستطرف ج١ ص١٢٩).ص٩٧

ـ وفي التهذيب للنووي: «وكان عبد الله بن جعفر يسمى بحر الجود، قال الحافظ عبد الغني: يقال: لم يكن في الإسلام أسخى منه، وقال ابن قتيبة في المعارف: كان عبد الله بن جعفر أجود العرب، وأخبار أحواله في السخاء والجود والحلم مشهورة لا تحصى».ص٩٧

ـ وأُنشِد عبد الله بن جعفر قول الشاعر:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة ... حتى تصيب بها طريق المصنع

فقال: هذا رجل يريد أن يبخل الناس، أمطرِ المعروف مطراً فإن صادف موضعاً فهو الذي قصدت، وإلا كنت أحق به.

ويشبه هذا ما ينسب لأبي الحسين بن السراج:

بُثَّ الصنائعَ لا تَحفلْ بموقعها ... فيمن نأى أو دنا ما كنت مقتدرا

فالغيث ليس يبالي حيثما انسكبت ... منه الغمائم ترباً كان أو حجراً

ص٩٨

١٦ _ إياك والغضب

_ قال جعفر بن محمد الصادق: خير السادة أعدلهم حلماً عند الغضب.ص٩٩

_ وعن أبي هريرة _ رضي الله تعالى عنه _: أن رجلاً قال للنبيﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب، فردّد مراراً قال: لا تغضب» رواه البخاري. ص١٠٠

_ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».ص١٠٠

_ وقيل لابن المبارك رحمه الله: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة قال: ترك الغضب _ المستطرف.ص١٠٠

_ وقال أحدهم: أملك الناس جميعاً لنفسه: من استغنى عن الاعتذار بعد سكون الغضب _ اللباب.ص١٠١

١٧ _ التخاصم والتشاتم

_ قال مسلم بن قتيبة: رآني بشير بن عبيد الله _ وأنا أخاصم بعض أهلي وأنا شاب _ فقال لي: يا ابن أخي، إني أراك ثَبْتَ المروءة، فإياك والخصومات؛ فإنها تذهب المروءة _ (طبقات الشعراء ص١٣٣).ص١٠٢

_ ومن أمثال المولدين: (شرُّ الناس من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً).ص١٠٢

١٨ _ الصروع والصرعة

_ الصروع كصبور: الرجل الكثير الصراع للناس.ص١٣٣

_ والصرعة: الحليم عند الغضب _ وهو مثل، قال أبو علي: وذلك لأن حلمه يصرع غضبه، بضد قولهم: الغضب غول الحلم.ص١٣٣

_ وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: «ما تعدّون الصرعة فيكم؟ قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: ليس ذلك، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب» وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».ص١٣٣

_ وقال ﷺ: «أشدكم من غلب نفسه عند الغضب، وأحلمكم من عفا بعد القدرة».ص١٣٣

_ وكان أبو الدرداء يقول: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب، واحذر أن تَظْلِم من لا ناصر له إلا الله.ص١٣٤

_ ومن أمثالهم (الظفر بالضعيف هزيمة) يضرب لمن يستضعف.ص١٣٤

١٩ _ الساعي والسعاية

_ قال المهدي: ليس الساعي بأعظم عورة، ولا أقبح حالاً ممن قبل سعايته _(زهر الآداب للحصري ج٢ ص١٦).

السعاية والإغراء والتضريب والوشاية والنميمة والوقيعة: كلها واحد _ الألفاظ للرواني.ص١٣٧

_ وقيل: الساعي غاش وإن قال قول متنصح.ص١٣٧

_ وكان الأحنف يقول: أبعد ما يكون الساعي من الله إذا صدق.ص١٣٧

ـ ورفع إلى أنو شروان : لم عزلتم فلاناً عن الإنهاء مع قديم خدمته وحرمته ، فوقع : لأنه لطخ سمعنا بقذر السعاية فعافته أنفسنا ـ (خاص الخاص ص٦٧) ص١٣٨

ـ وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه ، فأنكره الأحنف ، فقال له معاوية : بلغني عنك الثقة ، فقال له الأحنف : إن الثقة لا يبلغ مكروهاً.ص١٣٩

٢٠ ـ لا تتكلف ما لا يليقك

ـ يقال : هذا الأمر لا يليق بك ، أي : لا يعلق بك.

ويقال : ما يليق بك أن تفعل كذا ، أي : لا يزكو ولا يناسب ونحوه.ص١٤١

ـ إذا المرء لم يدر ما أمكنه ولم يأت من أمره أزينه
وأعجبه العجب فاقتاده وتاه به التيه فاستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره سيضحك يوماً ويبكي سنة

ص١٤١

ـ ومن أمثال العرب : (قيل للشقي : هلم إلى السعادة ، قال : حسبي ما أنا فيه) ـ يضرب لمن قنع بالشر ، وترك الخير وقبول النصح ـ.ص١٤١

٢١ ـ عزيمة الصبر

ـ العزم : ما عُقد عليه القلب من أمر يُراد.

وقال الزبيدي : والعزم في لغة هذيل : بمعنى الصبر ، يقولون : مالي عنك عزم أي صبر.اهـ كلام الزبيدي.ص١٤٣

ـ وقال المسعر لعبد الله بن طاهر :

ماذا تقول ـ فدتك نفسي ـ في امرئ ركب العزيمة في لجام الصبر

يعلو من الدنيا على أوعارها ويحل منها في محل السفر

ص١٤٣

ـ على قدر فضل المرء تأتي خطوبه ويعرف عند الصبر فيما ينوبه

وعاقبة الصبر الجميل من الفتى إلى فرج من ذي الجلال يثيبه

ص١٤٤

٢٢ ـ ينشدون الأشعار وهم يحتضرون

ـ وفي ديوان أبي فراس (واسمه الحارث بن سعيد) أنه لما حضرته الوفاة كان ينشد مخاطباً ابنته:

أبنيَّتي لا تجزعي كلُّ الأنام إلى ذهاب

نوحي علي بحسرةٍ من خلف سترك

قولي إذا كلمتني فعييت عن رد الجواب

زين الشباب أبو فرا س لم يمتع بالشباب

ص١٧٢

ـ قال الإمام محمد بن إدريس ـ رحمة الله عليه ـ : دخلت على أبي نواس وهو يجود بنفسه، فقلت: ما أعددت لهذا اليوم؟! فقال:

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

ص١٧٢

ـ يقول محرر هذا المقال: هذا البيت أذكرني في قول ابن أراكة الثقفي:

أقول لعبد الله إذ خنَّ باكياً تعزَّ وماءُ العينِ منهمرٌ يجري

تأملْ فإن كان البكا ردَّ هالكاً   على أحد فاجهدْ بكاكَ على عمرو
ولا تبك ميتاً بعد ميت أَجَنَّهُ[1]   عليٌ وعباسٌ وآل أبي بكر

يريد النبي ﷺ .ص١٧٣

ـ وتمثل سيبويه عند الموت:

تومِّل دنيا لتبقى لنا   فمات المؤمل قبل الأمل
حثيثاً يروي أصول النخيل   فعاش الفسيل ومات الرجل

ص١٧٤

ـ وكان أبو الفتح المنهي قد برع في الفقه، وتقدم عند العوام، وحصل له مال كثير، ودخل بغداد، وفُوِّض إليه التدريس بالمدرسة النظامية، وأدركه الموت بهمذان، فلما دنت وفاته قال لأصحابه: اخرجوا، فخرجوا، فطفق يلطم وجهه ويقول: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، ويقول: يا أبا الفتح، ضيعت العمر في طلب الدنيا، وتحصيل الجاه والمال، والتردد إلى أبواب السلاطين، وينشد:

عجبت لأهل العلم كيف تغافلوا   يجرون ثوب الحرص عند المهالك
يدورون حول الظالمين كأنهم   يطوفون حول البيت وقت المناسك

ص١٧٤ ـ ١٧٥

ـ وقال محمد بن زكرياء: دخلت على أبي نواس وهو يكيد بنفسه، فقال لي: تكتب؟ فقلت: نعم، فأنشأ يقول:

---

١ ـ معنى (أجنة): أي ستره في الأرض.

دبَّ فيَّ الفناءُ سُفلاً وعُلواً وأراني أموت عضواً فعضوا

ذهبت شرتي بجدة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا

ليس من ساعة مضت بي إلا نقصتني بمرها بثُّ جزْوا

لهف نفسي على ليالٍ وأيا مٍ تملَّيتهن لعباً ولهوا

وأسأنا كل الإساءة يا رب فصفحاً عنّا جميعاً وعفوا

ص١٧٥

٢٣ ـ العمل العمل

ـ ومن أمثالهم: (جَمِّعْ له جراميزكَ) ـ جراميز الرجل: جسده وأعضاؤه، يضرب لمن يؤمر بالجد في العمل.ص١٧٦

ـ ومن أمثال العرب: (بغير اللهو ترتتق الفتوق) يضرب في الحث على استعمال الجد في الأمور.ص١٧٧

ـ ومن أمثالهم (إياك والسآمة في طلب الأمور؛ فتقذفك الرجال خلف أعقابها).

قال الميداني: يضرب في الحث على الجد في الأمور، وترك التفريط فيها.اهـ كلامه.ص١٧٧

ـ ومن أمثالهم (سِرْ وقمرٌ لك) أي اغتنم العمل ما دام القمر لك طالعاً، يضرب في اغتنام الفرصة، ويروى: أسرِ وقمر لك، من السُّرى الواو[1] في الروايتين للحال أي سِرْ مقمراً. اهـ. ص١٧٨

١ـ يعني بها: واو الحال.

ـ ومن أمثال المولدين : (من عمل دائماً أكل نائماً).ص١٧٨

٢٤ ـ النزاهة عن التعرض للأبواب

ـ قال الشاعر :

يا أمَّ عقبةَ إني أيَّمَا رجلٍ   إذا النفوس ادَّرعْنَ الرُّعبَ والرهبا
لا أمدح المرء أبغي من فضائله   ولا أظل أداجيه إذا غضبا
ولا يراني على باب أراقبه   أبغي الدخول إذا ما بابُه حُجِبا

ص١٨١

ـ وأنشد الجوهري لأبي الأسود الدؤلي :

ولا أقول لقدر القوم قد غليت   ولا أقول لباب الدار مغلوق

أي إني فصيح لا ألحن ، قال الزبيدي : قال شيخنا : ومنهم من فسرَّ بيت أبي الأسود بالنزاهة عن التعرض لأبواب الناس.ص١٨١

ـ وكان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام إذا قرأ عليه الطالب وانتهى يقول : إقرأ من الباب الذي يليه ولو سطراً، فإني لا أحب الوقوف على الأبواب.ص١٨١

ـ قال الشيخ المكُّودي :

إذا عرضت لي في زماني حاجة   وقد أشكلت فيها عليَّ المقاصد
وقفت بباب الله وقفة ضارع   وقلت: إلهي إنني لك قاصد
ولست تراني واقفاً عند باب من   يقول فتاه: سيدي اليوم راقد

ص١٨٢

٢٥ _ ليس للفضيلة وطن

_ من كلمات أخينا وأستاذنا الشيخ سيدي محمد الخضر حسين، قوله: «إذا خلوت بموطن أغلق عيون رقبائك، وختم على أفواه عُذَّالك، ثم راودك على أن تنزع حلية أدبك، فقل: ليس للفضيلة وطن». ص١٩٦

_ وقال آخر:

وما يزع النفسَ اللجوجَ عن الهوى ... من الناس إلا حازمُ الرأي كامله

ص١٩٦

_ وقال الحكيم: شَرُفَ العقل على الهوى، إن العقل يملكك الزمان، والهوى يستعبدك له. ص١٩٧

_ وقال الحكيم: من أطاع الشهوة خذلته عند الإصحار[1] به في دفع المكاره، وجعلته خادماً لمن كان ينبغي أن يتقدمه. ص١٩٨

٢٦ _ مخالفة النفس وقدعها عن هواها

_ إن من العقل عدمَ الرضا عن النفس، واتهامَها في جميع الأحوال، ومخالفتها في جميع مطالبها، وأن لا ينظر إليها نظر استحسانٍ وكمالٍ. ص٢٠١

٢٧ _ القناعة

_ قال آخر:

إذا المرء عوفي في جسمه ... وملكه الله قلباً قنوعا

١_ الإصحار: أي البروز إلى الصحراء لا يواريه شيء.

وألقى المطامع عن نفسه فذاك الغني وإن مات جوعا

ص٢٠٥

ـ قيل: وحسم هذه المطامع شيئان: اليأس والقناعة، ولله درٌّ من قال:

الحرص فقر والقناعة عزةٌ واليأس من صنع الإله قنوط

ـ وقال آخر:

وجدت القناعة رأس الغنى فصرت بأذيالها ممتسكْ

فلا ذا يراني على بابه ولا ذا يراني به منهمكْ

فأورثني عزُّها خِلعةً يمر الزمان ولا تنهمكْ

ص٢٠٥

ـ وقال أبو فراس الحمداني:

إن الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسه ولو آنه عاري المناكب حافِ

ما كل ما فوق البسيطة كافياً فإذا قنعت فكل شيء كافِ

ويعاف لي طبع الحريص أبُوَّتي ومروءتي وقناعتي وعفافي

ص٢٠٦

٢٨ ـ عصيان الهوى

ـ روي أن هشام بن عبد الملك لم يقل بيتاً من الشعر إلا قوله:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال

ولما سمعه أبو عمر[١] قال: لو قال: إلى كل ما فيه عليك مقال، لكان أبلغ وأحسن.ص٢٠٧

١ـ يعني به: ابن عبدالبر ـ كما في كتابه بهجة المجالس ـ.

ـ وقال أبو الدرداء ﷺ : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله؛ فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوءٍ، وإن كان هواه تبعاً لعمله فيومه يومٌ صالح.ص٢٠٨

٢٩ ـ المتحلون بأعلام مضافة إلى اسم الله ـ عزّ وجل ـ

ـ داعي الله: داعي الله: هو النبي ﷺ ، وهو من قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (٤٦)** ﴾ الأحزاب، أي: إلى توحيده وما يقرب منه. ص٢١٠

ـ **خليل الله:** خليل الله: عليه الصلاة والسلام.ص٢١١

ـ **روح الله، وكليم الله:** روح الله قال ـ تعالى ـ في ذكر عيسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ **وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ** ﴾ النساء: ١١٧.

فلذا قيل له: روح الله، كما قيل لإبراهيم خليل الله، ولموسى كليم الله ـعليهم الصلاة والسلامـ والأرواح كلها منه وله، وإنما أضيف روح الله إليه على سبيل الاختصاص.ص٢١١

ـ **أسد الله:** كان يقال لحمزة بن عبد المطلب: أسد الله؛ لِتَقَدُّمِ قَدَمِه في الحرب، وشدة إقدامه على أعداء رسول الله ﷺ .ص٢١٢

ـ **سيف الله:** سيف الله: خالد بن الوليد بن المغيرة أبو سليمان، سماه النبيﷺ سيف الله؛ لحسن آثاره في الإسلام وصدقه في قتال المشركين.ص٢١٢

ـ **جار الله:** كان الإمام أبو قاسم محمود بن عمر الزمخشري قد سافر إلى مكة

ـ حرسها الله تعالى ـ وجاور بها زماناً فصار يقال له: جار الله؛ لذلك.ص٢١٢

ـ **قواري الله:** القارِيةُ: الصالحون من الناس.ص٢١٢

ـ **ظل الله:** ظل الله: يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «السلطان ظل الله في أرضه» وفي حديث: «السلطان ظل الله في الأرض؛ لأنه يدفع الأذى عن الناس، كما يدفع الظل أذى حر الشمس» وقد يكنى بالظل عن الكنف والناحية ـ النهاية لابن الأثير.ص٢١٣

ـ **أهل الله:** كان يقال لقريش في الجاهلية أهل الله، تميزوا به عن سائر العرب من المحاسن والمكارم، والفضائل والخصائص، التي هي أكثر من أن تحصى...فلما جاء الله ـ تعالى ـ بالإسلام، وبعث منهم خير خلقه، وأفضل رسله محمداً رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه ـ تظاهر شرفهم، وتضاعف كرمهم، وصاروا على الحقيقة أهلاً لأن يدعوا أهل الله، فاستمر عليهم وعلى سائر أهل مكة، وعلى أهل القرآن هذا الاسم؛ حين قال النبي ﷺ: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**» ـ الثمار.ص٢١٤

ـ **عمال الله:** عمال الله هم الذين يعملون لله، فإما يشتغلون بعبادته وإما يجاهدون في سبيله.ص٢١٤

ـ **حزب الله:** قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ**﴾ المجادلة:٢٢ جنده وأنصار دينه.ص٢١٥

ـ **جنود الله :** الجنود : جمع جند ، وهو العسكر ، وكل مجتمع يقال له : جند ، نحو : الأرواح جنود مجندة ، وجنود الله : هم المحامون عن دينه ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)** ﴾ الصافات. ص٢١٥

ـ **وفد الله :** كتب الصاحب أبو القاسم : الحجيج وفد الله.ص٢١٦

٣٠ ـ الصبر

ـ الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه.ص٢٢١

ـ وقيل : الصبر: حبس النفس لمصادفة المكروه ، وصبر الرجل : حبس نفسه عن إظهار الجزع ، والجزع : إظهار ما يلحق المصاب من المضض والغم.ص٢٢١

ـ وعن علي ﷺ : الصبر يناضل الحدثان، والجزع من أعوان الزمان. ص٢٢١

ـ ومن أشرف نعوت الإنسان : أن يُدعى حليماً؛ لأنه لا يدعاه حتى يكون عاقلاً ، وعالماً ، ومصطبراً محتسباً ، وعَفُوًّا ، وصافحاً ، ومحتملاً ، وكاظماً ، وهذه شرائف الأخلاق ، وكرائم السجايا والخصال.ص٢٢٢ ـ ٢٢٣

٣١ ـ انتهاز الفرصة

ـ من كلام ابن المعتز: إهمال الفرصة حتى تفوت عجز ، والعجلة قبل التمكن خُرْق.ص٢٢٤

ـ وقال علي بن أبي طالب ﷺ : «من الخُرْق المعالجة قبل الإمكان ، والأناة بعد الفرصة» ـ الخرق ـ بالضم ـ الحمق وضدُّ الرفق ، والأناةُ : التأني ،

والفرصةُ: ما يمكنك من مطلوبك، ومن الحكم: أن لا تتعجل حتى تتمكن، وإذا تمكنت فلا تهمل.ص٢٢٤

_ وقال علي بن إسحاق الزاهي وقيل لغيره:

بادِرْ إذا حاجةٌ في وقتها عرضت فللحوائج أوقات وساعاتُ
إن أمكنت فرصة فانهض لها عجلاً ولا تؤخرْ فللتأخيرِ آفاتُ

ص٢٢٤

_ سئل أنو شروان _ ما أعظم المصائب؟ فقال: أن تقدر على المعروف فلا تصنعه حتى يفوت.ص٢٢٥

٣٢ _ ما قاله أبو بكر الصديق عند موته

_ لما احتضر أبو بكر ﷺ، جاءت عائشة _ رضي الله عنها _ فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاقَ بها الصدْرُ

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذا، ولكن قولي: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾ انظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما، وكفنوني فيهما؛ فإن الحيَّ إلى الجديد أحوج من الميت.ص٢٢٨

_ وقالت عائشة _ رضي الله عنها _ عند موته:

وأبيضُ يستقي الغمام بوجههِ ربيعُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

فقال أبو بكر: ذلك رسول الله ﷺ.ص٢٢٨

_ ودخلوا عليه فقالوا: ألا ندعوا لك طبيباً ينظر إليك؟ قال: قد نظر إليَّ

طبيبي، وقال: إني فَعَّال لما أريد.ص٢٢٨

ـ ودخل عليه سلمان الفارسي ـ رضي الله تعالى عنه ـ يعوده فقال: يا أبا بكر: أوصنا، فقال إن الله فاتح لكم الدنيا؛ فلا تأخذن منها إلا بلاغك.ص٢٢٨

ـ وقال عند موته لعمر ـ رضي الله عنهما ـ : والله ما نمت فحلمت، وما شبعت فتوهمت، وإني لعلى السبيل ما زغت، ولم آل جهداً، وإني أوصيك بتقوى الله، وأحذرك يا عمر نفسك، فإن لكل نفسٍ شهوةً إذا أُعطِيَتْها تمادت فيها، ورغبت فيها.ص٢٣٠

٣٣ ـ زلة الرأي واللسان

ـ الزلة: الخطيئة، والذنب، والسقطة في مقال، ونحوه.ص٢٣١

ـ وقال بعضهم: رحم الله من أطلق ما بين كفيه، وحبس ما بين فكيه.ص٢٣٢

ـ ومن الحكم: إذا زللت فارجع، وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فاقلع.ص٢٣٤

٣٤ ـ الإعراض عما يخل بالمروءة

ـ قال الحماسي:

وأعرضُ عن مطاعمَ قد أراها فأتركها وفي بطني انطواء

يقول: تعرض لي مطاعم فيها دنس، فأتركها وبطني جائع؛ مخافة العار والإثم.ص٢٣٦

ـ وقيل: إن الخليل بن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أتى إليه رسول الخليفة يطلبه ـ وهو جالس

يبل خبزاً يابسًا في ماء، فإذا انتقع أكله _ فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال له: ما دمت أجد هذين فإني لا أحتاج إليه.ص٢٣٨

_ وكان الخليل متقللاً من الدنيا، صبوراً على العيش الخشن الضيق، وكان يقول: لا يتجاوز همي ما وراء بابي.ص٢٣٨

٣٥ _ لا تهتم لرزق غدك

_ قال الشاعر:

إنَّ ربًّا كفاك بالأمس ما كا ... ن سيكفيك في غدٍ ما يكونُ

ص٢٣٩

_ وقال آخر:

لو كان في صخرةٍ صماءَ راسيةٍ ... في البحر ململمةٍ مُلْسٍ نواحيها

رزق لِعَبْدٍ يراه الله لانصدعت ... حتى يؤدى إليه كلُّ ما فيها

أو كان تحت طباق السبع مسلكُها ... لسهَّل الله من قرب مراقيها

حتى ينال الذي في اللوح خُطَّ له ... إما أتته وإلا كان يأتيها

ص٢٣٩

_ وقال محمد بن إدريس الأندلسي (الوفيات ج١ ص٢٧٨):

مَثَلُ الرزقِ الذي تطلبه ... مَثَلُ الظلِّ الذي يمشي معكْ

ص٢٤٠

_ وقال ابن زريق:

وما مجاهدةُ الإنسانِ واصلةٌ ... رزقاً ولا دعةُ الإنسان تَقْطَعهُ

قد قسَّمَ الله بين الخلقِ رِزْقَهُمُ ... لم يَخْلُقِ اللهُ مِنْ خلقٍ يضيِّعهُ

ص٢٤١

٣٦ ـ حلم الأحنف وقيس بن عاصم

ـ كان الأحنف سيد قومه، موصوفًا بالعقل والدهاء، والعلم والحلم.

وكان من سادات التابعين، يضرب بحلمه المثل، فعن الحسن قال: ما رأيت شريف قوم أفضل من الأحنف.ص٢٤٢

ـ وقال زياد: إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية، ولا يضره العزل.ص٢٤٢

ـ وسئل خالد بن صفوان عن الأحنف بم ساد، فقال: بفضل سلطانه على نفسه.ص٢٤٢

ـ وقيل للأحنف بم سدت، قال: بالخلق السجيح ـ السهل ـ والكف عن القبيح، وتجنب الدني، وترك اللسان البذي.ص٢٤٢

ـ وقيل له: ما أحلمك! قال لست بحليم، ولكني أتحالم، والله، إني لأسمع الكلمة فأحلم لها ثلاثاً ما يمنعني من الجواب عنها إلا خوفي من أن أسمع شراً منها.ص٢٤٢ ـ ٢٤٣.

ـ وقال الميداني: «كان الأحنف حليماً، موصوفاً بذلك، حكيماً مُعْتَرَفاً له به، ثم قال: «وسئل هل رأيت أحلم منك؟ قال: نعم، وتعلمت منه الحلم قيل: من هو؟ قال قيس بن عاصم المِنْقري» ص٢٤٣

ـ وكان الأحنف بن قيس يقول: إنما تعلمت الحلم من قيس ابن

عاصم.ص٢٤٣

ـ وقال ابن الأعرابي: قيل لقيس: بماذا سدت قومك؟ فقال بثلاثٍ: بَذْلِ الندى، وكفِّ الأذى، ونصر الولي.

ـ وقال الأحنف: لقد اختلفنا إلى قيس بن عاصم في الحلم، كما نختلف إلى الفقهاء في الفقه.ص٢٤٤

٣٧ ـ دع عنك من كره صحبتك

ـ من أمثال العرب قولهم:

خل سبيل من وهى سقاؤُه ومن هُرِيقَ بالفلاة ماؤه

قال الميداني: يضرب لمن كره صحبتك وزهد فيك.ص٢٤٥

ـ وقال شاعر:

وكل خليلٍ ليس في الله ودُّه فإني به في وده غير واثقِ

ص٢٤٦

ـ ومما يتعلق بذكر الود قول بعضهم (اللباب لأسامة ص٣٢١):

إذا ما أخي يوماً تولَّى بوده وأنكرت منه بعض ما كنت أعرفُ

عَطَفت عليه بالمودة إنني على مُدْبر الإخوان بالودِّ أَعْطِفُ

وإغضاؤك العينين عن عيب صاحبٍ لعمرك أبقى للوداد وأشرفُ

ص ٢٤٧

ـ وقال آخر:

إن الصديق إذا رآك مخالفاً لهواه بدَّل وده بعقوقٍ

فاخفض جناحك للصديق متابعاً أهواءه أو عشْ بغير صديقِ

ص٢٤٧

٣٨ _ كلمات للأحنف بن قيس

_ قال الأحنف: ما عرضتُ النَّصفَةَ قط على أحد فقبلها إلا دخلتني له هيبة، ولا ردها إلا اختبأتها في عقله.ص٢٥٠

_ وقال له رجل: دلني على المروءة، فقال: عليك بالخلق الفسيح، والكف عن القبيح، ثم قال: ألا أدلك على أدوأ الداء، قال: بلى قال: اكتساب الذم بلا منفعة.ص٢٥٠

_ وسئل عن المروءة فقال: التفقه في الدين، وبر الوالدين، والصبر على النوائب.ص٢٥٠

_ ويروى عن الأحنف قال: لا مروءة لكذوب، ولا إخاء لملول، ولا سؤدد لسيئ الخلق.ص٢٥٠

_ ومن كلمات الأحنف قوله: إياكم ورأيَ الأوغادِ، قالوا: وما رأيُ الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عاراً.ص٢٥٠ _ ٢٥١.

_ وأتى الأحنفُ بنُ قيسٍ مصعبَ بنَ الزبير فكلمه في قوم حبسهم، فقال: أصلح الله الأمير: إن كانوا حُبسوا في باطلٍ فالحق يخرجهم، وإن كانوا حُبسوا في حق فالعفو يسعهم، فخلاهم.ص٢٥١

_ وقال الأحنف: ما خان شريف، ولا احتجب كريم، ولا كذب عاقل.ص٢٥١

٣٩ ـ عزة النفس

ـ قال المتنبي:

وإني لمن قومٍ كأن نفوسنا بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما

فلا عَبَرت بي ساعة لا تُعِزُّني ولا صحبتني مهجة تقبلُ الظلما

ص٢٥٣

ـ ومن الكلم النوابغ: إن لم تكن ذا عرنين أشم، كنت لريح الذلّ أشم.ص٢٥٣

ـ وقال الفرزدق: من قصيدة يمدح بها علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ:

في كفه خيزرانٌ ريحه عبق من كف أروع في عرنينه شمم

يُغْضي حياءً ويُغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

ص٢٥٤

ـ وقال علي بن الحسن الشهير بصرّ درّ: (عن ديوانه):

كل النكال أطيق إلا ذلةً إن العزيزَ عذابه بالهوانِ

هذا البيت من قصيدة، منها:

يا عينُ مثل قذاكِ رؤيةُ معشرٍ عار على دنياهُمُ والدينِ

لم يشبهوا الإنسانَ إلا أنهم متكوّنون من الحما المسنونِ

نَجَس العيون فإن رأتهم مقلتي طهرتُها فنزحت ماء جفوني

أنا إن هُمُ حسبوا الذخائر دونَهم أو هم ـ إذا عدّوا الفضائل ـ دوني

ص٢٥٥

٤٠ _ علامات العاقل وأوصافه

_ يقال: من علامات العاقل حسن سمته، وطول صمته.ص٢٥٦

_ وقالوا: من علامة العاقل ثلاثة: تقوى الله، وصدق الحديث، وترك ما لا يعني.ص٢٥٦

_ وفي حكمة داود: على العاقل أن يكون عالماً بأهل زمانه، مالكاً للسانه، مقبلاً على شأنه.ص٢٥٦

_ وقال بعض الحكماء: أربعة تدل على صحة العقل: حب العلم، وحسن الحلم، وصحة الجواب، وكثرة الصواب.ص٢٥٦

_ ومن رسالة للخوارزمي: «....والعاقل إذا أبغض أنصف، وإذا أحبّ ألطف».ص٢٥٦

٤١ _ المتغابي

_ المتجاهل عن الشيء وهو عارف به، وهو مما يحمد به الرجل.

قال حبيب[1]:

ليس الغبي بسيدٍ في قومه   لكن سيد قومه المتغابي

ص٢٦٧

٤٢ _ الهوى الهوان

١_ يعني أبا تمام.

ـ الهوى بالقصر: العشق يكون في الخير والشر.قاله المجد.ص٢٧٦

ـ وفي أخبار الأول للإسحاقي ص٧٠ ما لفظه: «تعريف الهوى: هو ميل النفس إلى الشهوة ـ حلالاً أو حراماً ـ ».ص٢٧٦

ـ وجاء في أدب الدنيا للماوردي ص٨ ما يتلو: قال أعرابي: الهوى هوان ولكن غلط باسمه، فأخذه الشاعر وقال:

إن الهوان هو الهوى قُلب اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا

ص٢٧٧

ـ وقال آخر:

نون الهوان من الهوى مسروقة وصريعُ كل هوىً صريعُ هوان

ص٢٧٧

٤٣ ـ العقل والأدب

ـ قيل: إذا جمع المعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المتعلم: الصبر، والتواضع، وحسن الخلق.

وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المعلم: العقل، والأدب، وحسن الفهم.ص٢٨٣

ـ وقالوا: لا عقل إلا بأدب، ولا أدب إلا بعقلٍ.ص٢٨٣

ـ وقال الإمام مالك رحمه الله لفتىً من قريش: يا ابن أخي، تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم.ص٢٨٥

ـ والأدب الذي تعرفه العرب: هو ما يحسن من الأخلاق، وفعل المكارم،

مثل ترك السفه، وبذل المجهود، وحسن اللقاء.ص٢٨٥

٤٤ _ لا تتلهف على ما فات

_ يقول تلهَّفَ على الفائت: تحّسرَ _ الأساس.

ولهِفَ _ بالكسر _ يلهَفُ لهفاً أي: حَزِنَ وتحسَّرَ، وكذلك التلهف على الشيء، وقولهم: يا لهف فلانٍ: كلمةٌ يتحسر بها على ما فات.قاله الجوهري.ص٢٩١

_ قال أبو بكر ابن النطاح:

ولم أتنفس الصعداء لهفاً على عيش تداعى بانقضاب

أطالع ما أمامي بابتهاجٍ ولا أقفو المولّي باكتئاب

ص٢٩١

_ وقال عبد الرحمن بن يزيد الهمذاني:

باقٍ على الحدثات غير مكَذَّبٍ لا كاسفٌ بالي ولا متأسَّفُ

إن نلت لم أفرح بشيءٍ نلته وإذا سُبِقْتُ به فلا أتلهفُ

ص٢٩١

_ وقال عبد الله بن الزبير الأسدي:

ولا تراني على ما فات مكتئباً ولا تراني إلى ما قِيدَ مبتهجا

ص٢٩٢

_ وقال كعب بن زهير: _ يصف الصحابة _ رضي الله تعالى عنهم _:

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

ص٢٩٢

٤٥ ـ تبادل الآراء

ـ وقال الشاعر:

وإذا الأمور عليك يوماً أشكلت فاعمد لرأي أخٍ نصيح مرشدِ
واحفظ نصيحة من بدا لك ودُّهُ وبرأي أهل الخير جَهْدَكَ فاهتدِ

ص٢٩٤

ـ قال عبد الله بن المعتز: من شاور لم يعدم في الصواب مادحاً، ولا في الخطأ عاذراً.ص٢٩٥

ـ وقال بشار بن برد: المشاور بين إحدى الحسنين: صواب يفوز بثمرته، أو خطأ ويشارك في مكروهه.ص ٢٩٥

ـ قال الحسنﷺ: والله ما تشاور قوم قط إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم.ص٢٩٦

٤٦ ـ الورع

ـ الورع محركة: التقوى والتحرج، والكف عن المحارم، وقيل: الورع: الكف عن الشبهات فضلاً عما لا يحل.ومن أمثال العرب (الشبهة أخت الحرام) ص٢٩٩

ـ وكان الحسن بن علي بن أبي طالبﷺ حليماً كريماً ورعاً، دعاه ورعه وحلمه إلى ترك الدنيا والخلافة لله ـ عز وجل ـ.ص٢٩٩

٤٧ ـ أفذاذ من أصحاب الهمم السامية

ـ أخرج ابن المبارك، عن ابن عيينة، عن موسى بن أبي عيسى: أن رجلاً استقرض من قيس بن سعدٍ ثلاثين ألفاً، فلما ردها إليه أبى أن يقبلها.ص٣٠٣

ـ ومرض قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه فاستبطأ إخوانه عن عيادته، فسأل عنهم، فقيل: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّين، فأمر منادياً نادى كل مَنْ كان لقيس عليه دينٌ فهو في حلّ منه، فكُسِرَتْ درجته بالعشيِّ لكثرة من عاده.ص٣٠٣

ـ قيل: اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بسبعين ألف درهم، فلما كان بالليل سمع بكاء آل خالدٍ، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قال: يبكون من أجل دارهم، قال: يا غلام ائتهم فاعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً.ص٣٠٣

٤٨ ـ المدارة

ـ المدارة: حسن الخلق والمعاشرة مع الناس.ص٣١٣

ـ ومن المقامة القهقرية الحريرية ـ قوله: «واستعمال المداراة، يوجب المصافاة».ص٣١٣

ـ وقرأت في كتاب خاص الخاص للثعالبي ص١٢ ـ كلمة بعنوان المداراة، وهي هذه: «العرب[1]: إذا عَزَّ أخوك فَهِنْ ـ بكسر الهاء ـ: أي إذا عاسرك

١ـ يعني قالت العرب.

فياسره، الخاصةُ[١]: لاينْ إذا عَزَّكَ أي «غلبك» من تخاشنه.ص٣١٤

٤٩ ـ الحج والحجيج

ـ الحج في الأصل القصد، وقد خُصَّ في تعارف الشرع بقصد بيت الله ـتعالىـ إقامة للنسك.ص٣٢١

ـ الكريمان: الحج والجهاد.ص٣٢٢

ـ الحاجّ والداجّ: ومن أمثال العرب: (ما حج ولكنه دَجَّ) ـ يقال: هم الحاج والداج، قالوا: الداج: الأعوان والمكارون، ويقال: الداج: الذي خرج للتجارة وهو من دج يدج دجيجاً أي دبَّ.

ـ وجاء في مستدرك التاج ما يتلو: «وقولهم: أقبل الحاج والداج ـ يمكن أن يراد به الجنس، وقد يكون اسماً للجمع كالجامل، والباقر، وروى الأزهري، عن أبي طالب في قولهم: ما حج ولكنه دج، قال: الحج: الزيارة والإتيان، وإنما سمي حاجاً بزيارة بيت الله تعالى، قال: والداج: الذي يخرج للتجارة» .ص٣٢٣

ـ الثجُّ: سيلان دم الهدْي والأضاحي.ص٣٢٣.

ـ العجُّ: رفع الصوت بالتلبية.ص٣٢٣

ـ لبيك وسعديك: قال الزجاج: إنما يستعمل هكذا في لفظ التثنية، قال سيبويه: سألت الخليل عن اشتقاقه ومعناه: فقال: لبيك من الإلباب، يقال:

١ـ يعني قالت الخاصة.

أَلَبَّ الرجل بالمكان إلباباً إذا أقام به ، فإذا قال لبيك : فكأنه قال : أنا مقيم عند أمرك.
وسعديك : مأخوذ من الإسعاد ، والإسعاد والمساعدة سواء ، فإذا قال لله ـعز وجلـ : لبيك وسعديك في التلبية ، فكأنه قال : أنا مقيم عند أمرك ومتابع له ، فقد تقرب منه بهواه لا ببدنه.اهـ كلامه.ص٣٢٤

٥٠ ـ محاسن السفر ومعائبه

ـ من فضل السفر : أن صاحبه يرى من عجائب الأمصار ، وبدائع الأقطار ، ومحاسن الآثار ، ما يزيده علماً ، ويفيده فهماً بقدرة الله وحكمته ، ويدعوه إلى شكر نعمته ، ويسمع العجائب ، ويفتح المذاهب ، ويجلب المكاسب ، ويشد الأبدان ، وينشط الكسلان ، ويسلي الأحزان ، ويطرد الأسقام ، ويشهي الطعام ، ويحط سورة الكبر ، ويبعث على طلب الذكر.ص٣٣٣

ـ وقال الشاعر :

سافر تجد رتب المفاخر والعلا ... كالدرّ سار فصار في التيجان
وكذا هلال الأفق لو ترك السرى ... ما فارقته معرة النقصان

ص٣٣٣

ـ وقال الطغرائي ـ (واسمه الحسين بن علي) :

إن العلا حدثتني وهي صادقة ... فيما تحدث أن العز في النَّقَلِ
لو أن في شرف المأوى بلوغَ منىً ... لم تبرحِ الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ

ص٣٣٣

ـ وقال آخر :

تغرَّب عن الأوطان في طلب العلى ... وسافر ففي الأسفار خمس فوائدِ

تَفَرُّجُ همٍّ واكتسابُ معيشةٍ وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجدِ

ص٣٣٤

٥١ _ معائب السفر:

_ قال بعض الحكماء: معائب السفر سبعة، الأول: مفارقة الانسان من يألفه، الثاني: مقارنة من لايشاكله.

الثالث: المخاطرة بما يملكه.

الرابع: مخالفة عادته في مأكله ومنامه.

الخامس: مجاهدة الحَرّ والبرد بنفسه.

السادس: احتمال مِنَّةِ الملاح والمكاري.

السابع: السعي كل يوم في تحصيل منزل جديد.ص٣٣٤

_ ومما نطقت به العرب على التثنية تقول: العذابان: السفر، والبناء.

_ وفي الآثار: عذابان لا يُشْعَر بهما: السفر والبناء؛ لأن السفر، ينهك البدن، والبناء؛ ينهك المال.ص٣٣٥

٥٢ _ عز التقى

_ جاء في الثمار للثعالبي ص٥٤٨ ما يتلو: عزّ التقى: يقال: إنه لم يمدح عالم بأحسن من قول ابن خياط في الإمام مالك بن أنس _رحمة الله عليه_ :

يأبى الجوابَ فما يراجعُ هيبةً والسائلون نواكس الأذقان

هذا التقيُّ وظلُّ سلطان التقى لهو المهيب وليس ذا سلطان

ص٣٤٧

ـ وجاء في الزهر للحصري ج١ ص٦٩ ما لفظه: وقال ابن الخياط المكي، واسمه عبد الله بن سالم، في باب الهيبة في مالك بن أنس الفقيه ـ رحمة الله عليه ـ وقيل: إن هذا من قول ابن المبارك:

يأبى الجواب فما يراجع هيبة   والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعزُّ سلطان التقى   لهو المهيب وليس ذا سلطان

ص٣٤٧

٥٣ ـ العقل والهوى

ـ قال وهب بن منبه: العقل والهوى يصطرعان فأيهما غلب مالَ لصاحبه. ص٣٤٩

ـ وقال بعض الحكماء: إذا غلبَ العقلُ الهوى صرف المساوئ إلى المحاسن؛ فجعل البلادة حلماً، والحدة ذكاءً، والمكر فطنة، والهذرَ بلاغة، والعيَّ صمتاً، والعقوبة أدباً، والجبنَ حذراً، والإسراف جوداً.ص٣٤٩

ـ وقال بعض الحكماء: العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع.ص٣٤٩

ـ وأنشد الزمخشري:

فالعقل هادٍ لا يزيغ إلى   بصيرة عن سداد الرأي مأفوكة
ومن يَقُدْهُ هواه في خزامته   فذاك بين ذوي الألباب أضحوكة

ص٣٤٩ ـ ٣٥٠

ـ وآفة العقل الهوى فمن علا   على هواه عقله فقد نجا

ص٣٥٠

ـ وقال الشاعر:

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوي يزداد تنويرا

ص٣٥٠

ـ وقال طاووس: ما قلادة نظمت من در وياقوت بأزين لصاحبها من العقل، ولو ناصح المرء عقله لأراه ما يزينه مما يشينه، فالمغبون من أخطأ حظه من العقل.ص٣٥١

ـ وقيل في المثل: العقل وزير ناصح، والهوى وكيل فاضح، أي: كاشف للمساوي ومظهر إياها.ص٣٥١

٥٤ ـ جود سعد بن قيس بن عبادة الصحابي رضي الله عنه

ـ جاء في (عيون الأخبار) لابن قتيبة ما لفظه: «وقعت عجوز على قيس ابن سعد، فقالت: أشكو إليك قلة الجرذان، قال: ما أحسن هذه الكناية! املؤا بيتها خبزاً ولحما وسمناً وتمراً».ص٣٥٣

الحادي عشر: نقولات مختارة من كتاب:

نوادر في الأدب لمحمد المكي بن الحسين

المؤلف: سبقت ترجمته عند الحديث عن كتاب حكم وأخلاق عربية.

_ «**تعريف بالكتاب**»:

ما يقال عن الكتاب السابق _ حكم وأخلاق عربية _ يقال عن هذا الكتاب تقريباً.

فهذا الكتاب يحتوي على مقالات في الأدب تتضمن تعليقات، أو تصويبات، أو استدراكات، أو تحقيقات، أو شروح لأبيات.

كما أنه يحتوي على مقالات ولطائف أخرى في هذا الشأن.

والكتاب يقع في ٢٧٢، صفحة مقاس ١٧×٢٥سم، وقد جمعه الأستاذ علي الرضا الحسيني، وهو من مطبوعات الدار الحسينية للكتاب ١٤١٦هـ_١٩٩٥م.

ـ **«النقولات المنتقاة» : قال** رَحِمَهُ اللهُ :

١ ـ راحة المحزون

ـ قال ذو الرمة :

خليلي عوجا من صدور الرواحل بجمهور حُزوى فابكيا في المنازل

لعل انحدار الدمع يعقب راحة إلى القلب أو يشفي نجيَّ البلابل

وجاء في المحاضرات للأصبهاني ج٢ : ٣٦ ما يأتي :

وقال ابن عباس : كنت إذا حرجت أمتنع من البكاء حتى سمعت قول ذي الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجي البلابل

فصرت أشتفي من الوجد به.ص٤٠.

ـ وقال المتنبي :

إن خير الدموع عيناً لَدَمْعُ بعثته رعايةٌ فاستهلاً

قال العلامة العكبري :

يقول : إن خير الدموع لدمع سببه رعاية العهد، وهو عون على الحزن؛ وذلك أن الدمع يخفف برح الوجد؛ كما قال ذو الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي لداء البلابل

وجاء في الكامل للمبرد ج١ : ٦١ ما لفظه :

قال أبو العباس : وقال أبو بكر بن عياش : نزلت بي مصيبة أوجعتني فذكرت قول ذي الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجي البلابل

فخلوت ، فبكيت؛ فسلوت.ص٤٠ ـ ٤١.

٢ ـ أشعار كان يتمثل بها بعض السلف ـ رضي الله عنهم ـ

ـ قال ابن عباس : كان أبو بكر كثيراً ما ينشد :

إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك في زي مسكين

ذاك الذي حسنت في الناس قالته وذاك يصلح للدنيا وللدين

ص٤٤

ـ وقال سفيان الثوري بلغني أن عمر بن الخطاب كان يتمثل :

لا يغرَّنْك عِشاءٌ ساكنٌ قد يوافي بالمنيات السَحَرْ

ص٤٤

ـ وكان معاوية كثيراً ما ينشد :

إنا إذا مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقائلِ

واعتلج الناس بألبابهم نقضي بحكم عادل فاصلِ

نخاف أن تَسْفَهَ أحلامُنا فَنَخْمِلَ الدهرَ مع الخاملِ

ص٤٤

ـ وقال موسى بن عبد الله الخزاعي : بلغني أن عمر بن عبد العزيز كان لا يجف فوه من هذا البيت :

ولا خير في عيشِ امرءٍ لم يكن له مع الله في دار القرار نصيبُ

ص٤٤ ـ ٤٥

ـ وكان سفيان الثوري رحمه الله كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

ابلُ الرجالَ إذا أردت إخاءهم وتوسمنَّ إخاءهم وتفقَّدِ
فإذا وجدتَ أخا الأمانة والتقى فبه اليدينِ قريرَ عينٍ فاشددِ
كم من صديقٍ في الرخاء مُساعدٍ وإذا أردت حقيقةً لم توجدِ

ص٤٥

ـ وكان الشافعي رحمه الله ينشد:

إذا رأيت شباب الحي قد نشأوا لا يحملون قلالَ الحبرِ والورقا
ولا تراهم لدى الأشياخ في حلق يعونَ من صالح الأخبار ما اتسقا
فعدِّ عنهم ودعهم إنهم هَمَجٌ قد بدلوا بعلوِّ الهمة الحُمُقَا

ص ٤٥

ـ وكان الحسن البصري يتمثل بهذين البيتين، أحدهما في أول النهار، والآخر في آخر النهار:

يسر الفتى ما كان قدم من تقى إذا عرف الداء الذي هو قاتله

والآخر:

وما الدنيا بباقية لحي ولا حي على الدنيا بباق

ص ٤٥

ـ وكان سيبويه كثيراً ما ينشد:

إذا بَلَّ من داء به ظن أنه نجا وبه الداء الذي هو قاتله

ص ٤٦

٣ ـ سانحة

ـ قال أبو تمام ـ أحد شعراء القرن الثالث للهجرة ـ يرثي بني حميد من قصيدة:

ويضحك الدهر منهم عن غطارفةٍ كأن أيامهم من حسنها جُمَعُ

هذا البيت يدل على أن المسلمين كانوا في القرون الأولى يحتفلون بيوم الجمعة احتفالاً عظيماً، ولعلنا لم نكن مخطئين إذا فهمنا من فحوى البيت أن احتفالهم بذلك اليوم كان لا يقل عن احتفالهم وابتهاجهم بيومي عيد الفطر والأضحى؛ ولو لم يكن ذلك كذلك لما شبه الشاعر أيام الممدوحين في حسنها بأيام الجمعات.

أما تظاهر المسلمين بجميع ما في وسعهم من العناية بيوم الجمعة فذلك لأسباب:

منها: ما ماز به الدين الإسلامي في ذلك اليوم، وخص به المكلفين بأداء فريضة الجمعة، من اغتسال، وتحسين هيئة، وجميل ثياب، وتطييب لغير النساء.

ومنها ـ أيضاً ـ : حضور الخلفاء صلاة الجمعة، وخروجهم لها مصحوبين برجال دولتهم إلى المسجد الجامع، وكذلك يفعل أمراؤهم وعمالهم في البلاد القاصية عن مقر الخلافة.

وإن في اجتماع الأمة بكبرائها ما يبعث في النفوس بهجة وارتياحاً.

ومنها ـ أيضاً ـ : أن المدن والقرى تكتظ يوم الجمعة بالوافدين من ضواحيها لصلاة الجمعة، وغيرُ خفيٍّ ما ينتج عن ذلك الاجتماع من الإيناس، وتبادل

الآراء، والمصالح الاجتماعية والاقتصادية.

وبذلك يتبين لنا أنه بوجود هذا اليوم في الإسلام لم تفقد المنافع التي كانت للعرب في سوق عكاظ وغيره من أسواقهم.

هذا وإن الأسباب التي بيناها ـ آنفاً ـ هي كافية وداعية إلى اهتمام المسلمين وعنايتهم بيوم الجمعة، الجامع بين مظاهر الدنيا والدين.ص ٥٥ ـ ٥٦

٤ ـ تعلموا العربية

ـ كتب عمر إلى أبي موسى ـ رضي الله عنهما ـ: أما بعد: فتفقهوا في السنة، وتعلموا العربية.ص٦٢

ـ عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب: عليكم بالفقه في الدين، وحسن العبادة، والتفهم في العربية.

عن أبي عمر بن العلاء قال: قال عمر بن الخطاب: تعلموا العربية؛ فإنها تثبت العقول، وتزيد في المروءة.ص٦٢

ـ وقال عبد الملك بن مروان: أصلحوا من ألسنتكم؛ فإن المرء تنوبه النائبة؛ فيستعير الثوب والدابة، ولا يمكنه أن يستعير اللسان.ص٦٣

٥ ـ بيتان من شعر الأعشى

ـ وقال السيد مرتضى في شرح القاموس ج٢: ٣٩٨ ما نصه: ومما يستدرك عليه «شاجردى» وقد جاء في شعر الأعشى:

وما كنت شاجردى ولكن حسبتي إذا مسحل سدَّى لي القول أنطق

شريكان فيما بيننا من هوادة صبيان جنيٌّ وإنسٌ موفق

قال البكري: ورواه أبو عبيدة «شاقردي»[1] وهو المتعلم، ومسحل: شيطانه، و «حسبتي» ـ هنا ـ : بمعنى اليقين، أورده شيخنا ـ هكذا ـ واستدركه في آخر المادة، قلت: وهو معرب عن شاكرد ـ بكسر الكاف ـ بالفارسية وهو المتعلم.اهـ كلام السيد.

وكان الأعشى يفد على ملوك فارس؛ ولذلك كثرت الفارسية في شعره.ص٧٨

٦ ـ تفسير بيت من الشعر

ـ من أمثالهم (أكل عليه الدهر وشرب) يضرب لمن طال عمره، يريدون أكل وشرب دهراً طويلاً، وقال:

كم رأينا من أناس قبلنا شرب الدهرُ عليهم وأكلْ

ص٧٩

٧ ـ تعليقات على أبيات من شعر أبي تمام

ـ ولم تزل الشعراء تذكر كراهيتها للوداع وهربها منه؛ لما يتصور فيه من ألم الفرقة، وغصص الوحشة؛ وهذا معروف مشهور، وقد قال فيه أبو تمام:

ءآلفة النحيب كم افتراق أضلَّ فكان داعية اجتماعِ

وليست فرحة الأوبات إلا لموقوفٍ على تَرَحِ الوداعِ

فجعل للوداع ترحاً يقابل فرح الإياب، وهذا صحيح.اهـ كلام السيد.ص٨٦

---

١ ـ لعل هذا هو معنى الكلمة العامية (شِقَردي) فهم يقولونها إذا أرادوا الثناء على أحد بأنه متقن شهم.

٨ _ لطائف الأدباء

_ ما زال المتأدبون يحنون إلى استماع ما يصدر عن الأدباء من اللطائف التي تبعث في الأرواح انتعاشاً، وفي الصدور انشراحاً.ص٩٤

_ فمن ذلك ما حكي أن هارون الرشيد لما سمع قول الشاعر:

تراه في الأمْنِ في دِرْعٍ مُضاعفةٍ لا يأمن الدهرَ أن يُدعى على عَجَلِ

سأل عنه وعمن قيل فيه، فقيل له: لمسلم بن الوليد الشاعر، في قائد الجيوش يزيد بن مزيد الشيباني، وكان يزيد يقول للرشيد: والله يا أمير المؤمنين، لأحرصن على أن لا أكذب شعرائي فيما يمدحونني به، فأمر الرشيد بإحضار يزيد على الحالة التي يصادف عليها، فأحضروه وعليه ثياب خلوته ملونة، فلما نظر إليه الرشيد في تلك الحالة، قال: أكذبت شاعرك يا يزيد؟ قال: فيم يا أمير المؤمنين؟ قال في قوله:

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

فقال يزيد: لا والله يا أمير المؤمنين، ما أكذبته، وإن الدرع عليَّ ما فارقتني، وكشف ثيابه، وإذا عليه درع مظاهرة.ص٩٤

_ ومن اللطائف المستحسنة: ما حكاه المدائني، قال:

أتى عُويف القوافي باب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فحجب أياماً، ثم أذن له، فلما قام بين يديه، قال:

أجبني أبا حفصٍ لقيت محمداً على حوضه مستبشراً بدعاكا

فقال عمر: أقول: لبيك وسعديك، فقال:

وأنت امرؤ كلتا يديك طليقةٌ شمالك خيرٌ من يمين سواكا

وهذا مأخوذ من قولهم: شمالك أندى من يمين غيرك.

علام حجابي زادك الله رفعة وفضلاً وماذا للحجاب دعاكا

فقال عمر: ليس ذاك إلا لخير، وأمر له بصلة.ص٩٥

ـ ووفد إليه جرير وأقام ببابه أياماً لا يؤذن له، فبينما هو كذلك يوماً وقد أزمع على الرحيل، إذ مر به عديّ بن أرطاة، فقال جرير:

يا أيها الراكب المزجي مطيته هذا زمانك إني قد مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أني لدى الباب كالمصفود في قرن

فدخل عدي على عمر، وذكر أمر جرير، فأذن له، فدخل وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة في الإمام العادل

قد نال عدلك من أقام بأرضنا فإليك حاجة كل وفد راحل

فلما مثل بين يديه قال له: ويحك يا جرير، اتق الله، ولا تقل إلا حقاً، ثم أنشده قصيدة ختمها بقوله:

فما وجدت لكم نداً يعادلكم وما علمت لكم في الناس من خطر

إني سأشكر ما أوليت من حسن وخير من نلت معروفاً ذوو الشكر

وعندما استوفاها وصله بشيء من حر ماله، فخرج جرير وهو يقول: خرجت من عند أمير المؤمنين، وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإني عنه لراض.ص٩٥ ـ ٩٦

ـ ومن اللطائف النادرة ما روي عن ابن جريج أنه قال:

ما ظننت أن الله ـ عز وجل ـ ينفع أحداً بشعر عمر بن أبي ربيعة، حتى سمعت وأنا باليمن منشداً ينشد قوله:

بالله قولي له في غير معتبةٍ ماذا أردتَ بطول المكث في اليمنِ

إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها فما أخذت بترك الحج من ثمنِ

فحركني ذلك على ترك اليمن والخروج إلى مكة، فخرجت؛ فحججت.ص٩٧

ـ ومن غرر اللطائف: ما حكاه أبو عبيدة، قال:

التقى جرير والفرزدق بمنى، وهما حاجان، فقال الفرزدق لجرير:

فإنك لاقٍ بالمنازل من منى فخاراً فخبرني بما أنت فاخرُ

فقال له جرير: بـ: لبيك اللهم لبيك، قال أبو عبيدة: أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير، ويعجبون منه.ص٩٧

ـ قلت: ومما ينخرط في سلك هذه النادرة ما حاكاه الإمام المبرد، قال: «التقى الحسن البصري والفرزدق في جنازة، فقال الفرزدق للحسن: أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد؟ قال: وما يقولون؟ قال: يقولون اجتمع في هذه الجنازة خير الناس، وشر الناس، فقال الحسن: كلا، لستُ بخير الناس ولستَ بشرهم، ولكن ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال: «شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة، وخمس نجائب لا يدركن، يعني الصلوات الخمس».

وقد روى ابن سلام أنها جنازة النَّوار امرأة الفرزدق، وقد أوصت أن يصليّ عليها الحسن، ويروى أنها جنازة أبي رجاء العطاري.ص ٩٧/٩٨.

٩ ـ نوادر أدبية خاصة بأناس أحرزوا بغيتهم بإنشاد بيتين من الشعر

ـ هذا تحرير يشتمل على نوادر أدبية خاصة بأناس قد أحرز كل منهم بغيته بإنشاد بيتين من الشعر، سواء أكان ذلك الشعر له أم لغيره من الشعراء، وإليكم البيان:

أنشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله ﷺ :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له   بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له   حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «**لا يَفْضُضِ الله فاك**» ، فيقال: إن النابغة عاش عشرين ومائة سنة لم تسقط له سن ولا ضرس، وكان كلما سقطت له ثنية تنبت له أخرى مكانها، وهو أحسن الناس ثغراً.ص٩٩

ـ وحكى أبو الوليد المكي، قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس إذ أقبل رجل أعرج يقود ناقة تظلع، حتى وقف عليه، فقال:

وإنك مسترعٍ وإنا رعيةٌ   وإنك مدعو بسيماك يا عمرْ
إذا يوم شرٍّ شره لشراره   فقد حملتك اليوم أحسابها مضر

فقال عمر: لا حول ولا قوة إلا بالله، وشكى الرجل ظلع ناقته، فقبض عمر الناقة، وحمله على جمل أحمر، وزوده، وانصرف.ص٩٩

ـ ووفد حصين بن المنذر على معاوية في جماعة من أهل العراق، فتأخر دخوله، ودخل غيره ممن كان بالباب، فقال الحصين:

وكلٌّ خفيف الحاذ[1] يسعى مشمراً إذا فتح البوّاب بابك أصبعا
ونحن الجلوس الماكثون رصانة وحلماً إلى أن يفتح الباب أجمعا

فبلغ قوله معاوية رضي الله عنه فأمر بإدخاله في أول الناس.ص١٠٠

ـ ودخل شاعر على خالد بن عبد الله القسري يوم جلوسه للشعراء وقد مدحه ببيتين ـ فلما رأى اتساع الشعراء في القول استصغر ما قال فسكت حتى انصرفوا، فقال له خالد: ما حاجتك؟ فقال: مدحت الأمير، فلما سمعت قول الشعراء احتقرت بيتيّ، فقال: وما هما، فأنشده:

تبرعتَ لي بالجود حتى نعشتني وأعطيتني حتى حسبتك تلعبُ
فأنت الندى وابن الندى وأبو الندى حليف الندى ما للندى عنك مذهبُ

فقال: ما حاجتك، فقال عليّ دين، فأمر بقضائه، وأعطاه مثله. ص١٠٠ـ١٠١

ـ ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلب وهو محبوس، فلما رآه مقيداً قال له:

أصبح في قيدك السماحة والجو دُ وحمل الديات والحسبُ
لا بَطِرٌ إن ترادفت نِعَمٌ وصابرٌ في البلاء محتسبُ

فقال له يزيد: ويحك، أتمدحني وأنا في هذه الحالة! فقال: وجدتك رخيصاً فاشتريتك! فرمى إليه يزيد بخاتم كان في أصبعه قيمته ألف دينار، وقال: هو ربحك أمسكه إلى أن يأتيك رأس المال.ص١٠١

١ـ خفيف الحاذ: قليل المال.

١٠ _ أعرابية ترتجز

_ وفي البيان والتبيين للجاحظ ج٣ : ٢٥٠ ، ما يأتي :

تزوج شيخ من الأعراب جارية من رهطه ، وطمع أن تلد له غلاماً ، فولدت له جارية ، فهجرها وهجر منزلها ، وصار يأوي إلى غير بيتها ، فمر بخبائها بعد حول وإذا هي ترقص بنيتها منه وهي تقول :

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا

فلما سمع الأبيات مرَّ الشيخ نحوهما حضراً حتى ولج عليهما الخباء ، وقال : ظلمتكما ورب الكعبة.ص١٠٥

١١ _ الجارة _ الضرة

_ العرب تكني عن المرأة بالنعجة ، والشاة ، والقلوص ، والسرحة ، والحرث ، والفراش ، والعتبة ، والقارورة ، والقوصرة ، والنعل ، والغل ، والقيد ، والظلة ، والجارة ، وبكل جاءت الأخبار ، ونطقت الأشعار.ص١١٦

_ والمرأة : جارة زوجها؛ لأنه مؤتمن عليها ، وأمرنا أن نحسن إليها ، وأن لا نعتدي عليها؛ لأنها تمسكت بعقد حرمة الصهر ، وصار زوجها جارها؛ لأنه يجيرها ، ويمنعها ، ولا يعتدي عليها.ص١١٦

_ وقال أبو هلال في جمهرة الأمثال : «قولهم : بينهم داء الضرائر» يضرب مثلاً للقوم بينهم عداوة لا تنقطع ، وحسد الضرائر وعداوة بعضهن بعضاً

دائمة، قال الشاعر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا شأوه فالكل أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه لدميم

ص١١٨ _ ١١٩

١٢ _ تداول بعض الشعراء للمعنى الواحد

_ كتب رجل إلى صديق له: مَثَلُنَا _ أعزك الله _ في قُرْبِ تجاورنا وبُعْدِ تزاورنا ما قال الأول:

ما أقرب الدار والجوار وما أبعدَ معْ قربنا تلاقينا

ص١٢٩

_ وكتب رجل إلى صديق له يستزيره: «طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند التلاقي».ص١٢٩

_ وقال الحكيم: أقرب القرب موادت القلوب وإن تباعدت الأجسام، وأبعد البعد تنافر القلوب وإن تدانت الأجسام.ص١٣٠

_ وقال الأصفهاني ج١٥ : ١٤٩ _ طبع مصر :

حدثنا حماد، عن إسحاق الموصلي، قال: حدثني أبي، قال: كان العباس بن الأحنف إذا سمع شيئاً يستحسنه أطرفني به، وأفعل مثل ذلك، فجاءني يوماً فوقف بين البابين، وأنشد لابن الدمينة:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد

الأبيات

ثم ترنح ساعة ودَبَّخَ أخرى ، ثم قال : أنطح العمود برأسي من حسن هذا ، فقلت : لا ، ارفق بنفسك. ص١٣١

١٣ _ القلم

_ قال المأمون : لله در القلم كيف يحوك وَشْيَ المملكة.ص١٨٧

_ وقال أحمد بن عبد الله : القلم راقد في الأفئدة ، مستيقظ في الأفواه.ص١٨٧

_ وقيل : عقول الرجال تحت أقلامها.ص١٨٧

_ وقال أبو الفضل الميكالي : القلم أحسنُ مطيةٍ يمشي راكبها رَهْواً ، ويكسو الأنامل زهواً.ص١٨٧

_ وقال سهل بن هرون : القلم أنف الضمير ، إذا رعف أعلن أسراره ، وأبان آثاره.ص١٨٧

_ وقال بعضهم ملغزاً في القلم :

وذي خضوع راكع ساجدٍ ودمعه من جفنه جاري
مواظب الخمس لأوقاتها منقطع في خدمة الباري

الباري : يعني الذي يبري القلم.ص١٨٩

_ الأسماء اللغوية للقلم :

اليراعة _ المذبر _ الأرقم _ المزبر _ المملول.ص١٨٩

_ وقال ابن سنا الملك : (الخزانة للحموي ص٦٤) :

ولي قلمٌ في أنملي إن هززته فما ضرني أن لا أهز المهندا

إذا جال فوق الطِّرس وقعُ صريره فإن صليلَ المشرفي له صَدا

ص١٩١

١٤ ـ قولهم هلمّ جرا

ـ قالوا في هلمَّ: أصله لُمَّ ـ مُثَقَّل ـ وها التنبيه، أسقط ألفها؛ لكثرة الاستعمال، فمعنى هَلُمَّ: لُمَّ نفسك إلينا وقرّب.ص٢١٨

ـ ومن أمثال العرب (هلم جرَّ) ـ قال المفضل: أي تعالوا على هينتكم كما يسهل عليكم ـ من غير شدة وصعوبة ـ وأصل ذلك: من الجرِّ في السَّوق، وهو أن تترك الإبل والغنم ترعى في سيرها ـالميداني ـ.

وقال العسكري في جمهرة الأمثال: «قولهم: «هلم جرا» : معناه: سيروا على هينتكم، فلا تَشُقُّوا على أنفسكم وركابكم، وأصل الجر: أن تترك الإبل والبقر ترعى وتسير» .ص٢٢٠

١٥ـ أبيات المعاني

ـ أبيات المعاني هي في اصطلاح الأدباء: ما كان باطنه يخالف ظاهره، وإن لم يكن فيه شيء من غريب اللغة ـ قاله السخاوي في سفر السعادة ـ شفاء الغليل للخفاجي ص٢٧.ص٢٢٨

ـ وقد وقفت أثناء المطالعة في كتب الأدب على جملة من أبيات المعاني التي لم أجدها في كتاب معاني الشعر لأبي عثمان الأشنانداني المطبوع بدمشق١٣٤٠هـ ولذلك أجردتها بهذا التحرير.ص٢٢٨

ـ جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٤ : ٤٢٩ ما نصه: «من أبيات المعاني:

وحللت من مضرٍ بأمنع ذَروةٍ مُنعت بحدِّ الشوك والأحجار

قالوا: يريد بالشوك أخواله، وهم قتادة وطلحة وعوسجة، وبالأحجار أعمامه، وهم صفوان وفهر وجندل وصخر وجرول» ص٢٢٨

ـ وجاء في شرح مقصورة حازم للشريف الغرناطي ج١ : ٦٥ وقال الشاعر ـوهو دعبلـ :

إذا القوس وترُها أيِّدٌ رمى فأصاب الكلا والذُّرى

وهذا البيت من أبيات المعاني، ذكر أن دعبلاً وقف عليه أعرابي وهو ينشد هذا البيت، فقال الأعرابي: يا هذا، ما عنيت بقولك؟ قال دعبل: القوس: قوس الله التي تسمى قوس قزح، مطرت الأرض بها، وأعشبت، فرعتها الإبل فسمنت كلاها وأسنمتها، فقال الأعرابي: لله دركم يا حاضرة، إنكم لتسيرون معنا فتساوون، وتتنكبون عنا فتفوتون.اهـ بشرح المقصورة.ص٢٢٣ـ ٢٢٩

الثاني عشر : نقولات مختارة من كتاب:
دع القلق وابدأ الحياة تأليف ديل كارنيجي

ـ «**تعريف بالمؤلف والكتاب**» :

هذا الكتاب من تأليف: ديل كارنيجي مؤسس معهد العلاقات الإنسانية في نيويورك.

وقد ترجمه إلى العربية عبد المنعم الزيادي.

هذا الكتاب ألف قبل ما يزيد على خمسين عاماً، ويعد من أشهر الكتب العالمية انتشاراً، حيث طبع عشرات الطبعات، بملايين النسخ، وبلغات مختلفة.

وميزة هذا الكتاب سلاسته، ووضوحه، وكثرة أمثلته، وبعده عن التعقيد.

بل يكاد أن يكون جميع ما في الكتاب معلوماً للقراء، غير أن مؤلفه صاغه بأسلوب قريب من جميع الطبقات.

يقول الزيادي ـ معرِّب الكتاب ـ ص١٣ : «وأفاق كارنيجي من دهشته على حقيقة جعلها محور رسالته في الحياة؛ تلك هي أن الناس إذا عمدوا إلى تطبيق هذه المبادئ الحكيمة المعروفة، والأمثال السائرة التي طالما جرت على ألسنة أجدادهم وجداتهم وآبائهم، وأمهاتهم، بل ربما جرت على ألسنتهم هم أنفسهم في صغرهم، ثم نسوها، أو تناسوها في كبرهم ـ إذا عمدوا إلى تطبيق هذه المبادئ والأمثال استحالت حياتهم نعيماً مقيماً، واستمتعوا في حياتهم بالسعادة والفلاح.

ومنذ ذلك الحين راح كارنيجي ينشر رسالته هذه، ويدعو الناس عامة، وطلبة معهده خاصة إلى اعتناقها إذا شاءوا أن يعيشوا في وئام مع أنفسهم ومع الناس.

ومنذ وقت ليس ببعيد أدرك كارنيجي أنه لا عناء لطلبة معهده، بل لا عناء لإنسان كائناً من كان إذا كان يرجو السعادة في الحياة، وينشد النجاح فيها أن يقهر عدواً له، يسكن في نفسه، فيقلل أمنها، ويسلبها طمأنينتها، ويقوض سلامتها، ويقف سداً منيعاً دونها وأسباب السعادة والصحة، والنجاح، ذلك العدو اللدود: هو القلق».

وبعد ذلك ـ كما يقول المعرِّب ـ: «أكبَّ كارنيجي على وضع مرجع في قهر القلق، وسلَخَ من عمره قرابة سبع سنوات في البحث عما جرى على ألسنة الأنبياء، والحكماء، والعظماء من حكم ومبادئ وأقوال تصلح لأن تكون علاجاً للقلق إذا هي اتُخذت طابعاً علمياً، وخرجت من نطاق الأقوال إلى حيز الأفعال، ثم عكف على صوغ هذه المبادئ في قالب علمي، وأسلوب حماسي يستثير العزائم على تطبيقها، والعمل بمقتضاها مستشهداً على فائدتها وجدواها بشخصيات، منها ما أفرد له التاريخ مكاناً مرموقاً، ومنها ما لم يفرغ التاريخ بعد من تدوين سيرته.

وكانت ثمرته هذا العناء الطويل، والمجهود الشاق هذا الكتاب» اهـ

ولا ريب أن الحكمة ضالة المؤمن، وأن الإفادة من التجارب الإنسانية أمر مطلوب، والشريعة لم تأت بما يمنع ذلك، بل أذنت به، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما كان في غزوة الخندق؛ حيث أفاد النبيﷺمن الفرس في حفر

الخندق عندها أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بذلك، فلم يمانع ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أن يأخذ بتلك الخطة مع أنها فارسية.

ولو لم يأت من استعراض هذا الكتاب ـ مع ما فيه من فائدة ـ إلا أن القارئ يكبر ما كتبه علماؤنا الذين سبقوا كارنيجي بقرون طويلة؛ فإن هذا الكتاب قد نال هذه الشهرة العظيمة ما نال مع أنه لا يقارن بكتب علماء المسلمين الذين كتبوا في هذا الشأن، سواء ممن تم النقل عنهم في هذا المنتقى أو غيرهم.

هذا وإن الكتاب ليحتوي على نقص، يمكن تداركه لو كتبه بنَفَسَ مُسْلمٍ، يستضيء من خلاله بأنوار الشريعة الغراء، وينظر إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من أهل العلم والفضل قد قرأوا هذا الكتاب وأشادوا به.

ولعل من أقدم من قرأه وأعجب به من أهل العلم الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله.

فلقد سمعت ذلك في أكثر من مناسبة، ومن أكثر من شخص.

وممن حدثني بذلك أخي فضيلة الشيخ سامي بن محمد الصقير ـ حفظه الله ـ.

حيث يذكر عن الشيخين العالمين الجليلين الشيخ عبدالله البسام، والشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمهما الله ـ.

أنهما قالا: إن الشيخ عبدالرحمن السعدي لما كان في بيروت إبان فترة علاجه اطلع على كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) فأعجب به، وقال: هذا كتاب رائع، وفيه فوائد جمة، ولكن الذي كتبه ليس مسلماً، ففاته أصول عظيمة من السعادة

كقراءة القرآن، والأذكار، واحتساب الأجر، ونحو ذلك مما جاءت به الشريعة؛ فكان ذلك سبباً لتأليف الشيخ عبدالرحمن رسالته الماتعة الرائعة المختصرة التي تعد ـ بحق ـ عيادة نفسية ألا وهي: الوسائل المفيدة للحياة السعيدة.

ـ «**النقولات المنتقاة**» :

١ـ قال الأديب الإنجليزي توماس كارليل : ليس علينا أن نتطلع إلى هدف يلوح لنا باهتاً على البعد ، وإنما علينا أن ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بيِّن.ص٢٤ ـ ٢٥

٢ـ قال د.أوسلر : إن أفضل الطرق للاستعداد للغد ، هي أن نركز كل ذكائنا وحماسنا في إنهاء عمل اليوم على أحسن ما يكون ، هذا هو الطريق الوحيد الذي نستعد به للغد.ص٢٦

٣ـ لو أنني استمررت في القلق فإن من أسوأ مميزات القلق ، أنه يبدد القدرة على التركيز الذهني ، فنحن عندما نقلق نشتت أذهاننا ، ونفقد كل قدرة على البت ، أو اتخاذ قرار حاسم ، لكنا عندما نعد أنفسنا على مواجهة أسوأ الاحتمالات ، ونعد أنفسنا ذهنياً لمواجهته ـ فإننا بذلك نضع أنفسنا في موقف يسعنا فيه أن نركز أذهاننا في صميم المشكلة.ص٣٩

٤ـ إن مرض القلب من الأسباب الرئيسية التي حَدَتْ بالدكتور الكسيس كاريال إلى أن يقول : إن رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون موتاً مبكراً.ص٥٤ ـ ٥٥

٥ـ افعل شيئاً للقضاء على القلق ، فما لم تفعل شيئاً فإن محاولتك استخلاص الحقائق ليست إلا مضيعة للوقت والجهد.ص٦٦

٦ـ استغرق في العمل إذا ساورك القلق انشغل عنه بالعمل ، وإلا هلكت يأساً وأسىً.ص٨٨

٧ـ لا تسمح لنفسك بالثورة من أجل التوافه، وتذكر أن الحياة أقصر من أن نقصرها.ص٩٦

٨ـ استعن على طرد القلق بالإحصاءات والحقائق الثابتة سائل نفسك: هل هناك ما يبرر مخاوفي؟ وما مدى احتمال حدوث ما أخشاه؟ ص١٠٤

٩ـ ارض بما ليس منه بد.ص١١٦

١٠ـ إنني أعتقد مخلصاً أن تقدير الأشياء بقيمتها الصحيحة سر عظيم من أسرار الطمأنينة النفسية، والراحة الذهنية.

كما أعتقد أن في وسعنا التخلص من نصف القلق الذي يساورنا في التو واللحظة، لو أن كلاً منا اتخذ هذا المبدأ الذهبي، مبدأ تقدير الشيء بقيمته الحقة.ص١٢٤

١١ـ لا تفكر في محاولة الاقتصاص من أعدائك؛ فإنك بمحاولتك هذه تؤذي نفسك أكثر مما تؤذي أعداءك.ص١٥٩

١٢ـ فإذا أردت أن تقهر القلق وتبدأ الحياة، فإليك **القاعدة رقم (٤)**:

أحص نعم الله عليك بدلاً من أن تحصي متاعبك.ص١٧٣

١٣ـ فلكي تتخذ اتجاهاً ذهنياً يجلب لك الطمأنينة، ويجنبك القلق، إليك **القاعدة رقم (٥)**:

اعرف نفسك، وكن كما خلقك الله، ولا تحاول التشبه بغيرك.ص١٨١

١٤_ وهب أننا أصابنا اليأس، فأفقدنا كل أمل في إحالة حياة الكدرة إلى حياة عذبة صافية، فهناك سببان يدفعاننا إلى المحاولة، فقد نكسب كل شيء، ولكننا من المؤكد لن نخسر شيئاً:

السبب الأول: أننا قد ننجح في محاولتنا.

السبب الثاني: أنه على فرض إخفاقنا، فإن المحاولة ذاتها _ محاولة استبدال السالب بالموجب _ ستحفزنا على التطلع إلى الأمام بدلاً من الالتفات إلى الوراء، وستحل الأفكار الإنشائية في أذهاننا محل الأفكار الهدامة، وتولد فينا طاقة من النشاط تدفعنا إلى الانشغال بالعمل، فلا يغدو أمامنا متسع من الوقت للتحسر على الماضي الذي ولى وانتهى.ص ١٨٩

١٥_ عندما تلقي المقادير بين يديك ليمونة ملحة [1]، حاول أن تصنع منها شراباً سائغاً حلواً.ص١٩٠

١٦_ وإني ليسعني أن أملأ كتاباً كاملاً بقصص أناس نسوا أنفسهم، فاكتسبوا الصحة، والسعادة، والاطمئنان.ص١٩٨

١٧_ إن ثلث أولئك الذين يهرعون إلى عيادات الأطباء النفسيين يسعهم على الأرجح أن يشفوا أنفسهم بأنفسهم إلى الانشغال بالآخرين، أتراني أتيت بهذه الفكرة من جعبة ذكرياتي؟ بل إنها أشبه بما يقوله العالم النفساني كارل يونج:

إن ثلث عدد مرضاي لا يشكون من أمراض نفسية معلومة محددة، بقدر ما يشكون من فراغ حياتهم، وخلوها من البهجة والمتعة.١٩٩ _ ٢٠٠

١_ لو قال: حامضة.

١٨ـ مهما تكن حياتك متشابهة متشاكلة الأيام فإنك على التحقيق تقابل ناساً كل يوم فما الذي تفعله معهم؟ خذ ساعي البريد مثلاً؛ إنه يقطع مئات الأميال كل يوم حاملاً إليك بريدك، فهل تكلفت يوماً عناء البحث عن مسكنه؛ لترى كيف يعيش؟ وهل سألته إن كانت قدماه قد كلّتا من السعي، أو أن الملل داخله من عمله المتشابه؟

وقل مثل هذا القول عن صبي البقال، وبائع الصحف، وماسح الأحذية، هؤلاء آدميون تثقل عليهم ـ ولا ريب ـ الهموم والمشكلات، وتراودهم الأحلام والآمال، وهم ـ بلا شك ـ يتحرقون لهفة إلى أن يشاركهم الناس حمل همومهم، ويشاطرونهم آمالهم؛ فهل حققت لهم شيئاً من هذه الرغبة، وهل أبديت اهتمامك يوماً بحياتهم الخاصة؟ هذا هو ما أعني.

ليس عليك أن تصبح فلورنس تيتنجيل، ولا أن تغدو مصلحاً اجتماعياً لكي تساهم في تحسين أحوال الناس، أبدأ بمن تقابلهم كل يوم.

ثم تسألني: وما جدوى ذلك كله؟ جدواه السعادة والرضا، واكتساب الثقة بنفسك، وقد كان أرسطو يسمي هذا الضرب من معاونة الناس: الأنانية المستنيرة.

وقد قال زورد ستار: إن معاونة الناس ليس واجباً محتوماً، ولكنها متعة تزيدك صحة وسعادة.

وقال: بنجامين فرانكلين: عندما تسعد الناس تسعد نفسك.ص٢٠٠ ـ ٢٠١

١٩_ واعلم أن الانشغال بالناس لن يجديك خلاصاً من القلق وحسب، ولكن سيعينك أيضاً على اكتساب أصدقاء جدد، والاستمتاع بأوفر قسط من المتعة.ص٢٠١

٢٠_ انس نفسك، وصب اهتمامك على الآخرين.

اصنع في كل يوم عملاً طيباً يرسم الابتسامة على وجه إنسان.ص٢٠٥

٢١_ وإني لأذكر الأيام التي لم يكن للناس فيها حديث سوى التنافر بين العلم والدين، ولكن هذا الجدال انتهى إلى غير رجعة، فإن أحدث العلوم _ وهو الطب النفسي _ يبشر بمبادئ الدين، لماذا؟

لأن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي، والاستمساك بالدين، والصلاة _ كفيلة بأن تقهر القلق، والمخاوف، والتوتر العصبي، وأن تشفى أكثر من نصف الأمراض التي نشكوها، نعم إن أطباء النفس يدركون ذلك وقد قال قائلهم الدكتور أ.أ بريل: إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً.ص٢١١ _ ٢١٢

٢٢_ حين تستنفذ الخطوب كل قوانا أو تسلبنا الكوارث كل إرادة، غالباً ما نتجه في غمرة اليأس إلى الله، فلماذا _ بالله _ ننتظر حتى يتولانا اليأس؟ لماذا لا نجدد قوانا كل يوم بالصلوات، والحمد، والدعاء؟.ص٢١٦

٢٣_ فلماذا لا نتجه إلى الله إذا استشعرنا القلق؟ ولماذا لا نؤمن بالله ونحن في أشد الحاجة إلى هذا الإيمان؟.ص٢٢٢

٢٤_ لماذا لا تغلق الكتاب عند هذا الحد، وتذهب إلى غرفة نومك وتركع لله، وتفتح له مغاليق قلبك؟.ص٢٢٣

٢٥_ بقدر قيمتك يكون النقد الموجه إليك.ص٢٢٤

٢٦_ تذكر أن النقد الظالم إنما هو اعتراف ضمني بقدرتك، وأنه بقدر أهميتك وقيمتك يكون النقد الموجه إليك.ص٢٢٧

٢٧_ وإني لأعلم علم اليقين أن الناس لا يشغلهم التفكير في زيد أو عمرو من الناس أكثر من لحظات، فهم مشغولون بالتفكير في أنفسهم منذ يفتحون أعينهم على اليوم الجديد، حتى يأوون إلى مضاجعهم، وأن صداعاً خفيفاً يلم بهم لهو كفيل بأن يلهيهم عن خبر موتي أو موتك.ص٢٢٩

٢٨_ وحتى لو نالنا من الناس كذب وافتراء، وطعن يوجه إلى ظهورنا جهراً أو في الخفاء، فلا ينبغي أن يحزننا هذا.ص٢٢٩

٢٩_ لقد اكتشفت منذ سنوات أنني _ وإن عجزت عن اعتقال ألسنة الناس حتى لا يطلقوها فيَّ ظلماً وعدواناً _ إلا أنه وسعني أن أفعل ما هو خير من هذا؛ أن أتجاهل لوم الناس ونقدهم.ص٢٢٩

٣٠_ ودعني أوضح لك ما أعني: إنني لا أطلب إليك أن تتجاهل النقد إطلاقاً، وإنما أقصد النقد الظالم المغرض.ص٢٢٩

٣١_ وتتجلى فائدة هذا الشعار حين تغدو هدفاً لنقد ظالم مغرض.

فأنت _ ولا ريب _ قدير على رد الصاع صاعين للرجل الذي يتصدى للرد على انتقادك له، ولكن ماذا عساك تفعل للرجل الذي يضحك من انتقادك له؟ لقد كان لنكولن خليقاً بأن ينهار تحت وطأة التوتر الذي ساير الحرب الأهلية الأمريكية، لو لم يدرك أن محاولة الرد على كل نقد يصيبه سخافة وحماقة.

قال لنكولن: «لو أنني حاولت أن أقرأ ـ لا أن أرد وحسب ـ كل ما وجه إلي من نقد لشغل هذا كل وقتي، وعطلني عن أعمالي، إنني أبذل جهدي في أداء واجبي؛ فإذا أثمرت جهودي فلا شيء من النقد الذي وجه إلي يهمني من بعد ذلك، وإذا خاب مسعاي، فلو أقسمت الملائكة على حسن نواياي لما أجدى هذا فتيلاً، فحسبي أنني أديت واجبي وأرضيت ضميري».

وإذن فعندما يوجه إليك النقد ظلماً وعدواناً، تذكر **القاعدة رقم (٢)**:

ركز جهودك في العمل الذي تشعر من أعماقك أنه صواب، وصم أذنيك بعد ذلك عن كل ما يصيبك من لوم اللائمين.ص٢٣٠

٣٢ـ في أحد أدراج مكتبي ملف خاص مكتوب عليه (حماقات ارتكبتها) وأنا أعتبر هذا الملف بمثابة سجل واف للأخطاء والحماقات التي ارتكبتها.

وبعض هذه الأخطاء أمليته، وأما بعضها الآخر، فقد خجلت من إملائه، فكتبته بنفسي، ولو أنني كنت أميناً مع نفسي لكان الأرجح أن يمتليء مكتبي بالملفات المكتوب عليها (حماقات ارتكبتها).ص٢٣١

٣٣ـ وعندما أستخرج سجل أخطائي، وأعيد قراءة الانتقادات التي وجهتها إلى نفسي، أحس أنني قادر، مستعيناً بِعِبَرِ الماضي على مواجهة أقسى وأشد المشكلات استعصاءاً.ص٢٣١

٣٤ـ لقد اعتدت ـ فيما مضى ـ أن أُلقي على الناس مسؤولية ما ألقاه من مشكلات، لكني وقد تقدمت بي السن، وازددت حنكة وتجربة فيما أخال أدركت آخر الأمر؛ أنني وحدي المسؤول عما أصابني من سوء، وفي ظني أن

كثيراً من الناس يدركون ما أدركت، ولقد قال نابليون وهو في منفاه بجزيرة سانت هيلانة: «لا أحد سواي مسئول عن هزيمتي؛ لقد كنت أنا أعظم عدو لنفسي». ص٢٣١

٣٥_ وإنك لتجد الحمقى وحدهم هم الذين ينساقون وراء الغضب لأتفه ما يوجه إليهم من اللوم.

أما العقلاء فيتلهفون على إدراك ما ينطوي عليه اللوم من الحقيقة؛ ليعملوا على تلافيه، وفي هذا الصدد يقول والت ويتمان: «أتراك تعلمت دروس الحياة من أولئك الذين امتدحوك وآزروك، وحنوا عليك؟ أم تعلمتها من أولئك الذين هاجموك، وانتبذوك، وقست قلوبهم عليك؟». ص٢٣٢ _ ٢٣٣

٣٦_ ليت شعري، لماذا ننتظر حتى يلومنا الناس على عمل اقترفناه؟ أفليس الأكرم لنا أن نكون نحن نقاداً ولائمين لأنفسنا؟ دعنا إذاً نفتش عن أخطائنا، ونجد لها الدواء الشافي، قبل أن يفتح أعداؤنا أفواههم بكلمة لوم، أو بعبارة نقد. ص٢٣٣

٣٧_ افترض أن أحداً اتهمك بأنك غر أحمق! فماذا عساك تفعل؟ أتغضب؟ أتثور؟ لا تجب..وإنما انظر إلى ما فعله لنكولن في مثل هذا الموقف؛ فقد وصفه (ادوارد ستانتون) وزير الحربية في عهده بأنه غِرٌّ أحمقُ، وكان مبعث غضب ستنانتون أن لنكولن لا يحسن سياسة الأمور؛ إذ إنه _ أي لنكولن _ لكي يرضي أسرة لأحد السياسيين وقَّع أمراً بنقل بعض فرق الجيش من مواقعها.

ورفض ستانتون أن ينفذ هذا الأمر ، بل زاد على ذلك ، فوصف لنكولن : بأنه غر أحمق؛ لأنه وقع في هذا الأمر.

فلما تناهى قول ستانتون إلى لنكولن ، قال الأخير: «**إذا كان ستانتون يقول أنني غر أحمق فلا بد أنني كذلك ، فإنه يوشك أن يكون صائباً في كل ما يقول ، سأذهب إليه لأتحقق من الأمر بنفسي**» .

وذهب إليه لنكولن ، فأقنعه ستناتون بأن توقيع هذا الأمر كان في غير محله ، فحسب لنكولن الأمر! نعم هذا هو كل ما حدث! فقد رحب لنكولن بالنقد حين عرف أنه نقد نزيه، قائم على الحقائق المجردة، وهدفه وضع الأمور في نصابها.ص٢٣٣ _ ٢٣٤

٣٨_ وأخلق بك وبي أن نرحب _ نحن أيضاً _ بمثل هذا النقد؛ فإننا على التحقيق «لا نأمل أن نكون على صواب ثلاث مرات من كل أربع » .ص٢٣٤

٣٩_ فلكي تتقي القلق الذي يجلبه لك النقد ، إليك **القاعدة رقم (٣)**:

احتفظ بسجل تدون فيه الحماقات والأخطاء التي ارتكبتها واستحققت النقد من أجلها ، وعد إليه بين حين وآخر؛ لتستخلص منه العبر التي تفيدك في مستقبلك ، واعلم أن من العسير أن تكون على صواب طوال الوقت ، فلا تستنكف أن تفعل مثلما فعل (أ هـ ليتل): اسأل الناس النقد النزيه الصريح.ص٢٣٥

٤٠_ النقد الظالم ينطوي غالباً على إطراء متنكر ، فمعناه _ على الأرجح _ : أنك أثرت الغيرة والحسد في نفوس منتقديك.ص٢٣٦

٤١ـ أكثر من الراحة، واسترح قبل أن يفاجئك التعب.ص٢٣٨

٤٢ـ أخل مكتبك مما عليه من أوراق خلا ما كان منها متعلقاً بالمسألة التي بين يديك.ص٢٥٤

٤٣ـ إن ثمة شيئين لا يشتريان بالمال: القدرة على التفكير، والقدرة على إنجاز الأشياء بحسب ترتيبها في الأهمية.ص٢٥٥

٤٤ـ إذا ظهرت لك مشكلة فاعمد إلى حسمها فور ظهورها.

لا تؤجل قراراً تستطيعه اليوم إلى غد.ص٢٥٥

٤٥ـ فالرجل الذي يؤسس عملاً، ثم لا يتعلم كيف ينظمه، ويوزع أعباءه على الغير، بينما هو يشرف على إدارته ـ غالباً ما تراه في الحلقة الخامسة من عمره أشبه بشيخ فان؛ من فرط ما ركبه من القلق والتوتر.ص٢٥٦

٤٦ـ القلق الذي يصاحب الأرق هو أخطر بكثير من الأرق ذاته.ص٢٦٢

٤٧ـ إذن لكي تتفادى القلق الناشئ عن الأرق، إليك خمس قواعد:

١ـ إذا استعصى عليك النوم، فافعل كما كان يفعل (صمويل ارتماير): قم إلى مكتبك واكتب، أو اقرأ، حتى يتسلل النعاس إلى عينيك.

٢ـ تذكر ألا أحد مُطْلَقاً مات أرقاً، وإنما القلق الذي يلازم الأرق هو مبعث الضرر.

٣ـ جرب الصلاة قبل النوم؛ فإنها خير أداة لبث الأمن في النفوس، والراحة في الأعصاب.

٤_ أرح جسدك، وحدث كل عضلة من عضلاتك بالاسترخاء حتى تسترخي.

٥_ زاول أحد أنواع الرياضة البدنية، فإذا شعرت بالتعب فثق أنك ستنام.ص٢٦٥

٤٨_ تذكر أن اليوم هو الأمس الذي أشفقت من مواجهته، واسأل نفسك على الدوام: كيف أعلم أن ما أشفق منه سوف يحدث؟.ص٢٨٤

٤٩_ وحين أخذ الأطباء على عاتقهم رعاية حياة (روكفلر) أوصوه: باتباع ثلاث قواعد..فاتبعها (روكفلر) إلى آخر حياته، وإليك هذه القواعد الثلاث:

١_ تجنب القلق مهما تكن الظروف والأحوال.

٢_ استرخ وتنزه ما أمكن في الهواء الطلق.

٣_ قلل من غذائك، انهض عن المائدة وأنت تشعر بالجوع.ص٣٠٦

الثالث عشر : نقولات مختارة من كتاب:

كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس تأليف ديل كارنيجي

ـ «**تعريف بالكتاب**» :

هذا الكتاب من تأليف ديل كارنيجي ، وتعريب عبدالمنعم بن محمد الزيادي.

ومضمون الكتاب واضح من عنوانه؛ فهذا الكتاب يحوي ما خرج به مؤلفه من مطالعاته العديدة، وبحوثه الواسعة في التراجم، وعلم النفس، والتربية، والتاريخ، وغيرها فضلاً عما توصَّل إليه من نتائج بعد تجارب دامت أكثر من عشرين سنة في معهده للعلاقات الإنسانية الذي أسسه بنفسه، والذي يعد أول معهد من نوعه في العالم أجمع.

وغرض هذا الكتاب ـ كما يقول المعرِّب ـ: أن يوضح لك أقصر الطرق وأضمنها للحصول على النجاح، والمقدرة على مواجهة الحياة.

ـ «**النقولات المنتقاة**» :

١ـ فاللوم عقيم؛ لأنه يضع المرء في موقف الدفاع عن نفسه، ويحفز إلى تبرير موقفه، والذود عن كبريائه وعزته.

وفي وسعك أن تجد ألف مثل على عقم اللوم مسطرة في ألف صفحة من صفحات التاريخ ص٨

٢ـ ينبغي أن تذكر في معاملتك للناس أنك **لا** تعامل أهل منطق، بل أهل عواطف، وشعور، وأنفس حافلة بالأهواء، ملأى بالكبرياء، والغرور.

واللوم شرارة خطيرة في وسعها أن تضرم النار في وقود الكبرياء، وأن تضرمها ناراً قد تعجل بالموت أحياناً.ص١٧ ـ ١٨

٣ـ وإن أي أحمق يسعه أن يلوم، وأن يتهم، وأن ينتقد؛ بل هذا أغلب ما يفعله الحمقى! فدعنا بدلاً من أن نلوم الناس نحاول أن نفهم، وننتحل لهم الأعذار فيما فعلوا، فهذا أمنع من اللوم، وهو يعقب الشفقة، والرحمة، والاحتمال.ص١٨ ـ ١٩

٤ـ ليس ثمة إلا طريقة واحدة تحمل بها شخصاً على أن يقبل على عمل ما؟ تلك هي ترغيب الشخص في هذا العمل.ص**٢٠**

٥ـ وإنك لتجد كثيراً من الناس يصيبهم المرض إذا أعجزهم اكتساب عطف الناس عليهم، واهتمامهم بهم.ص**٢٤**

٦ـ وقد وجدت بالتجربة، أن في وسع المرء أن يفوز باهتمام أرفع الناس قدراً، وأعظمهم درجة، لو أنه أبدى بهم اهتماماً.ص٥٦

٧ـ إذا نحن أردنا أن نكتسب الأصدقاء، فلنضع أنفسنا في خدمة غيرنا من الناس، ولنمد لهم يداً مخلصة نافعة، مجردة عن الأنانية والمصلحة الذاتية.ص٥٨

٨ـ إن تعبيرات الوجه تتكلم بصوت أعمق أثراً من صوت اللسان، وكأني بالابتسامة تقول لك عن صاحبها: «إني أحبك، إنك تمنحني السعادة، إني سعيد برؤيتك» !.ص٦٥

٩ـ ولا تحسب أنني أعني بالابتسامة مجرد علامة ترنم على الشفتين، لا روح فيها ولا إخلاص، كلا! فهذه لا تنطلي على أحد، وإنما أتكلم عن الابتسامة الحقيقية التي تأتي من أعماق نفسك، تلك هي الابتسامة التي تجلب الربح الجزيل في ميادين المال والأعمال.ص٦٥ ـ ٦٦

١٠ـ فالطريق المؤدية إلى الابتهاج، إذا فقدنا الابتهاج، هي أن نتصرف كما لو كنا مبتهجين حقاً.ص٦٩

١١ـ كانت لأهل الصين القدامى حكم رائعة، ومنها هذه الحكمة التي يجمل بنا أن نعلقها على صدورنا؛ كي لا ننساها أبداً:

«إن الرجل الذي لا يعرف كيف يبتسم لا ينبغي له أن يفتتح متجراً» ص٧٢

١٢ـ إنها لا تكلف شيئاً، ولكنها تعود بالخير الكثير، إنها تغني أولئك الذين يأخذون، ولا تفقر أولئك الذين يمنحون!.

إنها لا تستغرق أكثر من لمح البصر، لكن ذكراها تبقى إلى آخر العمر!.

لن تجد أحداً من الغنى بحيث يستغني عنها، ولا من الفقر في شيء وهو يملك ناصيتها!.

إنها تشيع السعادة في البيت، وطيب الذكر في العمل، وهي التوقيع على ميثاق المحبة بين الأصدقاء.

إنها راحة للتعب، وشعاع الأمل للبائس، وأجمل العزاء للمحزون.

وبرغم ذلك فهي لا تشترى، ولا تستجدى ولا تقترض، ولا تسلب ! إنها شيء ما يكاد يؤتي ثمرته المباركة حتى يتطاير شعاعاً !.

فإذا أتاك رجالنا ليبيعوك ما يحتاج إليه، وألفيتهم من التعب والإرهاق بحيث عز عليهم الابتسام _ فكن أخا كرمٍ، وامنحهم ابتسامة من لدنك؛ فوالله إن أحوج الناس إلى الابتسامة هو الذي لم يبق له شيء من الابتسام ليهبه !.

فإذا أردت أن يحبك الناس فاتبع **القاعدة رقم ٢** : ابتسم.ص٧٣ _ ٧٤

١٣_ لقد كان الرئيس روزفلت يعرف أن إحدى الطرق السهلة المضمونة لاكتساب قلوب الناس هي تذكر أسماءهم، وجعلُهم بهذا يشعرون بأهميتهم؛ فكم منا يفعل ذلك ؟!.

إننا نقضي نصف الوقت الذي نتعرف فيه على غريب نتبادل بضع كلمات جوفاء، ثم لا نستطيع حتى أن نذكر اسمه عندما يحيينا لينصرف !.ص٨٣ _ ٨٤

١٤_ فإذا أردت أن يحبك الناس، فاتبع **القاعدة رقم٣** :

اذكر أن اسم الرجل هو أجمل وأحب الأسماء إليه.ص٨٥

١٥_كن مستمعاً طيباً، وشجع محدثك على الكلام عن نفسه.ص٩٨

١٦_ فإذا أردت أن يحبك الناس، فاتبع **القاعدة رقم ٥** :

تكلم فيما يسر محدثك، ويلذ له.ص١٠٣

١٧ـ تذكر قول إيمرسون: «كل شخص ألقاه يفوقني في ناحية واحدة على الأقل، وفي هذه الناحية يمكن أن آخذ عنه وأتعلم منه».ص١١٠

١٨ـ فلكي تجذب الناس إلى وجهة نظرك، اتبع **القاعدة رقم واحد**:

لا تجادل..واعلم أن أفضل السبل لكسب جدال هو أن تتجنبه.ص١٢٨

١٩ـ إذا كنت مخطئا فسلِّم بخطئك.ص١٤١

٢٠ـ إذا كنت مهتاج الخاطر، محنقاً مغيظاً، وصببت جام حنقك وغيظك على الشخص الآخر ـ فلا شك أنك ستزيح عن كاهلك عبثاً كان يرهقك، ولكن ما بال الشخص الآخر؟ أيشاركك راحتك؟! أتجعله لهجتُك الحادةُ، وموقفك العدائي منه أقرب إلى موافقتك، ومشاطرتك الرأي؟!ص**٢**١٤

٢١ـ إذا كان قلب الرجل مفعماً بالحنق عليك، والبغضاء لك فلن يسعك أن تكسبه إلى وجهة نظرك بكل ما في الوجود من منطق؛ فليدرك هذا الآباء اللائمون، والأزواج المنتقدون، والمديرون الطاغون.

ولكن الأقرب إلى الاحتمال أن يصل هؤلاء إلى أغراضهم إذا توسلوا باللطف، والرفق واللين.ص١٤٥

٢٢ـ قد يكون الشخص الآخر مخطئاً، ولكنه لن يسلم بخطئه أبداً؛ فلا تلمه؛ إن أي أحمق يسعه أن يلوم، ولكن حاول أن تفهمه، واستعن عليه بالصبر الجميل، وسوف تجد أن هناك سبباً خفياً قد أوحى للرجل أن يفكر كما يفكر، أو يتصرف كما يتصرف، فإذا عرفت هذا السبب ألفيت بين يديك مفتاح شخصيته جميعاً.

حاول مخلصاً أن تضع نفسك مكانه ، قل لنفسك :

« ترى كيف أحس ، وكيف أتصرف لو أنني كنت في مكانه ؟ »

وسوف ترى عندئذٍ أنك وفرت على نفسك وقتاً طويلاً ، وعناء شديداً ، فضلاً عن أنك ستكسب خبرة بفن معاملة الناس.ص١٧٦

٢٣ـ أتريد أن تتعلم عبارة سحرية تصفِّي جو الحديث في الحال مما قد يعتكره ، وتشيع فيه روحاً طيبة ، وتحدو بالشخص الآخر إلى الإنصات إليك باهتمام ؟

ها هي ذي : قل لمحدثك : « إنني لا ألومك مثقال ذرة لوقوفك هذا الموقف ، وإحساسك هذا الإحساس ، ولو كنت مكانك لأحسست تماماً مثلما تحس ، واتخذت مثل الموقف الذي تتخذ.

عبارة كهذه كفيلة بأن تكسر حدّة أطول الناس باعاً في السفاهة والجدل ! وفي وسعك أن تقول هذه العبارة ، وتكون مخلصاً صادقاً مائة في المائة؛ لأنك لو كنت مكانه لصنعت فعلاً مثلما صنع.ص١٨١

٢٤ـ إن كل من تلقاه من الناس ، حتى الشخص الذي تطالعك صورته في المرآة ، يحمل لنفسه تقديراً كبيراً ، ويجب ـ مع هذا ـ أن يقال عنه إنه متحرر من الأنانية ، متبرئ من حب اللذات.

فإذا شئت أن تغير طباع الناس وجب أن تتوسل إلى الدوافع النبيلة في نفوسهم ، أفترى هذا أمراً عسيراً يتعذر تطبيقه في الحياة العملية ؟ ص١٨٩ـ١٩٠

٢٥ـ فإذا أردت أن تكسب الناس ذوي الروح الوثابة ، والشجاعة الأدبية إلى وجهة نظرك ـ فاتبع **القاعدة رقم ١٢** :

ضع الأمر موضع التحدي.ص٢٠٥

٢٦_ فلكي تسلس قيادة الناس _ إذن _ دون أن تسيء إليهم أو تستثير عنادهم، إليك **القاعدة رقم١** :

إبدأ بالثناء المستطاب، والتقدير المخلص.ص٢١٣

٢٧_ فلكي تملك زمام الناس دون أن تسيء إليهم أو تستثير عنادهم، إليك **القاعدة رقم٢** :

الفت النظر إلى الأخطاء من طرف خفي.ص٢١٦

٢٨_ فلكي تملك زمام الناس دون أن تسيء إليهم أو تستثير عنادهم، اتبع **القاعدة رقم٣** :

تكلم عن أخطائك قبل أن تنتقد الشخص الآخر.ص٢٢١

٢٩_ قدم اقتراحات مهذبة، ولا تصدر أوامر صريحة.ص٢٢٣

٣٠_ دع الرجل الآخر يحتفظ بماء وجهه !ص٢٢٤

٣١_ فإذا أردت أن تؤثر في سلوك إنسان دون أن تستثير عناده، أو تسيء إليه فاذكر **القاعدة رقم٧** :

أسبغ على الرجل ذكراً حسناً يقم على تدعيمه! ص٢٣٥

٣٢_ فإذا أردت أن تسلس قيادة الناس دون أن تسيء إليهم أو تستثير عنادهم، فاتبع **القاعدة رقم٨** :

اجعل الغلطة التي تريده إصلاحها تبدو ميسورة التصحيح، واجعل العمل الذي تريده أن ينجز يبدو سهلاً هيناً.ص٢٣٩

٣٣_ حبب الشخص الآخر في العمل الذي تقترحه عليه.ص٢٤٢

صدر من هذا المنتقى المجموعة الأولى وتضمنت انتقاءاً من الكتب التالية :

١ـ الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع.

٢ـ صيد الخاطر لابن الجوزي.

٣ـ الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم.

٤ـ العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٥ـ الاستقامة لابن تيمية.

٦ـ جامع الرسائل لابن تيمية.

٧ـ الفوائد لابن القيم.

٨ـ إغاثة اللهفان لابن القيم.

٩ـ الحرية في الإسلام للشيخ محمد الخضر حسين.

١٠ـ نقض كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد الخضر حسين.

١١ـ هدى ونور لمحمد الخضر حسين.

١٢ـ أليس الصبح بقريب للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

١٣ـ وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي.

١٤ـ آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

١٥ـ مواعظ الإمام عمر بن عبد العزيز.

١٦ـ مواعظ الإمام مالك بن دينار.

١٧ـ مواعظ الإمام أبي حازم سلمة بن دينار.

١٨_ مواعظ الإمام سفيان الثوري.

١٩_ مواعظ الإمام إبراهيم بن أدهم.

٢٠_ مواعظ الإمام عبد الله بن المبارك.

٢١_ مواعظ الإمام الفضيل بن عياض.

وهذه الكتب الأخيرة للشيخ صالح الشامي.

٢٢_ طاقتك الكامنة لسمير شيخاني.

٢٣_ قوة الاعتزاز بالنفس ساموئيل أ. سيبرت.

وسيصدر قريباً _ إن شاء الله _ (***المجموعة الثالثة***).

المحتويات

المكي بن الحسين: